هكذا غنى

طاغور

*



ترجمة

خليفة محمد التليسي

الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

هكذا غنّى طاغور

هكذا غنى طاغور

*

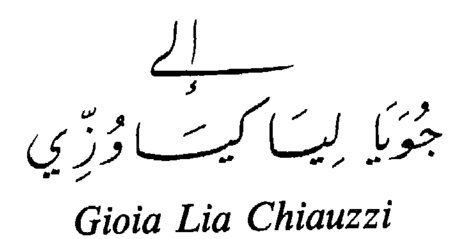
ترجمة:

خليفة محمد التليسي

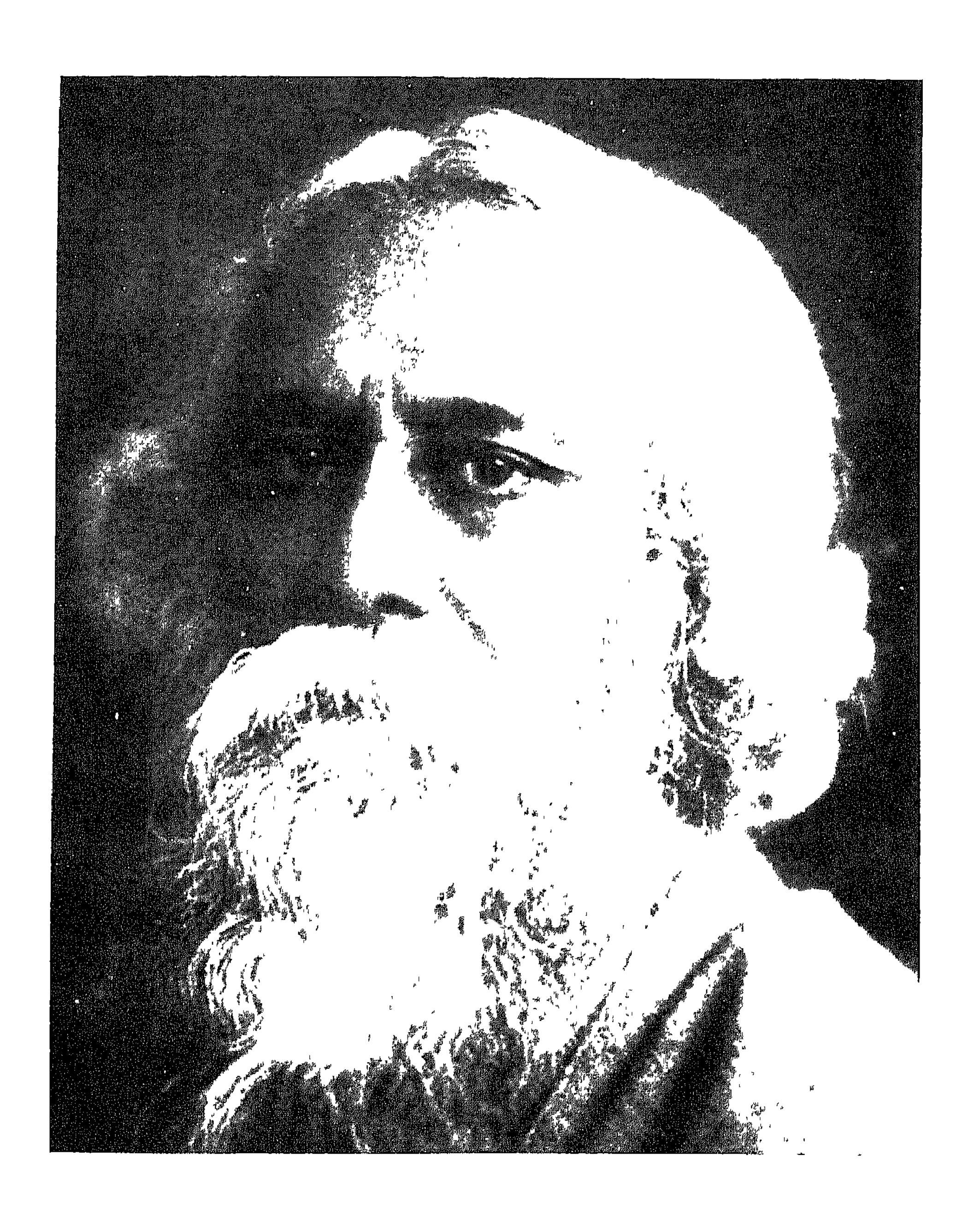
الدار العربية للكتاب
ليبيا - تونس

المؤسسة الوطنية للكتاب
الجزائر

رقــم الايداع بدار الكتب الوطنيــة
89/673
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى


إلى
جُويَا لِيَا كِيَاوُزِّي
Gioia Lia Chiauzzi





طاغور
هذا الشاعر العظيم

بقلم: خليفة محمد التليسي

كان طاغور محظوظا في بيئته الأسرية التي وفرت له ، وفي وقت مبكر فرص اللقاء بأرفع صور الثقافة والفن والأدب .

وكان محظوظا أيضا فيما نعمت به هذه الأسرة من بسطة في الرزق ورفعة في المركز الإجتماعي مما رد عنه ظروف المشقة والعناء في التحصيل والتكوين .

وكان محظوظا فيما أعدت له الأسرة من مربين ومعلمين خاصين حين رفضت طبيعته ونوازعه الحرة الخضوع لبرامج ومناهج التعليم النظامي .

وكات محظوظا أيضا في هذا التبجيل الذي خص به ، ورافق حياته كلّها على المستوى الوطني والعالمي وانتهى به في نهاية المطاف إلى الظفر بجائزة نوبل للأداب بعد سنة واحدة من نشره لمجموعته الشعرية جتنجالي. وكان أول شاعر شرقي يظفر بها .

وكان محظوظا في أن معرفته باللغة الإنجليزية قد هيأت له سبيل الكتابة فيها مباشرة . أو ترجمة أعماله بنفسه أو الإشراف عليها شخصيا مما جعل هذه الترجمات أصدق مطابقة للأصل ، وجلبت لصاحبها تلك المكانة العالمية التي جعلت منه أحد الرموز الكبرى في الأدب العالمي الحديث .

وكان طاغور محظوظا ـ قبل هذا وذاك ـ بما تميزت به شخصيته من مشاعر الوداعة والقداسة والطمأنينة والهدوء والرضا والتقبل لما تقضي به المشيئة الإلهية مما هون عليه بعض النكبات العائلية التي أصابته في زوجته وولديه وبعض اقربائه بل زاد ذلك في عمق تصوفه وإبداعه وانصرافه إلى خدمة الآخر في محبة وحماس .

ولا يعني ذكر الحظ هنا ، أن الرجل كان من ذوي المواهب المتوسطة التي يشترك الحظ في إبرازها ، وتضخيمها ، وإنّما يعني أن ظروف حياته وإبداعه سارت وفق ما يرتضيه لنفسه ، وفي نسق واحد متتابع ومنسجم ، جعل أعماله كلّها ، سواء ما اتصل منها بالجانب الإبداعي أو الجانب العملي ، تنساب في وفاق وتناغم ، فكأنه النهر الهادىء الذي لا يخطىء طريقه ، من منبعه إلى مصبه . أو ذلك اللحن الموسيقي المتصاعد في توزيع بديع حتّى تقضي الخاتمة بنهايته المحتومة فلا تكون هذه الخاتمة إلّا كمالا للإنجاز وتمامًا للإبداع .

وإذا كانت حياة الشاعر قد خلت حقا مما يثير فضول الناس من مجازفات ومغامرات عاطفية يشغلهم البحث عنها في حياة العظماء . إلّا أن مجاهداته الروحية ومغامراته الباطنية تبلغ من العمق ما يفوق بواعث الفضول السطحي المنبهر بالوقائع والمغامرات العابرة .

على أن أهم ما يميز هذه الحياة هي تلك العصامية النادرة في التحصيل وبناء الذات . فهو رجل لم يتلق تعليما منتظما ولم يتسلح بالشهادات ، ومع ذلك بلغ تلك المكانة المرموقة التي جعلت الجامعات تأتي إليه لتكريمه .

لا يعرف الشعر العالمي الحديث شاعرا استطاع أن يجمع في باقة شعرية واحدة الشعر والدين والفلسفة ، دون أن يجور واحد منها على الأخر كما فعل طاغور . ومن هنا نسبت إليه صفة الشاعر الفيلسوف ولكن طاغور لم يكن فيلسوفا بالمعنى الأكاديمي ، ونسبت إليه صفة الشاعر المتدين . ولم

يكن طاغور متدينا بالمعنى التقليدي المتزمت ، ولكن أعظم صفاته حقا أنه كان شاعرا عظيما اتسع قلبه لكل القيم الإنسانية الرفيعة ، فكان منه هذا الرمز الذي يعانقه المسيحي فيشعر له بقرابة المسيحية ويقرأه المسلم فيشعر له بقرابة الإسلام ، ويعانقه أي مؤمن بأي دين وعقيدة تعلي من شأن الإنسان . ويبدو من سيرته وشعره أن كان التحقيق العملي لما طمح إليه والده في يوم من الأيام من توحيد الأديان الكبرى وصهرها في دين واحد .

هز هذا الصوت ، عند أول ظهوره ، الوجدان الغربي الذي وجد فيه الجانب المفقود في حضارته الحديثة ، فتلقف شعره وأغانيه ، بل ربما أمكن القول أنه وجد سبيله بسهولة إلى هذا الوجدان ، بأكثر مما وجدها في بلاده .

وقد تعرض طاغور ، على مكانته الشعرية الكبيرة ، لما يتعرض له جميع النابغين والمبدعين الكبار من جحود ونكران في وطنهم . ووجد إغفالا في تقدير قيمته الأدبية .

وقد سجل ذلك في قصيدة رائعة تحمل معنى العتاب أكثر مما تحمل طابع الحقد أو النقمة ، وتصور واقع الحال في علاقته مع البيئة التي عاش فيها ...

في الصباح
ألقيت شباكي في البحر
واستخرجت من اللجة المظلمة
أشياء غريبة المنظر ، رائعة الجمال
بعضها يتألق كأنه ابتسامة
وبعضها يلمع كأنه دمعة
وبعضها وردي كأنه خدود عروس

وحين عدت إلى بيتي في نهاية المساء
حاملا غنيمتي
كانت حبيبتي تجلس في الحديقة
تنزع في كسل بتلات زهرة
وفي تهيب واحتشام
وضعت تحت قدميها ، كل صيدي
فنظرت إليه في استخفاف ، وقالت :
ماهذه الأشياء الغريبة؟
لست أدري ما نفعها ؟
فأحنيت رأسي في خجل ، وفكرت
« لم أصارع للحصول عليها
إنها عطايا ليست جديرة بك »
ولبثت طوال الليل
ألقيها واحدة واحدة
في الطريق
وفي الصباح جاء المسافرون
وجمعوها ، وحملوها إلى بلدان بعيدة

ويذكر أن طاغور عندما أسندت إليه جائزة نوبل تنادى قومه لتكريمه والاحتفال به ، فقال في شيء من الاستهانة والازدراء (إنهم يكرمون التكريم)... أي أنهم لم يفطنوا إلى قيمته من قبل ، وإنما جاؤا لتكريمه بعد أن جاءته جائزة نوبل .

وقد استقبل بشيء من الجفاء ، وفدا كبيرا جاء لتهنئه بهذه المناسبة ولم يخف المرارة التي كان يحسها لإغفال القوم شأنه هذا الكبير.

وديوانه جنتجالي الذي جلب له الشهرة العالمية غلّب الزهد والتصوف على ألوان الصورة التي يحملها الناس عنه .

وقد حاول كل فريق أن يجد له صلة أو خيوطا تصله بهذا الإبداع .
فادعى المسيحيون أنه يستلهم الإنجيل .
وادعى اليهود أنه يستلهم التوراة وادعاه الإنجليز فقالوا إنه كتب بالأنجليزية وتأثر بشعراء وأدباء الرومانسية الأنجليزية .

وبقي فريق هو أقرب الفرق إلى حياته وبيئته وثقافته لم يدعه ، وإن شغل بأدبه وترجمته والتعريف به ، دون أن يتعمقه أو يبحث عن الخيوط التي تشده إلى التراث الإسلامي .

وما أكثر ما يكتشف المرء من صلة لهذا الشاعر بهذا التراث وأثره في تربية وجدانه . وقد كان الإسلام من الأديان الكبرى التي يحترمها طاغور . وكان يعلم تلاميذه احترامها .

وهو دين شديد الصلة بحياته اليومية وحياة أسرته . فقد ولد طاغور ونشأ في اقليم البنغال ، وفي بيئة يهيمن عليها العنصر الإسلامي . وقد ظفرت أسرته بمكانه مرموقة في ظل الإمارات الإسلامية ، قبل الإحتلال البريطاني . ولم يستطع الباحثون الغربيون المنصفون إلّا أن يكتشفوا أثر الجوار للبيئات الإسلامية على وجدانه .

وما من أحد يستطيع أن يجحد أن الإسلام هو أحد ثلاثة ركائز قامت عليها الروحية الهندية والثقافة الهندية التقليدية والمعاصرة بصفة خاصة ، وهي الهندوسية والإسلام والثقافة الوافدة مع الإستعمار البريطاني . وقد تفاعلت هذه العناصر في التكوين الفكري والوجداني لطاغور بما يظهر أثرها واضحا في إبداعه .

ورغم أن الهند هي موطن التصوف فإن المرء يتبين بسهولة أن تصوف طاغور كان من حيث منحاه العملي أقرب إلى الصيغة التي تبناها التصوف الإسلامي وأن هناك طابعا عمليا منغمسا في الحياة ، يميز تصوف طاغور عن تصوف أسلافه من الهنود .

فالحياة الروحية لديه لاتنفصل عن الحياة العملية بل هما يتداخلان ويندمجان في وحدة شاملة ونسق باهر ، وإقبال على الحياة بأفراحها وأتراحها ومهرجاناتها البهيجة ، ورفض لأي قيد أو بهرج أو زخرف يفصله عن الاندماج في حفل العالم الكبير .

ويستدعي طاغور في شعره كل مظاهر الطبيعة التي احتفل بها الزاهد الهندي القديم وجعل منها ملاذا في مواجهة نداءات الحياة الفانية ، ولكن استدعاء طاغور لهذه الطبيعة يختلف عن النداء القديم فهو لا يريدها لتحقيق العزلة الفكرية والرياضية والروحية ولكن لدلائل الإعجاز التي تثيرها ، وعبادة الله الذي تتجلى قدرته وعظمته في روعة مظاهرها ، وفي كل ناموس من النواميس التي تحكمها وتنظم سيرها . وما من شاعر ساق الطبيعة في مهرجان كبير ليجعل منها خلفية دائمة للوحته الشعرية كما فعل طاغور في شعره . فقد كانت الطبيعة المصدر الأول لإلهامه . وكان مدركا كل الإدراك لدورها في صياغة الوجدان الهندي ، وحين التفت إلى القديم لدراسة الخصائص الروحية الهندية عزا نزعة الزهد والتصوّف والتقشّف لدى الهندي إلى ما وفّرته الطبيعة القديمة من ثروات أغنته عن الكد والعمل وعمقت فيه رغبة الائتلاف معها والركون إلى أحضانها والذهول أمام مشاهدها الرائعة الخلابة .

وقد وعى طاغور هذه الحقيقة فتشرب هو الأخر حب الطبيعة وفتن بروعتها واتخذ منها إطارا لشعره الجميل الذي تتحرك فيه الطبيعة في مواكب أخاذة بسهولها وجبالها وغاباتها وانهارها وأمطارها وطيورها ونباتاتها

وحيواناتها . ويتصدر الإنسان هذه المشاهد الجميلة التي توحي إليه بالحقيقة الأولى التي أجهد نفسه في البحث عنها . فالطبيعة هنا مدرسة للخير ، ومدرسة للعطاء ، ومدرسة للرحابة والانطلاق والانشراح ومعجزة دالة بقوانينها على العظمة الإلهية ، فيها تصفو النفوس ، وتغتسل الأرواح ، وتتطهر من درن الحياة الزائفة ، وفي أحضانها يعثر الإنسان على حقيقة وجوده .

وفي نفس طاغور شفافية نادرة في استقبال المعاني التي تعبر عنها مظاهر الطبيعة وله عين نافذة تكتشف أبسط المظاهر فيها لتستخرج منها المعاني الكبيرة التي يصورها أحيانا في إسهاب وإفاضة وأحيانا في تركيز وتكثيف ، فانظر إليه كيف يكشف موقفا من المواقف التي تحكمها المفاجأة الشعرية حين تواجه المذهل والعجيب والمثير في الدقائق البسيطة . فقد خرج ذات صباح من بيته ، وأبصر قطرات ندى تتألق فوق الأوراق النضيرة ، فاندمجت نفسه مع المشهد البسيط الرائع فقال :

طوال أعوام عديدة
وبثمن باهظ
جبت مختلف البلدان
ورحلت لمشاهدة المحيطات
ولكني لم أفطن
إلى قطرة الندى المتألقة
فوق سنبلة القمح
أمام عتبة بابي

شاعر يتعامل مع الطبيعة برقة وحنان، ويخاطبه منها كل مظهر جمالي ، ويستقي العبرة من سننها والقوانين التي تحكمها ، ولا يقف منها موقف المصارع

لها العامل على إخضاعها لإرادته ، ولكنه يقف منها موقف المندمج فيها ، المتلاشي في كمالها والساعي إلى إذابة فرديته في صيغتها الشاملة .

وما أكثر ما يوفره شعر طاغور من شواهد على هذه المعاني التي أشرنا إليها ، وفي وسعنا أن نقدم الكثير منها ، ولكننا نؤثر أن يكتشف القارىء بنفسه هذه المعاني بعد أن وضعنا قدمه على الطريق القاصد .

أليس في وسعك
أن تكون سعيدا
بسعادة هذا الإيقاع
بأن تقذف نفسك
وتضيع وتتشتت
في لجة هذه البهجة الرهيبة
كل الأشياء تتقدم في اندفاع هادر
لا تتوقف
لا تلتفت إلى الوراء
ولا قوة تستطيع أن تمسك بها
إنّها تجرى إلى الأمام في اندفاع هادر
متبعة
هذا الإيقاع السريع
لهذه الموسيقي
التي لا تعرف التوقف
الفصول تقبل راقصة
ثم تذهب
والألوان والأنغام والأريج

تتدفق كلها في شلالات لا حد لها
لتصب في مصب الفرحة الطافحة
التي تنتشر وتنقطع وتموت كل لحظة .

التصوف ليس ابتعادا عن الناس والحياة الإجتماعية ، ولكنه اندماج في مشاغلها وهمومها ، ونهوض بأعباء المسئوليات تجاه البشر ، ورفض للتعلل بالانعتاق من الروابط المادية واليومية ودعوة إلى الاقتداء بالخالق الذي أخذ على نفسه الارتباط بمخلوقاته وفي هذا المعنى يقدم طاغور هذه القصيدة الجميلة الدالة على اتجاهه الصوفي .

لتكف عن إنشاد أناشيدك
وتلاوة تراتيلك
من الذي تعبده في هذه الزاوية المظلمة
المنفردة؟
في معبد أبوابه كلّها مغلقة
لتفتح عينيك
ولتنظر
إن الهك ليس هنا
إنه هناك
حيث الحراث يحرث الأرض الصلدة
ويحث يجهد عامل الطريق ، في كسر الحجارة
إنه معهم
في الشمس الساطعة وفي الأمطار الهاطلة
ثيابه معفرة بالغبار
فلتنزع معطفك القدسي

ولتنزل معه إلى الغبار
الانعتاق؟
أين تظن وجود هذا الانعتاق ؟
إن ربك نفسه
قد أخذ على نفسه في غبطة
روابط الخلق ؟
إنه مرتبط بنا جميعا رباطا أبديا
فلتترك تأملاتك
ولتتخل عن البخور والزهور
أي سوء سيصيبك إذا بادت
ثيابك أو تلطخت
لتذهب نحوه
ولتقف قريبا منه
حيث العمل وعرق الجبين

التصوف عند طاغور ليس عزلة أو نسكا ، او زهدا وانصرافا عن الحياة العملية ولكنه اندماج فيها ، وانصهار بنيرانها واكتواء بحرقتها ،ومعاناة عميقة لتجاربها وقبول بالامتحانات الربانية ، وشعره كله معرض حافل بهذه المعاني التي تصدر عنه في دفء وحميمية ، نفتقدها لدى كبار المتصوفة الذي لا يتوفرون عادة على قدرته التعبيرية ولا على شاعريته الفياضة ، مما قعد بهم عن التأثير الواسع في نفوس الناس .

لا أيها الأصدقاء، لن أكون ناسكا أبدا
مهما قلتم
فلن أكون ناسكا
إذا هي لم تنذر نفسها للنسك معي
إنه من عزمي الثابت
أن لا أكون ناسكا
إذا لم أجد مأوى ظليلا
ورفيقة لتوبتي
لا أيها الأصدقاء
لن أترك أبدا
دفء الحياة العائلية
وبيتي
ولن أنسحب إلى وحدة الغاب
إذا لم ترن ضحكات بهيجة
في ظلاله المرددة للصدى
وإذا لم ترفرف للريح
حافة لحاف زعفراني اللون
إذا لم تجعل همسات ناعمة
صمت الغاب أكثر عمقا
فلن أكون أبدا ناسكا

هذا شعر عميق يفيض بالنضارة والاشراق ، وينشر السرور في النفس ، وتشعر لقراءاته ما تشعره لنافورة فوارة متدفقة توزع الطراوة وتنشر الراحة النفسية فيما حولها .

قد تلتقي في شعر طاغور باللوعة ، وتلتقي بالحزن ، وتلتقي بالفاجعة ولكنك لن تلتقي بالتشاؤم والنظرة السوداء . وهناك تقبل صوفي لكل ما تقضي به النواميس الإلهية ، وعدم تمرد على إرادتها ، وشعور بأنها تخفي في خيرها وشرها أهدافا لا يبلغها فهمنا المأخوذ بالعابر والسطحي والزائل والفاني .

طاغور يبشر بالمحبة والسرور . وفكرة السرور لديه لا تتحقق من إشباع الرغبات والشهوات وإنّما تقوم أصلا على الخروج من حصون الفردية وقلاع الأنانية إلى رحابة الإيثار وخدمة الغير . فالانفتاح على الآخر وخدمته ومساعدته هي الشروط الأساسية لتحقيق السرور . وخدمة الغير لا تنحصر في مساعدته على حاجاته المادية ، ولكن في مساعدته أيضا على اكتشاف أعماقه الروحية ، وما يكمن في نفسه من نوازع الخير ، وما يمكن أن يقدمه هو الاخر من مؤازرة تساعد الإنسان على كسر أطواق الفردية البغيضة ، وبعث الشعور في نفسه ، بأنه نغمة من نغمات اللحن العظيم ، وموجة من موجات الخضم الكبير .

والهدف الأخلاقي في عمل طاغور لا ينفصل عن العمل الفني الابداعي ورسالته الأخلاقية بادية في شعره . ولا يحتاج طاغور إلى أحد يذكره بها وإن رأي البعض في هذه الرسالة مثالية منعزلة عن الواقع ، فاتهم بالانعزال عن الحياة . وأقل ما يمكن أن يقال في هذا الاتهام إنه كلام فارغ ، وضرب من ضروب التنغيص على العمالقة الذين يعطون ولا يأخذون ويبذلون ولايدخرون.

شعره يدعو إلى كمال الإنسان،وعنده أن الشر لا يصدر إلا عن النقص ومتي توخى الإنسان كماله ، وسعي إليه اندمج في موكب الكمال الروحي الذي يعم البشر جميعا . ومع هذا الإعلاء من شأن الحياة الروحية لا يلغي دعوة الحياة وبهجتها ولا يعطل الاستمتاع الحي بها . فإذا قرأت بعض قصائده في المرأة أدركت أن هذه الروحية العميقة التي تميز بها ، لم تعطل في نفسه نوازع الطبيعة وشهوات الجسد . وله في الحب والغزل قصائد هي من كنوز الشعر

الإنساني الرفيع يجد القارىء الكثير منها في هذه المجاميع الثلاث ونشير بصفة خاصة إلى رائعته الفريدة (اورباشي) التي يعتبرها بعض النقاد الغربيين من عيون الشعر العالمي وقد حاولوا أن يصلوها بقصيدة الشاعر الإنجليزي المعروفة باسم (الجمال الذهني) . فاستمع إلى هذا الغزل الناعم وتذكر وأنت تقرؤه أنك في حضرة شاعر متصوف لتدرك فعلا مانعنيه من إقبال هذا الشاعر على الحياة بكل حواسه .

أيتها المرأة
لست من خلق الله وحده
ولكنك أيضا من خلق الرجال
الذين يجعلونك بقلوبهم
جميلة
فالشعراء نسجوا لك شبكة
من خيوط الأخيلة الذهبية
والرسامون أعطوا دوما
لهيئتك خلودا جديدا
والبحر يقدم إليك لؤلؤه
والمناجم ذهبها
وبساتين الصيف تمنحك زهورها
لكي توشيك وتكسوك
وتجعلك على الدوام
ثمينة غالية
وشوق قلوب الرجال
بسط مجده

على شبابك
فصرت نصف امرأة
ونصف حلم

أو هذه الغزلية الناعمة الرقيقة :

ابتسامة مرتابة ترفرف فوق عينيك
كلما جئت لتوديعك
لقد ودعتك عدّة مرات
حتّى صرت تفكرين في أنني سأعود إليك
في أقرب وقت
وإذا أردت الحق
فإني أنا أيضا أرتاب في هذا التوديع
ذلك لأن أيام الربيع
تعود كل عام
والبدر يودعنا ثم يعود لزيارتنا من جديد
والزهور تعود كل عام
لتتضرج فوق الغصون
وربما كنت أنا الآخر
ابتعد عنك ، من أجل العودة إليك
إن الوهم يفيدني قليلا
فلا تتعجلي بطرده
فإذا جئتك أقول
إني أودعك إلى الأبد

فاقبلي ذلك كما لو كان حقيقة
ودعي حجابا من الدمع
يعتّم ، ولو لحظة بسيطة ، تلك الدائرة
الظليلة التي تحيط بعينيك
ثم أضحكي ضحكة ماكرة
حين أعود إليك .

هذا شعر يذهل صاحبه من بساطة الأشياء التي تحيط به ، وتقع عليها عينه ، وهو يملك القدرة على رسمها بالكلمات التي تطابقها بساطة ورقة وعذوبة . وهذه الأشياء العادية المأنوسة المألوفة المحببة تملأ قلبه بالشعر . وهو يحاول أن يعود بالأشياء إلى أصولها البسيطة ، فهذه رسالة السماء التي عقدها المحترفون للمتاجرة بها وتحقيق الوصاية على النفوس البشرية يجدها هو بسيطة في جوهرها بساطة لا يتوفر عليها أولئك الذين نصبوا أنفسهم أوصياء عليها .

كلماتك بسيطة
أيها المعلم
بساطة لا يملكها
أولئك الذين يتحدثون عنك
إني أفهم صوت نجومك
وصمت أشجارك
وأعرف أن قلبي
سينفتح لك كالزهرة
وأن حياتي سيفعمها نبع خفي
وأغنياتك
مثل طيور قرية الثلج

تطير لتبني عشها في قلبي
ضد فتور شهر نيسان
وإني لسعيد
بانتظار الموسم الجميل .

فالظاهرة الكبرى في شعر طاغور هي البساطة . والدرس العظيم الذي يقدمة طاغور إلى الشعراء هو هذا النهج الذي سلكه في التعبير النقي الشفاف . وأدبه صورة صادقة لنفسه الواضحة البسيطة . ولكن شعره على وضوحه وقربه من الفهم ، ونفاذه إلى الوجدان . بسهولة ويسر ودون إستئذان ، وهو شعر عميق الغور لا تنفذ إلى أعماقه ومعانيه إلّا إذا توفرت على شفافية ترقى إلى شفافية الشاعر وإلى صفاء مثل صفائه الروحي فهذه اللغة الغنائية السهلة الرقراقة . وهذه الصورة المشرقة ، الفياضة بالبهجة والطلاقة والمتجاوبة مع مظاهر الطبيعة في مختلف أحوالها . وهذه الطمأنينة الروحية التي تشيع في أوصالها وألفاظها ، وهذه الغنائية العالية التي تنشر الغبطة فيها ، هي ليست مظاهر لنفس عادية في بساطتها . ولكنها كالقاع الهادىء الذي يكشفه لك سطح البحر في يوم رائق مشرق ، وتأخذه العين فتظنه قريبا حتّى إذا غاص فيه السباح الماهر ، أدرك أن وراء هذا القاع قيعانا أخرى لا تبلغها أنفاس الغواص الخبير .

وإذا كان الملك ميداس ، فيما ترويه الأساطير ، يتوفر على قدرة خارقة في تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب . فإن طاغور يتوفر على قدرة عجيبة نادرة في تحويل كل شيء إلى شعر . فإذا قرأت شعره هذا كله ، فستكتشف بسهولة معنى هذه القدرة التي تخلص إلى الجوهر الشعري في أعظم الأشياء ، وأبسط الأشياء وراعتك هذه القدرة على التعبير عن هذه الأشياء في مستوياتها المختلفة ببساطة بالغة النفاذ إلى القلب .

إنه شاعر عظيم ، اكتشف عظمته في البساطة ، فلم يغلفها بالرموز الغامضة ولم يحطها بالطلاسم والألغاز . الشعر سجية ، الشعر بساطة ، الشعر غناء . ذلك هو الدرس الذي حمله ، وما يزال يحمله شعر طاغور إلى العالم وإلى الشعراء . فليس هنا غموض ولا إبهام ، وليس هنا تلاعب باللغة وعبث بالصور ولكن شفافية رهيفة تصدر عن نفس صافية وروح قوية لا تتزين بالحلى والزخارف وإنما تمضي إلى القلب بلطف أخاذ ووداعة أنيسة في غير ما تكلف ولا إعنات . وكان يعجب لاولئك الشعراء الذين يعنتون قرائحهم فيتعثر الشعر على شفاههم . وهو في نظره أبسط من أن يسلك إليه هذا المسلك الوعر .

وكما نجح طاغور في التوفيق بين مختلف الاتجاهات باكتشاف جوهرها الشمولي الموحد ، نجح أيضا في أن يجعل شعره مجتذبا للقارىء العادي كما هو مجتذب للفئات الراقية المتذوقة . وذلك باعتماده البساطة الشفافة الرفيعة الغنائية وقد كان الايصال غاية من غايات أدبه . فلم يحجبه بغموض ، ولم يغطه بأستار ولم يجعل للابهام سبيلا إلى هذا الشعر الذي يتعامل مع أعصى القضايا بعفوية نادرة ، وبساطة تملك القلب والعقل .

فانظر إليه كيف يلتقط العادي والمألوف ليرفعه إلى مراتب شعرية سامية يمتزج فيها اللطف الشاعري بالدعابة الراقية .

كان ذلك في شهر مايو
والظهيرة الخانقة تبدو طويلة
لا نهاية لها
والأرض القاحلة
ظامئة تتشقق في الحر الشديد
ومن ضفة النهر

سمعت صوتا يدعوني
(تعال يا كنزي)
فطويت كتابي
وفتحت النافذة كي أرى
فرأيت جاموسا ضخما ، مغطى بالوحل
يقف قرب النهر
بعينين هادئتين مستسلمتين
وطفلا غاطسا في الماء حتّى ركبتيه
يدعو الجاموس للاستحمام
فابتسمت طربا
وشعرت بمعنى من العذوبة
داخل قلبي

هذه موهبة تملك القدرة على اكتشاف الشعر في كل شيء ، وتحويل كل شيء إلى شعر . عين بصيرة واعية ذات نظرة شمولية واسعة رحيبة وفطنة نفاذة إلى جوهر الأشياء الكامنة خلف المشاهد والأحداث العادية ، وقلب يعانق الإنسانية في أفراحها وأتراحها . هذا هو طاغور. نموذج للبساطة التعبيرية التي لا تخل بالشعر. ولاتنزل به إلى المباشرة بل تفتح له سبيلا نافذا إلى القلوب، يصح أن يقتدي به كثير من الشعراء الذين أحاطوا أنفسهم بأسوار الغموض وجعلوا من شعرهم معضلة يختلف الناس في تأويلها وتفسيرها فأغناهم التأويل والتفسير بما يجاوز قدرات النص . ومع ذلك ظلوا سجناء لهذا الإكليروس الشارح المفسر ، ولم يجدوا سبيلهم إلى القلوب شأن شعر طاغور العظيم ..

ولكن خلف هذه البساطة أستاذية متمرسة بأساليب الفن ، ممتلئة بأجمل ألوان التعبير الفني في أدابه القومية والإنسانية .. ومع ذلك لم يعدم شعر طاغور من تسجيل المآخذ فقد أخذت عليه الرتابة كما أخذ عليه التكرار ، وهو شأن المكثرين الذين لا يقفون عند حد ، ويطول بهم العمر فلا يخرجون عن الدائرة التي تحققت لفورة ابداعهم في مرحلة واحدة من تاريخه الشامل .

وما من شك في أن القاعدة الأولى التي قام عليها تكوينه الأدبي والفني هي الآداب البنغالية . ثم الآداب الأوربية والانجليزية خاصة . فقد قرأ طاغور بعض أعلام الشعر الإنجليزي ، وأحسن قراءاتهم والإفادة منهم في تطوير أساليبه والبروز كشاعر مجدد في الأدب البنغالي . كما زوده الاطلاع على هذه الآداب بقدرة على معرفة طريقة مخاطبة الغرب والتأثير فيه ، والتحدث إليه بالصيغ التي يحسن فهمها . فكان له ذلك القبول الذي صادفه في الوجدان الغربي الحديث : كان تأثيره ضخما على الحياة الأدبية في بلاده . كما كان تأثيره قويا على الآداب العالمية ، والشعراء والأدباء الذين قرأوه من الغربيين . وكثيرا ما نكتشف خيوط هذا التأثير لدى شعراء كبار ، ونحس بنفس طاغور تسرى في أعمالهم الشعرية .

لقد كان شعره فتنة النصف الأول من القرن العشرين ، ثم خبا صيته نوعا ما إلا لدى الخاصة ممن يعنون بحركة الشعر العالمي . وذلك قدر يلازم عادة أولئك الأعلام الذين يظفرون في حياتهم بحظ واسع من الشهرة والانتشار ثم ينساهم الناس ليعودوا إليهم ، بعد حين بنظرة موضوعية خالية من الانبهار تكتشف الأصيل والسليم والباقي من أعمالهم والخالد منها على مر الأيام .

وجمع طاغور إلى قدرته الشعرية ، قدرة على الابداع النثري ، فكان صاحب رئاستين كما نقول في تعابيرنا العربية القديمة للدلالة على هذه القدرة التي تجمع ملكة الشعر والنثر في آن واحد . وقد ألف الروايات وكتب القصص

القصيرة.ويحدث في حالة الكبار من أمثال طاغور أن لا يستوعب الشكل الأدبي الواحد طاقاتهم الابداعية فيتجهون إلى تسريبها في جداول متعددة وأشكال مختلفة . فيؤدي بهم ذلك إلى تحطيم نظرية الفصل بين الأنواع الإبداعية ، فتتداخل أعمالهم النثرية مع الأعمال الشعرية لتكون كونا شاملا لرؤية الشاعر ورؤياه . وكل هذه الأعمال على تنوعها ، وتعددها ، تفسره وتنم على قدرة إبداعية خارقة متجاوزة لحدود المألوف .

أحدث اللقاء بالحضارة الغربية في الهند ما أحدثه في كثير من البلدان الأخرى التي توفرت على تاريخ حضاري مجيد تليد .

فالهجمة الإستعمارية شكلت صدمة فكرية ووجدانية . وقسمت البيئة الفكرية فيها إلى تيارين واضحين متباينين : تيار الانسياق وراء الحضارة الوافدة ، والانبهار بقيمها والتخلي عن روابط القديم ورواسبه . وتيار المحافظة والعودة إلى الأصالة والخصائص القومية العريقة .

واختار طاغور لنفسه ، ما يلائم تركيبه النفسي والفكري فوقف بين التيارين موقف التوفيق ، فقد كانت الحضارة الهندية عزيزة عليه لأنها شخصيته المتميزة التي يتباهى بها ، ويرجع إليها ، ولم يشأ أن يفرط في الحضارة الغربية لأنها مكتسب إنساني عظيم أسهمت في إقامة صرحه جميع الحضارات السابقة . لم يفرط طاغور في قديمه ، ولكنه أيضا لم يتخل عن عصره . وفي هذا التوفيق العسير تبرز ملامح شخصية طاغور وتتحدد وتلتقي مع كثير من الشخصيات العظيمة التي أبرزها العالم الثالث في العصر الحديث .

ومع كل هذه الثقافات الوافدة ، فإن الهند لم تنس تراثها القديم ولم تتنكر له . بل إن هذا الانفتاح على أوربا قد زاد من تعميق شعور الأصالة لدى مثقفيها . وتقدم رموز الهند الحديثة من طاغور إلى غاندي إلى نهرو ، أمثلة

بارزة على هذه القدرة التوفيقية بين الانفتاح على الثقافة الغربية والاعتزاز بالشخصية الهندية بما أعطى لبلدان العالم درسا كانت تفتقر إليه .

والمسلك التوفيقي الذي تبناه طاغور يرتبط باختيارات متوارثة عن والده الذي انتقلت إليه زعامة الجماعة الروحية التي أسسها (رام موهان روى) والتي كانت تهدف إلى مثل هذا التوفيق بين موروث الهند ، ومتطلبات الحياة الحديثة .

وكاد طاغور ، في مطالع حياته أن يحيد عن التراث الهندي ، ويكسر الطوق كسرا كاملا ، وينفلت منه انفلات غيره من المنبهرين بالثقافات الوافدة ، ولكنه سرعان ما أدرك أن سمة الهند الأولى التي دخلت بها الحضارات الإنسانية هي السمة الروحية ، وأن التخلي التام عن هذه الخصيصة هو تخل عن الشخصية الحضارية الهندية .

كان يعظم فلسفة الهند في الخارج ويتباهى بها ، ويحاضر عنها ، ويؤلف عنها الكتب التي تنقب عن أصولها وجذورها ، ويفسرها بظروفها وواقعها وكان يهاجم سلبيات هذه الفلسفة في الداخل ويدعو إلى التخلص منها ويدعو قومه بحرارة واخلاص الانفتاح على العالم داعيا إياهم إلى عدم الخوف من الأمواج ، ولكن من الخروق في سفينتهم .

هو نمط فريد من هذه الإنسانية المتعالية على المذهبيات والطائفيات والإتجاهات الضيقة ، وهي تلتقي في تعاليها على الأطر المحدودة مع كل الاتجاهات الإنسانية الهادفة إلى خير الإنسان ورقيه وسعادته ، فإذا أردت أن تنسبه إلى الاشتراكية وجدت في شعره ما يسند هذه النسبة . وإذا أردت نسبته إلى الديمقراطية وجدت في شعره ما يؤكد كل المعاني التي تنكر الطغيان ، وإذا أردت نسبته إلى الشرق وجدت في شعره ما يمكن تصنيفه لدى الغربيين بالتعصب ، وإذا نسبته إلى الغرب وجدت لديه من المصالحة

والمهادنة والتفهم والإعجاب ما يسلكه ضمن المنحازين إلى الغرب . وهو في كل ذلك لا يصدر إلا عن اتجاهه الإنساني ويصدع عن مكونات شخصيته العملاقة وروحيته المتجاوزة للحدود الضيقة فهو إنساني بالمعنى الذي يطلق في الغرب على الأديب المشتغل بالعلوم الإنسانية والمنغمس فيها (أو مانست) . وكثيرا ما يتعمق هذا المعنى لدى الكبار ممن اتسم عقلهم بالشمول ، وقلبهم بالرحابة فيعلوا بهم على جميع المذاهب ويلتقي بهم مع جميع المذاهب في غاياتها الإنسانية العليا . هذا شأن أبناء الكلمة التي ارتقت بهم هذه المراقي العالية ، وهو شأن الذين يستقون من إنسانيتهم التي اشتركت في صياغتها حضارات الأمم وثقافاتها .

وبهذا التمثل الواسع الرحب لمختلف الاتجاهات والثقافات كان طاغور من بناة النهضة الهندية الحديثة ، ومن مؤسسي الوجدان الإنساني المعاصر المتعالي على الحدود والحواجز الجغرافية والفكرية والدينية والثقافية .

إنه من الشخصيات العظيمة التي تخلقها الأحقاب من حين إلى آخر ، لتبشر برسالة سامية أو تذكربها ، وتأتي في أوان الحاجة إليها . وقد كانت الهند وكان العالم في حاجة إلى هذا الصوت الرائع الهادىء العميق .

حين ولد طاغور كانت الهند ترزح تحت وطأة الاستعمار . ومات الشاعر طاغور قبل استقلال الهند بسنوات قليلة ، وهو في الثمانين من عمره ، فلم يتح له أن ينعم بحصيلة الجهود التي أسهم فيها بنصيب كبير . وكان طاغور أحد رموز الهند الحديثة ويرى بعض الباحثين أنه قد مثل عمق الهند الروحي بأكثر مما مثله معاصره العظيم غاندي . وعلى كل حال فقد كان الرجلان من أعظم ما أنجبت الهند من رجال في تاريخها الحضاري .

وقد أتيح لهما من التأثير في عصرهما بمعناه الإنساني الواسع ما لم يتح لغيرهما من كبار رجالات العصر .

لقد أعاد طاغور إلى الهند قدرتها على الخلق والإبداع ، بعد أن خمدت لديها هذه القدرة سنوات طويلة.

ناضل من أجل الإنسان في بلاده .

وناضل من أجل الإنسان في كل مكان .

وتحقيق كرامة الإنسان مبدأ أساسي بارز في رسالته الأدبية . فكان يندد بالطائفية ويستنكر الظلم الإجتماعي ، ويدعو إلى شيوع التعليم ، ويناصر حقوق المرأة . ويحرص على التخلص من الطغيان في أي صورة تجلى . سواء في طغيان الشهوات أو طغيان الحكام وهو يشدد على التخلص من طغيان الشهوات التي تعمي الإنسان وتقصيه عن انسانيته .

كما ندد طاغور بالاستعمار وأنكر عليه طغيانه واستعباده للشعوب واستغلاله لثرواتهم واستهانته بحقوقهم . ولكنه لم يكن يميل إلى العنف في مقاومة هذا الاستعمار بل لعله رأى في بعض الحالات أن صداقة الهند للإنجليز مفيدة لها في تحقيق النهضة والتقدم . وكان يضيق بعض الضيق بأساليب المقاومة بما في ذلك الأسلوب الذي تبناه غاندي في اللاعنف والعصيان المدني . ولم يكن ذلك عن مهادنة للاستعمار بل عن خوف من التعصب وعزوف عن تلك الصيغة التي تميل إلى تأليه الوطن تأليها يعزله عن تيار الحياة العالمية . وكان يرى أن الشرق في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب ، كما أن الغرب في حاجة إلى أن يتعلم الكثير من الشرق . وقد كانت هذه الفكرة محور رسالته الفكرية والشعرية إلى العالم . فهذه الروحية الشرقية ، بما يصاحبها من عمق وسلام في النفس ، واطمئنان ورضى وخضوع ومعانقة لكل ما هو روحي شفاف يمكن أن تشكل عزاء للغرب المسلوب بحضارة الاستهلاك والعدو السريع في سبيل تأكيد الوجود المادي .

وعلى كل حال ، فإن أفكار طاغور السياسية ، وموقفه من الأنظمة العالمية تتسم كلّها بكثير من البراءة الشعرية والسذاجة السياسية . فقد أثنى على النظام السياسي القائم في إيطاليا ، حين زارها إبان العهد الفاشي في سنتي 1925 ـ 1926 وأطلق بعض التصريحات التي تحمل إعجابه بما تحقق فيها في ذلك العهد. وإنما وقع في مثل هذه العثرات بسبب التكريم التوظيفي الذي خص به فضلا عن أنه لم يكن شاعر أيدلوجية سياسية .

وثورية طاغور الحقيقية لا تظهر في المواقف الصارخة ، ولكن في مواجهة الهيمنة الثقافية الغربية . فهو في هذا الباب مناضل كبير وكثيرا ما ننسى ونحن نعدد المواقف هذا الضرب من النضال الثقافي الذي لا يظهر في زحمة التصنيف السياسي الصارخ ، ولا نتعرف على أهميته وأثره إلا بعد أن تخفت الأصوات العالية ، وحينئذ نفهم أن ما أداه بعض القوم بنضالهم الثقافي والفكري لا يقل تضحية وروعة عن أي صور النضال ، وفي هذا المجال تبدو ثورية طاغور أقوى وأبقى وأخلد من ثورية العناصر التي أخذت عليه عدم الانغماس في نشاطها الحزبي.وفي دوره الذي قام به في إحياء التراث الهندي ما يؤكد أنه أحسن اختيار ميدان عمله النضالي بما يؤكد أن الطريق السليم لديه في مواجهة الغزو الاستعماري هو التشبث بالأصالة والخصائص التي تميز الحضارة الهندية التي تمثلها وتشربها ، وتجول بين مختلف بلدان العالم معتزا بها متمسكا بقيافة الزاهد الهندي . والعابد الهندي البسيط . وكان بذلك يمثل مواجهتين ! واحدة ضد الإستعمار وأخرى ضد الفئات التي انبهرت بأنظمته ومستورداته المادية والفكرية .

ولا يعني هذا أن طاغور كان محجوبا عن الثقافات الغربية ، فقد كان شديد الصلة بها ، عميق الإتصال بإبداعاتها الفكرية والفنية ، فوي التمثل لعناصرها المحركة لها ، ولكنه كان يكره لنفسه ولقومه الذوبان والتفسخ

والانسلاخ . إنه نموذج رفيع لما يكون عليه الاعتزاز بالخصائص القومية والرفض لما سميناه في أيامنا هذه بالغزو الثقافي ولكن في غير تعصب ولا انغلاق ولا سد للأبواب والنوافذ .

لم يخض طاغور المناقشات الاستفزازية الحادة ، ولم يفاضل بين الحضارات ولم يعاد الثقافات لمجرد التعصب القومي ولكنه قدم النموذج العملي بإبداعه وأعماله وأفاد من الحضارة الوافدة مازاده أصالة وتشبثا بخصائصه الحية . وحين قدم نفسه إلى العالم ، قدمها من خلال وجه هندي متميز بملامحه وقسماته الأمامية والجانبية . وجه متميز لا يمكن أن يذوب أو يتلاشى . وجه تقع عليه العين مرّة واحدة فلا تنساه وتسمعه الأذن مرة واحدة فلا تخطئه بل لعلها تفطن في أصوات الأخرين إلى الروافد والجداول التي تسربت إليها من هذا النهر الهادىء في سطحه ، الهادر في أعماقه . وجه طاغور لا ينسى لما فيه من إشراقة روحية ، ووهج شخصي ، وتألق ذاتي وملامح متميزة . وهكذا كان شعره .

وقد تأثر طاغور بالأداب الغربية ، ويحاول الغربيون أن يلتمسوا المشابه بين بعض أعماله وأعمال مبدعيهم ، ولكنك حين تتعمق هذه المقارنات تجد أنها تحاول أن تمسك بأوهى الخيوط لتصنع منها حبالا وأسـلاكا قوية في الوقت الذي لا يسعف النص بذلك . ولكن من المحقق أن أثر طاغور في الأداب العالمية الحديثة كان أقوى من تأثره بها . وينهض على ذلك أكثر من دليل ، وتلمع أكثر من إشارة ولو كان المجال متسعا للمقارنة لقدمنا الأمثلة والشواهد العديدة .

طاغور أعاد اكتشاف الهند في نفسه وساعد الهنود على إعادة اكتشافهم لأنفسهم بل ربما أمكن القول أنه ساعد الشرقيين جملة على اكتشاف أنفسهم . وإعادة الاكتشاف هذه هي البداية لكل نهضة وطنية تلتمس

الطريق بخطوات واثقة . ولا نحسن فهم طاغور حق الفهم ما لم نكتشف. الثورية فيما لم يعلنه كثورية كانت تعتمد الأصيل والباقي والخالد والمتألق والزاهي والمتوهج والدافيء في حضارة ، ظن البعض أنه قد غطى عليها غبار السنين .

كثيرة هي المبادىء التي عانقها طاغور وأعلى من شأنها في شعره ، وكثيرة أيضا المعاني والمواقف التي يمكن أن نخرج بها من شعره . وهي تتمحور كلها حول سعيه الدائب لتحقيق التناغم والانسجام بين الانسان والكون المحيط به ، وإذابة الفردي في الكلي ، والاحترام العميق للأديان الكبرى والحضارات الإنسانية ، والإيمان بالمبادى الديمقراطية ، والعمل المتواصل من تحقيق الحرية والنهضة الوطنية ، والإيمان بالوحدة الإنسانية والالتزام بقضايا الإنسان ورفض كل أشكال التمييز العنصري والديني والمذهبي والطائفي .

وقد أسس جامعته على أساس من هذا الفهم الذي صاغ به شخصيته الخاصة فكأنما أراد أن يبصر الكون بالطريقة المثلى في تكوين الإنسان وطرح الأساليب التقليدية العتيقة التي لا تعتمد حرية التربية . لم يكتب طاغور كتاب (إميل) كما فعل جان جاك روسو ، ولكنه أقام نموذجا على أرض الواقع لأسلوب في التربية والتعليم والتكوين الإنساني الحر الذي لا يقيم اعتبارا للتمييز العنصري أو الطبقي أو الجنسي أو الديني . ومن طرائف ما يذكر عن جامعته أنه أقام بها معبدا يؤدي فيه جميع أتباع الديانات عباداتهم وطقوسهم الدينية . ولا فرق بين أحد مادامت الغاية هي عبادة الله واستلهام مبادىء الحب والعدالة والمساواة .

وقد كان له من ظروفه الإجتماعية والسياسية ما ساعده على تحقيق هذا المشروع الشخصي . ولم تحط أهدافه بالشكوك والريب ، ولم يحاصر مثل هذا العمل الفردي بالتأويلات . إنها بيئات توفر للعظيم أن يمارس عظمته ويطبق

أفكاره وينشرها على الناس دون مخاوف سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفي مثل هذه البيئات أمكن لقامة مثل قامة طاغور أن تكبر وتعظم وتتعملق وأن ترسم النموذج والمثال وتبسط ظلها على الكون كلّه .

لقد حقق في هذه الجامعة مثله التي كان ينادي بها في شعره . فجاءت تطبيقا حيا لكل الأحلام التي تغنى بها في حياته ، وفي طفولته الباكرة التي تميّزت بالتمرد على أساليب الدراسة التقليدية . فالمعروف عن هذا الشاعر أنه لم ينتظم في سلك دراسة نظامية متتابعة متلاحقة تفضي به إلى الدرجات الجامعية .

فهذا الرجل العظيم الذي بلغ أعلى المستويات العلمية والفنية والأدبية وكرمته جامعة أكسفورد بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية في جامعته نفسها ، أي جاءته إلى عقر داره ، لم يكن يحمل درجات علمية عالية ، وإنما اعتمد على جهده الذاتي فجاء صيغة فريدة في تكوينه . وفي هذا التكوين عبر وعظات على ما يمكن أن تفعل العزيمة الثابتة والإرادة القوية في صياغة الفرد .

زاول طاغور الغناء
وقام بالتمثيل
ومارس الرسم .

وعني بتنسيق حديقته بنفسه . واشترك في أداء الكثير من الأغاني ورقصات الفنون الشعبية .

وكان في كل ذلك يحقق امتدادا وعمقا لشخصيته في صميم تراثه القومي وشخصيته القومية التي عاشها تراثا منقولا في الكتب ، ومتواترا على الشفاه ، ومجسدا في الموروث الباقي من أغان ورقصات . إنها عملية انغماس زادت في

توطيد صلته بأعماق الروح القومية وبالتراث القومي الذي لم يعشه متفرجا عليه من الخارج ، ولكنه عاشه مندمجا فيه من الداخل. إنها عملية بحث واكتشاف دائم للعناصر المكونة للذات القومية . وفي خلال هذا الاكتشاف كان طاغور يعثر على نفسه ، ويكتشف كيانة ويقدم للعالم صورة غير مألوفة لديه تميزت بلونها الخاص ، ومذاقها الخاص . فالعالمية تحققت له من خلال الاستغراق في اللون المحلي ، بل المغرق في طابعه المحلى ولو لم ينقل طاغور إلى العالم طابع قومه وألوانهم وملامح أمته ، وجوهر خضارته لما وجد ماوجده من إقبال واحتضان وإعجاب .

وكثيرا ما يقرن طاغور باسم الشاعر الألماني الكبير (جيته) في تعدد المواهب ، وتنوع الإهتمامات والإنشغال بالكشوفات العلمية . فقد ألف طاغور كتابا مبسطا في الفيزياء النووية ، ويذكر أن صديقه العالم السير بوزى الذي كان عضوا في الجمعية الملكية الإنجليزية قال عنه (لقد ضاع فيك عالم كبير) ومع ذلك ، فإن طاغور يتميز على (جيته) بهذه الإنسانية الرحبة والعمق الروحي في العلاقات البشرية ، وهي صفات لم يعرف بها الشاعر الألماني الذي كان محصورا في عالمه الذاتي الخاص فاترا في علاقاته البشرية ، ضعيف الاهتمام بكل ما يصله بالإنسان ، أما طاغور فقد كان صاحب رسالة ، وقد عاش حياته متفتحا على مختلف التجارب والاتجاهات ، ووضعته مكانته الأدبية في موضع القيادة الفكرية الروحية فعني بكل ما يشغل مجتمعه الوطني والإنساني واتسع قلبه للكون فكان صوتا من أعظم أصوات العصر الحديث .

وقد أحسن طاغور إقامة الجسور التي تصله بالعالم ، وتعرف بأدبه ورسالته وكانت له صداقات عالمية وعلاقات ودية مع كبار رجال العصر ساعدت على ذيوع صيته وانتشار شهرته وتأكيد مكانته .

وكان صوته الشعري وحده كافيا لتخليده واستغراق كل طاقاته ، ولكنه أبى إلا أن يكون عنصرا فعالا في المجتمع الإنساني الكبير ، فجمع إلى الشعر والأدب اهتمامات أخرى تصله بالمعرفة والفن والنشاط الإنساني ، كان آخرها الرسم الذي مارسه وهو في الستين من عمره . لقد كان طاغور حقا فنانا في فن الحياة .

في شعر طاغور حب للحياة ، ودعوة حارة للاندماج فيها . وحبه للحياة حدد موقفه من الموت فهو لا يراه شيئا بغيضا كريها ، ولكنه يعتبره (آخر انجازات حياته) وفي قصائده التي يناجي بها الموت ويستعد لاستقباله نغمة فريدة لا نعثر عليها عند غيره من الشعراء .

أيها الموت
يا موتي
آخر انجازات حياتي
تعال ، وتحدث إلي همسا
لقد انتظرتك يوما بعد يوم
وتحملت من أجلك
أفراح الحياة وأتراحها
وجميع ما يكونني
وكل ما أملك
وكل ما أرجو
تدفقت نحوك في سر عميق
نظرة أخيرة من عينيك
ستجعل حياتي كلها لك
لقد ضفرت الزهور

وهيء أكليل العريس
وبعد الزفاف
ستترك العروس بيتها
وتذهب وحدها
لمقابلة سيدها
في وحدة الليل ...

وبعد فما أكثر الوقفات ، وما أكثر الجوانب وما أوفر الشواهد التي يمكن أن تستخلص من حياة ، ومن شعر هذا الشاعر العظيم فمقدمة واحدة لشعر طاغور لا تكفي ، ووقوف عند ناحية معينة من شعره لا تكفي ، ولو طاوع المرء هواه لانتهى به هذا الفصل إلى كتاب يوضح العناصر التي يقوم عليها هذا الكون الرحيب الذي يقدم نفسه بنفسه ويشرع أبوابه دون ستار أو حجاب.

على أن سؤال الخاتمة ، يلاحق هذه المقدمة ... لماذا لم يكن لطاغور أثر قوى فاعل في الشعر العربي الحديث ؟ ولماذا انفتحت الحركة الشعرية على شعراء غربيين أقل منه وزنا وقيمة ؟ أهو الولع بتطعيم شعرهم وسيرتهم بأسماء الشعراء الذين لم يقرأوا لهم سوى نتف متفرقة من إبداعهم ، حتى يرفعوا من قيمتهم باستدعاء هذه الأسماء فيما يسوقون من تحيات شعرية ونداءات وهتافات برعوا في صياغتها للإشعار بالزمالة ووحدة المصير ؟

أم هو الشرق لا ينجذب إلى الشرق ، والمألوف من العادات المتشابهة المتقاربة لا يثير الإهتمام ..

هذا سؤال . نختم به هذه المقدمة وتحية لهذا الشاعر العظيم جزاء ما علمنا من دروس بشعره وفنه وسيرته وإرادته التي لا تعرف اليأس ولا القنوط ..

كنت أظن أن رحلتي
قد أوشكت على الختام
وأن قواي قد بلغت غاية الإنهاك
وأن الطريق أمامي مسدودة
وأن زادي قد انتهى
وأنه ربما حانت ساعة الإنسحاب
إلى الصمت والظلام
ولكنني اكتشفت أن إرادتك لا تعرف نهاية لي
وعندما تموت الكلمات القديمة
تتدفق أنغام جديدة من القلب
وحين تضيع الطرق القديمة
يبدو في الأفق
بلد جديد رائع .

خليفة محمد التليسي



خليفة محمد التلّيسي

جشنجانی

جيتنجالي

1

لقد خَلَقْتَنِي بِـلاَ حَدٍّ
تِلْك هِي إرادَتُكَ.
وهذه الكَأْسُ الرَّهِيفَةُ
كُنْتَ تُفْرِغُها أَبداً
ثُمَّ تُفْعِمُها على الدَّوام
بِحَياةٍ دائمةِ الجِدَّةِ.

وَهَذا النَّاي القَصْبِيُّ الصَّغِيرُ
حَمَلْتَه إلى الهِضَاب والوِدْيَان
وَنَفَحْتَ عَبْرَهُ
أَغانِيَ دَائِمَةَ الجِدَّةِ.

وَحِينَ تَلْمَسُنِي يَدَاكَ الخَالِدَتَان

فَإِنَّ هَذَا القَلْبَ الصَّغِير

يَضِيعُ في فَرْحَةٍ لاَ حَدَّ لَهَا.

وَيُغَنِّي أَغَانِيَ غَامِضَةَ المَعْنَى

وَفَوْقَ هَاتَيْنِ اليَدَيْنِ الصَّغِيرَتَيْنِ

تَهْبِطُ عَطَايَاكَ اللاَّمَحْدُودَةَ.

وَيَمْضِي الفَجْرُ

وَتَتَوالَى الأَيَّامُ

وتَسْتَمِرُّ أَنْتَ فِي سَكْبِ عَطَاياك

وَيَظَلُّ هُنَاكَ دَوْماً

مكَانٌ يَنْتَظِرُ المَزِيدَ مِن الامْتِلاءِ

2

عِنْدَما تَأْمُرُني بِالغِنَاءِ

يَبْدُو قَلْبِي وَكَأَنَّه يَفِيضُ بالفَخْرِ

وأُحَلِّقُ في مُحَيَّاكَ

وَتَغْرَوْرِقُ عَيْنَاي بالدُّمُوعِ

وَكُلُّ مَا فِي حَيَاتِي مِن مَرَارَةٍ قَاسِيَةٍ

وَعَدَمِ انْسِجَامٍ

يَنْصَهِرُ في تَنَاغُمٍ عَذْبٍ لَطِيفٍ

وتَنْشُرُ عِبادَتِي أَجْنِحَتَها

كَطَائِرٍ سَعِيدٍ بِطَيَرانِهِ عَبْرَ البِحَارِ

أَعْرِفُ أَنَّك تَسْتَمْتِعُ بإِنشَادِي

وأنَّه لا يُمكِنُنِي أَن أَتَقَدَّمَ إلى مَحْضَرِكَ

إِلاَّ كَمُنْشِدٍ

وَبِجَنَاحِ أُغْنِيَتي المُنْبَسِط

أَلْمسُ قَدَمَيْكَ اللَّتَيْنِ لَم أُفَكِّرْ

فِي لَمْسِهِمَا أَبَداً

وَفِي نَشْوَتِي بِإِنْشَادِي

أَنْسَى نَفْسِي

وأَسُمِيكَ صَدِيقاً

3

لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ تُغَنِّي يَا إلهي
إِنِّي أُصْغِي إِلَيْكَ دَوْماً فِي صَمْتٍ ذَاهِلٍ
إِن نُورَ مُوسِيقَاك يُضِيءُ الكَوْنَ
وأَنْفَاسَ أَنْغَامِكَ تَجُوبُ السَّمَاوَاتِ
إِنِّي أُصْغِي إِلَيْكَ دَوْماً فِي صَمْتٍ ذَاهِلٍ.
والمَوْجَة المُقَدَّسَةَ لمُوسِيقَاكَ
تَقْتَحِمُ العَوَائِقَ الصَّخْرِيَّةَ
ثُمَ تَهْدُرُ مَاضِيَةً كَاسِحَةً
إن القَلْبَ لَيَتطَلَّعُ إلى التَّوحُّدِ بمُوسِيقَاك
ولَكِن عَبثَاً أَبْحَثُ عَن صَوْتٍ
أرِيدُ أنْ أَتَحَدَّثَ
وَلكِن كَلِمَاتِي لاَ تَنْصَهِرُ في أغْنِيَاتٍ

أَو صَرْخَاتٍ عَاجِزَةٍ
لَقَد أَسرْتَ قَلْبِي
بِشِبَاك مُوسِيقَاكَ غَيْرِ الـمُتَنَاهِية

4

يَا حَيَاةَ حَياتِي
إنِّي لأسْعى عَلَى الدَّوَام
لأنْ أَحْفَظ لِجِسْمِي طَهَارَتَه
لِمَعْرِفَتي بأَنَّ مَلاَطَفَتَكَ الحَيَّةَ
تَلْمَسُ كُلَّ أَعْضَائِي
وَأُحاوِلُ دَوْماً أَنْ أُبْعِدَ كُلَّ زَيْفٍ
عَن أَفكارِي
لِمَعرِفَتي بِأَنَّك الحَقُّ الذي أَوْقَدَ
في عَقْلِي نُوَر التَّفْكِيرِ
وَأَحَاوِلُ دَوْماً أَن أَطْرُدَ كُلَّ شَرٍّ

عنَ قَلْبِي
وأَجْعَلَهُ يَزْدَهِرُ بالحُبِّ
لِمعْرِفَتِي بِأَنَّكَ تُقِيمُ
بِأَعْمَقِ أَغْوَارِ القَلْبِ .
وَأُحاولُ دَوْماً فِي كُلِّ أَعْمَالِي
أَن أَكْتَشِفَكَ
لِمَعْرِفَتِي بِأَن قُوَّتك
هي التي تَمْنَحُنِي القُدْرَةَ على التَّصَرُّفِ

5

لِتَسْمَحْ لِي بالجُلُوسِ إلى جِوَارِكَ
لَحْظَةً قَصِيرةً
إِن الأَعْمَالَ التي تَشْغَلُ بَالِي
يُمْكِنُ إِنهاؤهَا فِيمَا بَعْد .
فَبعيداً عَن رُؤْيَةِ مُحَيَّاكَ

لا أَعَرِفُ هُدْنَةً ولاَ رَاحَةً

ويُصْبِحُ عَمَلِي مَشَقَّةً بِالِغَةً

في بَحْرٍ لا حُدُودَ لَهُ مِن الآلامِ.

لَقَد جَاءَ الصَّيْفُ

إلى نافِذَتي

بِهَمَسَاتِه وتَنَهُّدَاتِهِ

والنَّحْل أَخَذَ يَصْنَعُ أَقْرَاصَهُ

في سَاحَةِ غَابَةِ الزُّهُورِ.

لَقَد حَانَ الوَقْتُ الآنَ

لِكَيْ أَجْلِسَ إِلَيْكَ

وَجْهاً لِوَجْه

هَادِئَيْنِ

وأُغَنِّي نَذْرَ حَيَاتِي لَكَ

في هَذا الهُدوءِ الطَّافح بالسُّكُونِ

6

لِتَقْطُف هَذِهِ الزَّهْرَةَ الصَّغِيرَة

ولِتُمْسِكْ بِهَا

دُون تَبَاطُؤ

إِنِّي أَخْشَى أَن تَذْبُلَ

وَتَسْقُطَ في التُّرابِ

ولا أَدْرِي إِذَا كانَتَ سَتَحْظَى

بِمَكَانٍ في إِكْلِيلِك

ولَكِن لِتُكْرِمْهَا

بِلَمْسَة رَحِيمَةٍ من يَدِكَ

وَلتَقْطُفْهَا

أَخْشَى أَن يَنْتَهِيَ النَّهَارُ

قَبْلَ يَقْظَتِي

وَتَفُوتُ سَاعَةُ العَطَاءِ والهِبَاتِ

رَغْم أن لَوْنَ هَذهِ الزَّهْرَةِ شَاحِبٌ

وَرائِحَتَها ضَعِيفَةٌ واهِنَةٌ

فَلْتَسْتَفِدْ مِنْها

طَالَمَا كَان فِي الوَقْتِ مُتَّسَعٌ

ولتَقْطُفْهَا . .

7

لَقَد تَجَرَّدتْ أُغِنَيتي من كُلِّ تَصَنُّعٍ

فَلاَ تُزْهى بالثِّيَاب الرَّائِعَة

أو الزَّخَـارِفِ الفَاخِرَةِ

فَلَن تُفْلِحَ هذه الحُلِيّ إلا في أَن تُعِيقَ اتَحَادَنا

وتُغَطِي عَلَي هَمَساتِك إِلَيّ

إنَ زَهْوِي كَشَاعِرٍ

يَمُوتُ خَجَلاً عِنْدَ رُؤْيَاك

آه

أيّها الشّاعِرُ الأَعْظَمُ
إنّي أجْلِسُ تَحْتَ قَدَمَيْكَ
وأَجْعَلُ حَيَاتِي كُلَّهَا بَسِيطَةً نَاصِعَةً
مِثْلَ قَصَبَةِ النَّاي
من أَجْلِ أَن تَمْلأَهَا بِمُوسِيقَاكَ

8

إن الطِّفْلَ المُحَلَّى بِأزْيَاءِ الإمَارَةِ
وأَطْواقِ الجَواهِرِ النَّفسِيةِ
يَفْقِدُ لَذَّته في اللَّعِبِ
فأَثْوَابُهُ الأَميريَّة تَعُوقُ خُطَاهُ.
وَخوفاً مِن أَن تَبْلَى أَثْوَابُهُ
ويَعْلُوهُ الغُبَارُ
يَنْتَبِذَ مَكَانًا قَصِيًّا وَيَنْعزِلُ عَن العَالِمِ
ويَخْشَى مُجَرَّد الحَرَكَةِ

أمّاه

مَا نَفْعُ كُلِّ هَذِهِ الأَنَاقَةِ الفَاخِرَةِ

إِذَا كَانَتْ سَتُبْعِدُنَا عَن تَحيَّةِ

غُبَارِ هَذهِ الأَرض

وتَحْرِمُنَا من حَقِّ الانْدِمَاجِ في حَفْلِ العَالَمِ الكَبيرِ

9

أيُّها المَعْتُوهُ الذي يُحاوِلُ أَن يَحْمِلَ نَفْسَه فَوْقَ كَتِفَيْهِ

أيَّها المُتَسَوِّلُ الذي يَقِف على بَابِ

بَيْتِهِ مُسْتَجْدِياً.

لِتَضَعْ أَحْمَالَك فَوْق هَذهِ الأَيْدِي القَادِرَة

عَلَى حَمْلِ كُلِّ شَيء

ولا تَلْتَفِتْ إلى الوَرَاءِ

لِتَنْظُرَ إلى المَاضِي بِأَسَفٍ عَمِيقٍ

إنَّ الرَّغْبَةَ تُطْفِيءُ فَوْراً

لَهِيبَ المِصْبَاحِ
إذا لاَمَسَتْهُ بأَنْفَاسِهَا
إنَّها لَمُدَنَّسَةٌ
فَلاَ تَقْبَل العَطَايَا مِن يَدَيْهَا المُلَوَّثتَيَنِ
واقبَلْ بِمَا يُقَدِّمُهُ إلَيْكَ
الحُبُّ وَحْدَه . . .

10

هَا هُنا المُتَّكأُ الذي تَسْتَرِيحُ عَلَيْه قَدَمَاكَ
حَيْث يَعيشُ
أَشَدُّ النَّاسَ فَقْراً وأَكْثَرُهم وَضَاعَة وَضَيَاعاً
وحين أُحَاوِل أن أَنْحَني لَكَ
فإنَّ احتِرامِي لاَ يَتَأَتَّى لَهُ أَنْ يَبْلُغَ
أَدنى مَا يُمكنهُ حَيْثُ
قَدَمْاكَ تَسْتَرِيحَان بَيْن أَشَدِّ النَّاسِ

وَأكثَرِهِم وَضَاعَةً وضيَاعاً

إن الكِبْرِيَاءَ لا يُمْكِنُ أن تَقْتَرِبَ

حَيْثُ تَسيرُ مُرْتَدِياً ثِيَابَ

أَشَدِّ النَّاسَ فَقْراً وَأَشَدِّهُم وَضَاعَةً وَضيَاعاً

إِن قَلْبِي لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْرِكَ

سَبِيلَه لِكَيْ يَنْزِلَ هُنَاكَ

حَيْثُ تُرَافِقُ أَنْتَ مَن لاَ رِفَاقَ لَهُم

بَيْن أَشَدِّ النّاس فَقْراً وأَكثَرِهم حَقَارةً

وضَياعاً

11

لِتَكُفَّ عَنِ إنشادِ أَنَاشِيدِك

وتِلاَوَة تَرَاتِيلك

مَن الذي تعبدُه في هذه الزَّاوِيةِ المُظْلِمَةِ

المُنْفَرِدَة ؟

فِي مَعْبَدٍ أبوابُه كُلُّها مُغْلَقَةٌ
لِتَفْتَحْ عَيْنَيْكَ
وَلِتَنْظُرْ
إن إلـٰهك لَيْس هُنَا
إنَّهُ هُنَاك
حَيْثُ الحَرَّاثُ يَحْرِثُ الأَرضَ الصَّلْدَةَ
وَحَيثُ يَجْهَدُ عَامِلُ الطَّرِيقِ، في كَسْرِ الحِجَارَةِ
إنَّه مَعَهُم
في الشَّمْس السَّاطِعَة وفي الأَمْطَارِ الهَاطِلة
ثِيَابُهُ مُعَفَّرَةٌ بالغُبَارِ
فَلْتَنْزِع مِعْطَفَك القُدْسِيّ
وَلِتَنْزِل مَعَهُ إلى الغُبَارِ
الانِعتَاقُ؟
أينَ تَظُن وُجُودَ هَذَا الانعِتَاق؟
إن رَبَّكَ نَفْسَه

قد أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ في غِبْطَةٍ

رَوَابَط الخَلْق ِ ؟

إِنَّهُ مُرْتَبِطٌ بِنَا جَمِيعاً رِبَاطاً أَبَدِياً

فَلِتَتْرُكْ تَأَمُّلاَتِكَ

ولتَتَخَلَّ عن البَخُورِ والزُّهُورِ

أيُّ سُوْءٍ سَيُصِيبُك إِذَا بَادَتْ

ثِيَابُكَ أَوَ تَلَطَّخَتْ

لِتَذْهَبْ نَحْوَهُ

وَلِتِقَفْ قَرِيباً مِنْهُ

حَيْثُ العَمَلُ وَعَرقُ الجَبِين ِ

12

سَتَدُومُ رِحْلَتِي كَثِيراً

وإِنَّ الطَّرِيقَ التي أَمَامِي ِ لَطَوِيلَةٌ

لَقَد خَرَجْتُ فَوْقَ عَرَبَتي

عِنْدَ تَبَاشِيرِ الفَجْرِ

وتَابَعْتُ رِحْلَتِي

عَبْرَ صَحَارَى العَالَمِ

وَتَرَكْتُ أَثَرِي

عَلَى كَثِيرٍ من النُّجُومِ والكَوَاكِبِ .

إنَّ الطريق البَعِيدةَ

هِيَ التي تَجْعَلُنِي قَرِيباً مِنْكَ

وبِالجَهْدِ الشَّاقِ

يَبْلُغُ المَرْءُ بَسَاطَةَ النَّغَمِ.

وَعَلى العَابِر

أَن يَطْرُق كَثِيراً من الأَبْوَابِ الغَرِيبَةِ

حَتَّى يَصلَ إلى بَابِهِ

وَعَلَيْه أَن يَجُوبَ العَوَالِمَ الخَارِجيَّةَ كُلَّها

حَتَّى يَبْلُغَ أَقْصَى المَعَابِدِ

في أَعْمَاقِ القَلْبِ

إِن عَيْنَيَّ تُجولاَن بَعِيداً
قَبْلَ أَنْ أُغْمِضَهُمَا وَأَقُول . .
هَا أَنْتَ هُنَا
إِن هذِهِ الصَّرْخَةَ
وهَذا السَّؤَالَ
يَذُوبانِ في دُموع آلافِ الأَنْهَارِ
وَتَغْمُرُ العَالَمَ باليَقِين
(أَنَا مَوْجُودٌ) .

13

إن النَّشِيدَ الذي جِئْتُ لِكَي أُغَنِيهِ
لَمْ أُنْشِدْه بَعْد
لَقَد انفَقْتُ الوَقْتَ كُلَّه
في ضَبْطِ أَوْتَارِ مِعْزَفِي
بِشَدِّها حِينَا

وَإرخَائها أَحْيَاناً

فَلَم يَتَأَتَّ لي ضَبْطُ الزَّمَنِ الصَّحِيحِ

والكَلِمَاتُ لَمْ تُعَدَّ إعداداً سَلِيماً

وفي قَلْبي

يَتَمَاوَجُ عَذَابُ الأُمْنِيَات التي لَمْ تَتَحَقَّقْ

لَم أَرَ وَجْهَهُ

وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتَهُ

لَكِنَّني سَمِعْتُ فَقَطْ

صَدَى خُطُوَاتِهِ

أَمَامَ بَيْتِي

لَقَد أَمْضَيْتُ يَوْماً كَامِلاً

بِعُمْرِ الحَيَاة كُلِّهَا

لِكَيْ أَطْرَحَ عَلَى الأَرْضِ

البِسَاطَ الذي يُمْكِنُ أنْ يَجْلِسَ فَوْقَه

ولَكِن المِصْبَاح لَمْ يُوقَد بَعْد

وَلاَ يُمْكِنُنِي دَعْوَتُه للدُّخُول
إِنَّني أعيشُ عَلى أَمَلِ لُقْيَاهُ
في نِهَايَةِ المَطَافِ
ولكِنَّنِي لَم ألتَقِ بِهِ حَتَّى الآن

14

كَثِيرةٌ هِي رَغَبَاتِي
وإِنَّ بُكَائِي من أَجْلِها لَمثِيرٌ للإشْفَاق
وَلكِنَّك كُنْتَ تَنْقِذُنِي عَلَى الدَّوَام
بِرَفْضِك القَاسِي لَهَا.
وَيَوْماً بَعْدَ يَوْم
جَعَلْتَني جَديراً بعَطَايَاكَ
العَظيمَةِ البَسِيطَةِ
التي كُنْتَ تَمْنَحُها لِي
بلاَ طَلَب مِنِّي

هذه السَّمَاءُ، وهذَا النُّورُ

هذَا الجَسَدُ ، وهَذَا الفِكْرُ

وهَذه الحَيَاةُ

فَأَنْقَذْتَني من أَخْطَارِ

رَغَبَاتِي الكَثِيرةِ .

أَحْيَاناً استَيْقِظُ وأُهْرَعُ

في عَنَاء

لِبُلُوغِ الهَدَفِ

ولكنَّك تَحْجُبُ عَنِّي نَفْسَكَ بِقُوَّةٍ

وَيَوماً بَعْدَ يَوْم

تَجْعَلُني جَديراً بِالقبُولِ لَدَيْكِ

بِرَفْضِكَ الدَّائِمِ الثَّابِتِ

فَتُنْقِذُني من أَخْطَارِ

الرَّغْبَة الضَّعِيفَةِ المَشْبُوهَةِ .

15

أَنَا هُنَا

لأُرَتِّلَ عَلَيْكَ أَنَاشِيدِي

وفي سَاحَتِكَ الكَبِيرَةِ الواسِعَةِ الأَرجاءِ

أَحْتَفِظُ لِنَفْسِي بإِحْدَى الزَّوَايَا.

وفي عَالَمِكَ

لَيْسَ لَدَيَّ عَمَلٌ أَعْمَلُه.

وَحَياتِي العَابِثَةُ يُمْكِنُها فَقَط

أَن تَتَدَفَّقَ فِي أَنْغَامٍ

بِلاَ غَايَةٍ

وعِنْدَما تَدُقُّ سَاعَةُ عِبَادَتِكَ الصَّامِتَةِ

في ظُلْمَةِ هَيْكَلِ اللَّيْلِ

فَلْتَأْمُرْنِي يَا إِلَـهِي

بِأَنْ أَقِفَ أَمَامَكَ

وأُغَنِّي . .

وعِنْدَما تُشَدُّ أَوْتَارُ القِيثَارَةِ الذَّهَبِيةِ

عِنْدَ الصَّبَاحِ

فلتَمْنَحْنِي شَرَفَ الأَمْرِ

بِأَنْ أَكُونَ حَاضِراً

(16)

لَقَد تَلَقَّيْتُ دَعْوَتِي

لحُضُورِ احتِفَالِ هَذَا العَالَم

لَقَد كَانَتْ حَيَاتِي مُبَارَكةً مَيْمُونَةً

وَلَقد شَبِعَتْ عَيْنَاي مِن النَّظَرِ

وأُذُنَاي مِن الإِصْغَاءِ

وفي هَذا العِيدِ

يَنْبَغِي أَنْ أَكْتَفِيَ بِعَزْفِ آلتِي

وَلَقَدْ حَاوَلْتُ أَن أُؤدِّيَ الدَّورَ المُكَلَّفَ بِهِ

عَلى أَحْسَن ما يُمْكِن أَنْ يُؤَدَّى

والآنَ أَسْأَلُ

هَل حَانَ أخِيراً أوانُ الدُّخُولِ إلى حَرَمِكَ

وَرُؤْيَةِ مُحَيَّاكَ

وتَقْدِيمِ تَحِيَّتي الصَّامِتَة؟

(17)

لاَ أَنْتَظِرُ سِوَى حَبِيبِي

لِكَي أُلقِي نَفْسي

بَيْنَ يَدَيْهِ

لَقَد تَأَخَّرَ الوَقْتُ

وإنيّ لَمُلَوَّثٌ

بِكَثِيرِ من الخَطَايَا والتَّقْصيرِ

إنَّهم يَأْتُون

بِشَرَائِعِهِم وقَوَانِينِهم

لِكَي يُقَيِّدُونِي
وَلِكِنَّي أُفْلِتُ مِنْهُم دَوْماً
لأَنِّي لاَ أَنْتَظِرُ سِوَى حَبِيبِي
لِكَيْ أُلْقِي نفْسِي
بَيْنَ يَدَيْهِ
إِنَّهم يَحْرِمُونَنِي
وَيُسّمونَنِي طَائِشاً مُتَهَوِّراً
وَلاَ رَيْبَ عِنْدِي في أَنَّ التُّهمةَ صَحِيحَةٌ
لَقَد انْقَضَى يِوم السُّوقِ
وانتَهتْ الأَعْمَالُ
والذين جَاؤُا لِدَعْوَتِي عَبَثاً
قَد عَادُوا خَائِبِينَ
لأَنِّي لاَ أَنْتَظِرُ سِوَى حَبِيبِي
لِكَي أُلْقِي نَفْسِي بَيْن يَدَيْهِ.

18

غُيُومٌ فَوْقَ غُيُومٍ

تَتَلَبَّدُ

وَالظُّلْمَةُ أَخَذَتْ تَسْرِي فِي الكَوْنِ

فَلِمَ تَتْرُكُنِي وَحْدِي يَا حَبِيبِي

أَنْتَظِرُكَ أَمَامَ البَابِ؟

إِنَّنِي أَنغَمِسُ فِي جُمُوعِ النَّاسِ

وَسَطَ النَّهَارِ حِينَ يَنْشَطُ العَمَلُ وَيَبْلُغُ عُنْفُوَانُهُ

وَلَكِن فِي هَذَا اليَوْمِ المُوحِشِ القَاتِمِ

أَنتَ أَمَلِي الوَحِيدُ

فَإِذَا لَمْ تَكْشِفْ لِي عَن مُحَيَّاكَ

وإِذَا أَقْصَيْتَنِي مِن قُرْبِكَ

فَكَيْفَ يُمْكِنُنِي أَنْ أُطِيقَ كُلَّ هَذِهِ السَّاعَاتِ

الطَّوِيلَة المُمْطِرَة

إنِ البَصَرَ يتيهُ في ظُلْمَةِ السَّمَاءِ

وقَلْبِي يَجُوبُ الآفاقَ خَافِقاً مُرْتَجِفاً

مَعَ الرِّيحِ التي تَهُبُّ بِلاَ انقِطَاعٍ

(19)

إذَا أَنْتَ لَمْ تَتَحَدَّث إلَيَّ

فَسَأُفْعِمُ قَلْبِي بِصَمْتِكَ

وأَصْبِرُ عَلَيْه .

وبِرَأْسٍ خَافِضٍ خَاشِعٍ

أَظَلُّ على صَمْتِي

وانتَظِرُكَ كما يَنْتَظِرُ اللَّيلُ المُؤَرَّقُ

بِيَقْظَتِهِ المُرَصَّعَة بالنُّجومِ .

يَقِيناً

إنِ الصُّبْحَ سَوْفَ يُقْبِلُ

وَسَتَتَبَدَّدُ الظُّلَمُ

وسَوْفَ يَسْكُبُ صَوْتُكَ

عَبْرَ السَّمَاءِ

أَشعَّةً ذَهَبِيَةً

وحِينَئِذٍ تَتَّخِذُ كَلِمَاتُكَ

أَجْنِحَةً من الأُغْنِيَاتِ

تَنْبَعِثُ من جَمِيعِ أَوْكَارِ طُيُورِي

وتُزْهِرُ أَنْغَامُكَ

في جَمِيع أَدْغَالِي

20

فِي اليَوْمِ الَّذِي تَفَتَّحَت فِيهِ

أَزهارُ اللوتس

كَان ذِهْني يَجُوبُ الآفَاقَ

شَارِداً غَافِلاً عنها

وظلّت سَلّتِي فارِغَةً

والزَّهْرُ مُهْمَلاً مَنْسِياً

كُنْتُ وَحيداً

وبين الفَيْنَة والأُخْرَى

كَان الحُزْنُ يَنْزِلُ فِي أَعْمَاقِي

وَاسْتَيْقَظْتُ فُجْأَةً من النَّومِ

وَشَعَرْت بِأَثَرٍ عَذْبٍ

لِعِطْرٍ غَرِيبٍ

يُصَاحِبُ رِيحَ الجَنُوبِ

تِلْك العُذُوبةُ الغَامِضَةُ

عَذَّبَتْنِي

وَبَدَت لِي أَنَّها نَفَسُ الصَّيْفِ الحَارِ

يَبْحَثُ عَنْ كَمَالِهِ

وَلَم أَفْهَم حِينَذَاكَ

أَنَّه كَانَ قَرِيباً مِنِّي

وأَنَّه كَانَ لِي وَحْدِي

وأَنَّ هَذِهِ العُذُوبَةَ الكَامِلَةَ
إِنَّمَا تَفَتَّحَت
في أَعماقِ قَلْبِي

21

أَوَّاه
عَلَيَّ أَنْ أَدْفَعَ بِقَارِبي إلى العُبَابِ
وَفَوْقَ الشَّاطِىءِ تَمْضِي السَّاعَاتُ
خَامِلَةً وَاهِنَةً
لَقَد فَتَّحَ الرَّبِيعُ زُهُورَه
واستَأذَنَ فِي الرَّحِيلِ
وأَنَا أَنْتَظِرُ عَلَى الشَّاطِىءِ
بِحُمُولَتي التَّافِهَةِ مِن الزُّهُورِ الذَّابِلَةِ
إِنَّ الأَمْوَاجَ لَتَصْطَخِبُ وتَتَعَالَى
وفي الطَّرِيقِ الظَّلِيلَةِ تَرْتَجِفُ الأوراقُ الصَّفْرَاءُ ، وتَتَنَاثَرُ

فِي أَيّ فَرَاغٍ تُحَلِّقُ البَصَر؟
أَلاَ تُحِسُّ بِرِجْفَةٍ تَسْرِي فِي الفَضَاءِ
حَامِلَةً
إِيقَاعَاتِ أُغْنِيَّة بَعِيدَةٍ
تَنْبَعِثُ من الشَّاطِيء الآخر

22

فِي الظِّلِّ الكَثِيفِ لِشَهْرِ تَمُّوز المُمْطِرِ
تَمْشِي بِخُطُوَات خَفِيفَةٍ
صَامِتاً كَاللَّيْلِ
هَارِباً مِن كُلِّ رِعَايَةٍ
لَقَد أَغْمَضَ النَّهَارُ عُيُونَه ،
مُسْتَخِفّاً
بالدَّعَواتِ المُلِحَّةِ مِن ريحِ الشَّرْقِ
وانبَسَطَ حِجَابٌ ثَقِيلٌ عَلَى زُرْقَةِ السَّمَاءِ السَّاهِرَةِ

لَقَد عَطَّلَت الغَابَاتُ غِنَاءَهَا
وكُلُّ الأَبْوَاب مُوصَدَةٌ
وأَنْتَ العَابِرُ الوَحِيدُ بِهَذِه الطَّرِيق المَهْجُورَةِ
يَا صَدِيقِي الوَحِيدُ
يَا خَيْرَ أَصْدِقَائِي
إِنَّ بَابَ بَيْتِي لَمَفْتُوحٌ
فَلاَ تَمُرَّ بِهِ مُرُورَ الطَّيْفِ

(23)

لَقَد خَرَجْتَ يَا صَدِيقِي
فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ العَاصِفَةِ
من أَجْل رِحْلَتِكَ الغَرامِيَّة؟
إِن السَّمَاءَ لَتَرْتَجِفُ يَأْساً
وإِنَّ لَيْلِي لَمُؤَرَّقٌ
ومِن حِين إلى حِين

أَفْتَحُ البَابَ
وأُحَدِّقُ في الظَّلاَمِ
يَا صَدِيقي
لاَ أُبْصِرُ شَيْئاً أَمَامِي
وإنِّي لأَسْأَلُ أَيْنَ تُوجَدُ طَرِيقُكَ
وَعَبْرَ أيِّ ضِفَّةٍ قَاتِمَةٍ
من النَّهْرِ الأَسْوَدِ
أو مِن أيِّ حُدُودٍ قَصِيَّةٍ
لِلغَابَةِ المُظْلِمَة
وخِلاَل أيِّ مَتَاهَةٍ دَكْنَاء
تَمْشِي
لِكي تَأْتِي إلَيَّ
يَا صَدِيقِي

(24)

إِذَا انقَضَى النَّهَارُ

وانقَطَعَتْ العَصَافِيرُ عَنِ الشَّدْوِ

واستَرْخَت الرِّيحُ إِعْيَاءً

فَاسْدُلْ حِجَابَ الظُّلْمَةِ فَوْقِي

كَمَا تُسَرْبَلُ الأَرْضُ بِأَسْتَارِ النَّوْمِ

كَمَا أَغْمَضْتَ بِلُطْفٍ أَفـوَافَ زَهْرَةِ اللُّوتِس

التي تَتَعَذَّبُ في غَسَقِ الظَّلَامِ.

وعَن العَابِدِ الذي فَرَغَ زَادُهُ

قَبْلَ إِتْمَامِ الرِّحْلَةِ

وتَهَلْهَلَت أَثْوَابُهُ

وتَعَفَّرَت بالغُبَارِ

وَتَخَاذَلَت قُوَاهُ

لِتُبْعِدْ الخِزْيَ والبُؤْسَ .

ولتُجَدِّدْ حَيَاتَه مِثْلَ الزَّهْرَة

التي تَلُفُّها أَسْتَارُ لَيْلِكِ اللَّطِيفِ . .

25

فِي لَيَالِي الإِعْيَاءِ

دَعْني أَسْتَسْلِم للنَّوْمِ بِلا صِرَاعٍ

وَاضِعاً ثِقَتي فِيكَ وَحْدَكَ

لا تَدَعْني أُرْغِم رُوحي المُتْعَبَةَ الكَدِرَةَ

على الاستِعْدَادِ لِعَبادَتِكَ

بِلاَ جَدَارَةٍ .

أَنْتَ الذي تَبْسِطُ رِدَاءَ اللَّيْلِ

على عُيُونِ النَّهار المُتْعَبَةِ

لِكَيْ تُنْعِشَ النَّظَرَ

بِبَهْجَةِ اليَقْظَةِ الطَّرِيَّة . .

26

جَاءَ وَجَلَسَ إِلى جَانِبِي

وَلكِنَّهُ لَمْ يُوقِظْنِي

يَا لِي مِن لعِينٍ تَعِيسٍ!

جَاء فِي صَمْتِ اللَّيلِ

يَحْمِلُ في يَدِهِ قِيثَارَه

وكانَت أَحْلاَمي تَتَردَّدُ في أَنْغَامِهِ

أَوَّاه

لِمَاذَا تَكُوُن لَيَاليّ ضَائِعَةً

هَكَذَا عَلَى الدَّوَام

ولِماذَا أضِيعُ دَوْماً رُؤْيَةَ

ذَلِك الذِي أَنْغَامُهُ

تَلْمَسُ أَحْلاَمِي . .

(27)

النُّورُ . . آه . . أَيْنَ النُّورُ

فَلتُوقِد النُّورَ

بِنَارِ الرَّغْبَةِ المُشْتَعِلَةِ .

إن المِصْبَاح لَجَاهِزٌ

ولَكِن أَيْنَ الشَّرَارَةُ؟

هَل هَذا هُو قَدَرِي أَيُّها القَلْب

إن المَوْتَ لَخَيْرٌ لَكَ

إن التَّعَاسَةَ تَطْرُقُ بَابِي

وتَقُول : إِن سَيِّدَك مُؤَرَّقٌ سَهْرَانُ

وَهُو يَدْعُوكَ إِلى سَمَرِ الحُبِّ

في ظَلامِ اللَّيْلِ .

السَّمَاءُ مكْسُوَّةٌ بالسُحُبِ

والمَطَر يَتَساقَطُ بلاَ هَوَادَة

ولا أَدْرِي مَاذَا يَتَحَرَّك فِي أَعْمَاقِي

ولَسْت أُدْرِكُ مَعْنَاهُ

إِن البَرِيقَ المُفَاجِيء لِلبَرْقِ

يُسْقِطُ ظَلاَمًا حَاداً

وقَلْبِي وهُوَ يَتَرَنَّحُ يَبْحَثُ
عن ِ الطَّريق ِ التي تُؤَدِّي إلى حَيْثُ يَدْعُونِي
انسِجَامُ اللَّيْل ِ وتَنَاغُمُهُ
النُّورُ . أَينَ النُّورُ؟
فَلتُوقِد النُّورَ بِنَارِ الرَّغْبَة المُشْتَعِلَةِ .
العَاصِفَةُ تُدَوِّي
والرِّيحُ تَهَبُّ ، مُصَفِّرَةً في الفَرَاغ ِ
واللَّيْلَ مُظْلِمٌ كَأَنَّه صَخْرَةٌ سَوْدَاءُ
فَلاَ تَدَع ِ السَّاعَاتِ تَمْضِي في ِ الظَّلاَم ِ
ولتُوقِدْ بِحَيَاتِك
مِصْبَاحَ الحُبّ

28

ثَقِيلَةٌ جِدّاً هِي القُيُودُ
وَلَكِن قَلْبِي يَتَأَلَّمُ

حيْنَ أُحَاوِلُ فَكَّهَا

إِنَّ الحُرِّيَةَ لَهِيِ رَغْبَتِي الوحيدَةُ

ولَكِن الأَمَلَ فِي تَحْقِيقِها

يُثيرُ خَجَلِي .

إِنِّي لَعَلَي يَقِينٍ بِأَنَّ ثَرَواتٍ طَائِلَةً

لاَ تُقَدَّرُ كَامِنَةٌ فِيكِ أَيَّتُهَا الحُرِّيَة .

وإِن أَعْظَمَ أَصْدِقَائِي هِي أَنْتِ .

ولكِني لاَ أَجِد الشَّجَاعَةَ

لِكَي أُلْقِي بِكُلِ بَهَارِجِي الزَّائِفَة الخَدَّاعَة

التي تَمْتَلِىء بِهَا غُرْفَتي

إِني كالَملْفُوفِ في سِترٍ

مِن الغُبارِ والمَوْتِ. إِني أَكْرَهُهُ

ولَكِنَّني في الوقْتِ نَفسِهِ أُعَانِقُهُ بِحُبٍّ

إن دُيوني لَعَديدَةٌ

وذُنُوبي لَخطِيرَةٌ

وتَبَجُّحي الخفيّ لثقيلٌ

ولَكِن

عِنْدَما أَلتَمِسُ الخَيْرَ الذي أَرْجُوهُ

أَرْتَجِفُ مِن الخَوْفِ لِمُجَرَّدِ التَّفْكِيرِ

بِأَنَّ دَعْوَتِي سَتَكُوْن مُسْتَجَابةً . .

29

هَذَا الذِي أَحْبِسُهُ دَاخِلَ اسْمِي

أَراهُ يَبْكِي فِي هَذا السِّجْنِ

لَقَد كُنْتُ مُهْتَماً دَوْماً

بِبِنَاءِ هَذا السُّورِ الذِي يُحِيطُ بِهِ

وَشَيْئاً فَشَيْئاً

وَيَوْماً بَعْدَ يَوْم

وكُلَّما ازْدَادَ ارتِفَاعُ هَذا السُّورِ بِجَوِّ السَّمَاءِ

وَجَدْتُنِي أَفْقِدُ رُؤْيَةَ حَقِيقَتِي

في ظِلالِه القَاتِمَةِ
إنني أُبَاهِي بِهَذا السُّور العَظِيم ِ
وأُرَمِمُّهُ بالغُبَارِ وَالتُّراب ِ
خَوْفاً مِن أن تَظَلَّ ثغْرَةٌ أَخيرَةٌ
في هَذَا الاسْم
وَمع كُلِّ العِنَايَةِ التي أَبْذُلُها
فإنِّي أَفْقِدُ رُؤْيَة حَقِيقَتِي الذَّاتِيَّةِ . .

30

لَقَد خَرَجْتُ وَحْدِي لِلقَائِك
وَلكِن ، مَنْ هَذَا الذي يَتْبَعُ خُطَايَ
فِي الظُّلْمَةِ السَّاكِنَةِ؟
حِدْتُ عَنْه
حَتَّى أَتجَنَّبَ صُحْبَته
ولكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ الإفْلاَتَ مِنْهُ

فَبِمِشْيَتِهِ البَاسِلَةِ الوَاثِقَةِ
كَانَ يُثِيرُ الغُبَارَ
ولِكُلِّ كَلِمَةٍ أَنْطِقُهَا
كانَ يُضيفُ صَوْتَه الصَّاخِبَ
إنَّه (أَنَاي) الصَّغَيرةُ
بِلاَ خَوْفَ ولاَ حَيَاءٍ
ولكني أَخْجَلُ أَن أَحْضُرَ إلى بَابِكَ
بِهَذه الرُّفْقَةِ . .

31

أَيُّها الأَسِير
قُلْ لِي
مَنْ كَبَّلَكَ بِهَذِهِ الأَغْلاَل؟
أجَاب الأَسير
إنَّهُ مَوْلاَي ! لَقَد زَيَّنَ لِيَ الوَهْمُ

بأني سَأَفُوق جَمِيعَ العَامِلِين ثَرْوَةً وسُلْطَانَا
وَهَكَذا أَخَذْتُ أَجْمَع فِي خَزَائِنِي
أَمْوَالَ مَوْلاَي
وحِينَ غَلَبَنِي النُّعَاسُ
اضْطَجَعْتُ على السَّرِيرِ المُخَصَّص لِمَوْلاَي
وحِين اسْتَيقَظْتُ وَجَدْتَنِي أسيرَ كَنْزِي
أيهَّا الأَسِيرُ
قُلْ لِي مَن الذِي صَنَعَ هَذَهِ الأَغْلال؟
أجَابَ
أَنَا نَفْسِي صَنَعْتُ هَذِه الأَغْلاَل
وَلنْ يَقْدَرِ أحَدٌ عَلَى كَسْرِهَا
ظَنَنْتُ أَن قُوَّتِي التي لاِ تُقْهَرُ
سَوْفَ تأْمُرُ العَالَمُ كُلّهُ
وأَبْقَى وَحْدِي الحَرَّ الطَّلِيقَ
فَعَكَفْتُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ عَلَى

صُنْعِ هَذِه الأَغْلاَلِ
بِالنَّارِ المُوقَـدَةِ والطَّرَقَاتِ العَنِيفَةِ
وحِين انْتَهَيْتُ مِن العَمَلِ
وتَلاَحَمَت آخِرَ حْلقَةٍ فِي
هَذِه السَّلْسِلَة
أدْرَكْتُ أَنَّها تُضَيِّقُ عَلَيَّ
الخِنَاقَ بِقَبْضَتِهَا العَاتِيةِ . .

32

الذّين يَحبُّونَني في هَذَا العَالَم
يَبْحَثُونَ بِكُلّ الوَسَائِل
لكي يَشُدُّوني إلَيْهِم .
وُحبُّك أَكْبَرُ مِنْهم
ولكِنَّة لاَ يُصَادِرُ حُرِّيتي .
وخَوْفاً مِن أَن أَنسَاهم

لاَ يَجْرُؤونَ عَلى تَرْكِي وَحْدِي
ولكِنَ الأَيَّامَ تَتَوالى وَتَتَعاقَبُ
وأَنْتَ لاَ تَبْدُو ألبَتَّةَ
لَسْتُ أَدْعُوكَ في صَلَوَاتِي
وَلاَ أَحْفَظُكَ فِي قَلْبِي
ولكِن حُبُّك لِي
ما يَزَال يَنْتَظِرُ حُبِّي . .

(33)

عِنْدَ النَّهَار
جَاؤُا إلى دَارِي
وقَالُوا :
سَنَشْغَلُ فَقَطْ أَصْغَر الغُرَفِ
وقَالُوا :
سَنُعِينُكَ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّكِ

وَنَقْبَلُ بِخُشُوعٍ ذَلِك النَّصِيبَ الزَّهِيدَ
من النِّعْمَةِ التي نَسْتَحِقُّهَا.
ولَبِثُوا خَاشِعَينِ هَادِئِين .
وَلَكِنِّي اكتَشَفْتُهُم فِي ظَلام اللَّيْلِ
يَنْقَضُّونُ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ
عَلَى مَعْبَدي
وَيْنتَزِعُون فِي جَشَعٍ لَعِينٍ
عطَايَا هَيْكَل الرَبّ . .

34

دَعْ لِي فَقَط
ذَلِك القَلِيلَ الذِي أَدْعُوكَ بِهِ:
أَنْتَ كُلِّي
دَعْ لِي ذَلِك القَلِيلَ
الذي يُمكِّنُني من الشُّعُورِ بِكَ في كُلِّ مكانٍ

وأن أُقْبلَ عَلَيكَ في كُلِّ شأْنٍ
وأَن أَقَدِّمَ إلَيْكَ حُبِّي فِي كُلِّ وَقْتٍ
دَعْ لِي ذَلِك القَلِيلَ
الذي لاَ يَسْمَحُ لِي بالاختِفَاءِ
وأتْرُك لِي فقط تِلْكَ السِّلْسِلَةَ
التي تَرْبِطُنِي إلى إرَادَتِكَ
وَدَعَ غَايَتِكَ تَتحَقَّقُ فِي حَيَاتِي
التِي هي رِبَاطُ حُبِّكِ. .

35

حَيْثُ الفِكْرُ الذِي لاَ يَعْرِفُ الخَوْفَ
وحَيْثُ الرَّأَس يَرْتَفِعُ شَامِخاً عَالِياً
وحَيْثُ المَعْرِفَةُ حُرَّةٌ
والعَالَم غَيْرُ مُمَزَّقٍ
دَاخِلَ الجُدْرَانِ المَأْلُوفَةِ الضَّيِّقة

وَحَيْثُ تَنْبَثِقُ الكَلِمَاتُ من أَعْماقِ الحَقِيقَةِ

وحيثُ الجَهْدُ المُتَواصِلَ يَمُدُّ ذِرَاعَيْه نَحو الكَمَالِ

وَحَيْثُ نَهر البَلَدُ الصَّافِي

لا يَضِلُّ طَرِيقَه فِي رِمَالِ صحْرَاءِ

العَادَات البَالِيَةِ

وحيثُ تَقُود العقْلَ إلى الأَمَام

نَحْو أَفْكَارِ وأَعْمَالِ تَزْدَادُ رَحَابَة عَلَى الدَّوَامِ

في ذَلِك الجَوِّ مِن الحُرِّيَةِ

اجعَلْ بَلَدِي يَنْهَضْ

يَا رَبّ . . .

(36)

مِنْ أَجْل هَذَا

أَلْتَمِسُ مِنْكَ يَا رَبَّاهُ

أَن تَجْتَثَّ التُّعَاسَة المُنْغَرِسَةَ في قَلْبِي مِن جُذُورِهَا

وأَنْ تُعْطِيني القُوَّة لِكَي أُطِيقُ الأَفْرَاحَ والآلاَمَ
وامنَحْنِي القُوَّةَ لِكَي أَجْعَلَ حُبّي صَالِحاً
ونَافِعاً في خِدْمَتِكَ
وَهْبني القُوَّةَ عَلَى عَدَم إنكَارِ الفَقْرِ
وَرَفْضِ الرُّكُوعِ أَمَامَ وَقَاحَةِ الطُّغَاةِ
وَهَبْني القُوَّةَ عَلَى أن أَرْفَع الفِكْرَ
فَوقَ تَفَاهَةِ الحَيَاة اليَوْمِيَّة
واعْطِنِي القُدْرةَ عَلَى تَسْلِيم قُدْرَتِي
لإرادِتِكَ

(37)

كُنتُ أَظُنُّ أَنَّ رِحْلَتِي
قد أوْشَكَتَ على الخِتَامِ
وأن قِوَاي قد بَلَغتَ غايَةَ الإنْهَاكِ
وأن الطَّرِيقَ أمامي مَسْدُودةٌ

وأن زَادِي قَد انتَهَى

وأنَّه رُبَّمَا حَانَت سَاعَةُ الانسِحَابِ

إلى الصَّمْت والظَّلامِ

ولكِنَّني اكتَشَفْتُ أن إرادَتَك لاَ تَعْرِفَ نِهَايَة لِي

وعِندَما تَمُوتُ الكَلِمَات القَدِيمَةُ

تَتَدَفق أَنْغَامٌ جَدِيدَةٌ من القَلْبِ

وحِينَ تَضِيعُ الطُّرُق القَدِيمَةُ

يَبْدُو في الأُفقِ

بَلَدٌ جَدِيدٌ رَائِعٌ

38

أُرِيدُك أَنْتَ ، أَنْتَ وَحْدَكَ

هَذا مَا يُرَدِّدُهُ قَلْبي بِلاَ نِهَايَة .

زَائِفَةٌ فَارِغَةٌ

تِلك الرَّغَبَاتُ التي تُحَاوِلُ عَلَى الدَّوامِ

إبعَادِي عَنْكَ

ومِثْلَما يُخْفِي اللَّيْلُ في ظَلاَمِه الحَالِكِ

رَغبَاتِ النُّورِ

هَكَذا يَتردَّدُ في أَعْمَاق ضَمِيرِي صَدَى :

أُرِيدُك أَنْتَ، أَنْتَ وَحْدَكَ

وَمِثْلَمَا تَبْحَثُ العَاصِفَةُ عَن نِهَايَةٍ لَهَا في الهُدُوءِ

حَتَّى وَلَو كَانَت تُقَاوِمُ هَذَا الهُدُوءَ بِكُلِّ

عُنْفٍ وضَرَاوَةٍ

هَكَذَا تَمَرُّدِي

يُصَارِعُ حُبَّكَ

ومع ذَلِكَ يَصْرَخ هَاتِفاً :

أُرِيدُك أَنْتَ ، أَنْتَ وَحْدَك

(39)

عِنْدَما يَقْسُو القَلْبُ وَيجِفُّ

فَلتُنْزِلْ عَلَيه شآبيب الرَّحْمة

وعِنْدَما تُفْقَد النَّغْمَة فِي الحَيَاةِ

فَلتَأْتِ مِثْلَ هَدِير الأغاني المُفَاجِئ

وعِنْدَما يَرْفَعُ العَمَلُ الصاخِبُ

مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

دَوِيَّهُ العَنِيفَ

ويُقْصِيني عَمَا وَرَاء الحَيَاةِ

فَلتُنْزِل يا سَيِّدَ الصَّمْتِ

بَلْسَمَكَ وَراحَتَك

وعِنْدَمَا يَجْلِسُ قَلْبِي البَائِسُ

مُنْزَوِياً مِثْل المُتَسَوِّل

فَلتَفْتَح يَا مَلِيكي بَابَكَ

ولتَدْخُلْ دُخُولَك المُظَفَّرَ

وعِنْدَما تُعْمِي الأغْرَاضُ العقْلَ

بِغُبارِها وأوهامِها

فَلْتَأْتِ أيها القُدْسُ الوَاعِي
بِبَرْقِكَ
وَرْعْدَكِ

(40)

يَا إِلٰهي
أَيَّاماً وأَيَّاماً
لم يَهْبِطُ المَطَرُ فَوْقَ قَلْبِي الجَافِّ
والأُفْقُ عَارٍ وقَاسٍ
لا تَغْشَاهُ أَرَقُّ السُّحُب
ولا تَتَرَدَّدُ فيه أَيَّةُ إشَارةٍ مُبْهَمَةٍ
بِمَطَرٍ نَدِيٍّ بَعِيدٍ
فَلْتُرْسِلْ
إعْصَارَك الغَاضِبَ
المُفْعَمَ بِالمَوْتِ الأَسْوَد

وإذَا كَانَت هَذِه إرَادَتك

وبِسَوْطِ البَرْق ِ

فَلتُفْزِعْ كَافَةَ أَرْجَاءِ السَّمَاءِ

ولكِن يَا إلَهِي

لِتَدَعْ هَذَا الحَرَّ الصَّامِتَ

الذي ِ يَجْتَاحُ فِيَّ كُلَّ شَيء

وبِكَثَافَتِهِ وسُكُونِهِ وقَسْوَتِه

يَحْرِقُ قَلْبي بِيَأْس أَسْود

دَعْ سُحُبَ الرَّحْمَةِ

تَنْحَني مِن أَعْلَى السَّمَاءِ

بنظرة مِثْل النَّظرةِ الحَزِينَةِ التي تُلْقِيها الأمُّ

يَوْمَ الغَضَبِ الأبوي

(41)

يَا حَبِيبي

أَيْنَ تَخْتَفِي في الظِلِّ، خَلْفَ الجَمِيعِ

وفي الطَّريقِ المُتْرَبَة

يَدْفَعُونَكَ

وَيَتَجَاوَزُونَكَ

وَيَعْتَبرُونَك شَيْئاً لاَ أَهَمِيَّةَ لَه

إني أنتَظِرُ هُنا سَاعَاتٍ طَويِلَةً مُمِلَّةً

أنْثُرُ لَكَ قَرابِيني

بَيْنَمَا يأتي العَابِروُن

ليَأخُذُوا زُهُوري

وَاحِدَة تِلْوَ الأخْرَى.

حتى أَوْشَكَت سَلَّتِي أَنْ تَفْرَغَ

لَقَدْ وَلَّى الصَّبَاحُ

وانقَضَت الظَّهيرةُ

وقَد أَثْقَلَ النَّوْمُ أَجْفَانِي

والرجالُ يَعُودُون إلى بُيُوتِهم

ويُحَدِّقُون فِيَّ هَازِئِين

وإني لأشْعُر بِخَجَلٍ قَاتِلٍ

جَالسةً مِثْل المُتَسَوِّلَة

رَافعَةً أطراف ثَوْبي فَوْقَ وَجْهِي

وحين يسألُونَني مَاذَا أَبْغِي؟

فَإنِّي أَخْفِضُ بَصَرِي ، ولا أجيبُ

كيف يمكنني أن أقولَ لهم

إنَّك وحدَك الذي أنْتَظِرُ

وإنَّك وعَدْتني بالْحُضورِ

كيف يمكنني أن أقولَ دون خَجَلٍ

إنيِّ أَحْمِلُ فَقْرِي مَهْراً لَك

إنِّي أَطْوِي زَهْوِي بِك

في أَعَماقِ قَلْبِي

وأجْلِسُ فَوْقَ العُشْبِ أَرْقُبُ السَّمَاءَ

وأحْلُم بِرَوْعَةِ قُدُومِكَ المُفَاجِىء

تَتَموَّجُ فَوْق عَرَبتِك المَشَاعِلُ المُضِيئَة
والأجْنِحَة المُذَهَّبَة
وعلى حَافَة الطَّريق
يَقفُ هَؤُلاءِ فِي ذُهُولٍ وبِأَفْوَاهٍ فاغِرَةٍ
عِنْدَ رُؤْيَتَك تَهْبِطُ مِن عَرَبَتِكَ
لِتَرْفَعَنَي من الأرضِ المُتْرِبَة
وتَضعَ إلى جَانِبْكِ هذه المُتَسَوِّلَة
ذَاتِ الثِّيابِ الرَّثَّة
التي تَرْتَجِفُ حَيَاءً وفَخْراً
كَما تَرْتَجفُ الشَجَرةُ العِلِّيقَةُ
حِينَ تُجَاذِبُها أَنْسَام الصَّيْفِ
ولكن الوَقْتَ يَمْضِي
ولاَ أُصْغِي لِضَجِيجِ عَجَلاتِ عَرَبتِكَ
وتَمُرُّ كَثِيرٌ من المَواكِبِ
يَصْحَبُها الضَّجِيجُ والصُّرَاخُ ، وهُتَافُ المَجْدِ

وَوَحْدَكَ تَظَلُّ صَامِتاً
خَلْفَ الجَمِيع
وفي الظِّلِّ .
أيكون عَلَيَّ وَحْدِي أن أَنْتَظِر
وأَبْكِي
وأُتْلِفَ قلبِي
في هذا الانتِظارِ العقيم ؟

42

عند انبلاج النهار
تَرَدَّد الهَمْس
بأننا سَنُبْحِرُ وَحْدَنَا
أنا وأَنْت
فوق زورقٍ
من غير أن يعلمَ أَحَدٌ من الناس

برحلتنا هذه

نحو لا مكان ولا هدف

في ذلك المُحِيط الذي لا ضفاف له

وعند ابتِسَامَتِك الوَاعيَة الصَّامِتَة

تَتَعَالَى أناشِيدي

في أنغَامٍ طَلِيقَةٍ مِثْل الأَمْوَاجِ

منعتقة من عبودية الكلمات

أَلَمْ يأتِ ذلك الوقتُ بَعْدُ؟

ألا تَزَالُ هُنَاكَ أعْمَالٌ يَنْبَغي إتْمَامُها؟

أنْظُرْ

إن المساء يهبطُ على الضفَّةِ

وفي النورِ الذي يَنْحُو نَحْو الزَّوالِ التَدْرِيجي

تُحَلِّقُ الطيورُ البَحْرِيَّةُ

عَائِدةً إلى أعْشَاشِهَا

مَنْ يَدْرِي

مَتى تُفَكُّ المَرَاسِي
ويَغِيبُ الزورقُ في الليّلِ
كَمَا يَغيبُ آخِرُ شُعَاعٍ
من أَشِعَّةِ الغُرُوبِ

(43)

كَان النَّهَارُ
ولم أَكُنْ قد هَيأْتُ نَفْسِي لاستِقْبَالِك
ولكنَّك دَخَلْتَ قَلْبِي
بِلا دَعْوَةٍ، ولا سَابِقِ مَعْرِفَة
وَوَسَمْتَ بِطَابَعِ الخُلُودِ
الكَثِيرَ من اللَّحَظَاتِ العَابِرَة مِنْ حَيَاتِي
واليَوم حِين أُلقِي عَليها الأَضْوَاءَ
صِدْفَةً
وأَرَى طَابَعَكَ

أفْطَنُ إلَى إنها قد اختَلَطَتْ مَعَ الذِكْرَيَاتِ
الأَفْرَاح والأَتْرَاح
في أيَّامِي التَّافِهَةِ المَنْسِيَّةِ
إنَّك لَمَ تَبْتَعِد عنِّي أَبَداً
مُسْتَهْزِئاً بِلُعْبَتِي الصِّبْيَانِيَّة
وصَدَى الخُطَوات التي كانتَ تَتَرَدَّدُ
في غُرفَةِ أَلْعَابي
هُو الصَّدَى نَفْسُهُ الَّذي يَتَرَدَّدُ
الآنَ مُتَنَقِّلاً من نَجْمٍ إلى آخر.

(44)

تِلْكَ هِي فَرْحَتي
أَن أنْتَظِرَ
وأُحَدِّقَ في حَافَّة الطَّرِيق
حَيْثُ الظِّلالُ تُلاَحِقُ الأَضْوَاءَ
والمَطَرُ يَهْطِلُ في مَطْلَعِ الصَّيْفِ

وُيَحيِّيني رُسُلٌ
يَحْمِلُون أَخْبَاراً من سَمَاوَاتٍ بَعِيدَةٍ مَجْهُولَةٍ
إِن قَلْبِي لَعَامِرٌ بالغِبْطَةِ
وَعَذْبَةٌ هِي أَنفَاسُ النَّسِيمِ العَابِرِ
ومِن الفَجْرِ حَتَّى الغُروبِ
أَجْلِسُ أَمَامَ بَابِي
وإنِّي لَعَلي يَقِين
بأَنَّه ستُفَاجِئُني اللَّحْظَةُ التي أَرَاك فِيها
وعندَ ذَلِكَ أبْتَسِمُ
وأُغَنِّي وَحْدِي
وعِنْدَ ذَلِكَ يَمْتَلِئ الجَوُّ
بعِطْرِ الوَعْدِ

45

أَلَمْ تَسْمَعْ خُطُوَاتِه الصَّامِتَه؟

إنَّه يَتَقَدَّمُ ، يَتَقَدَّمُ ، دَائِمَاً يَتَقَدَّمُ
في كُلِّ لَحْظَةِ
في كُل عُمْرِ
في كُلِّ يَوْمِ
في كُلِّ لَيْلَةِ
إنَّه يَتَقَدَّمُ ، يَتَقَدَّمُ، دَائِمَاً يَتَقَدَّمُ
لَقَد غَنَّيْتُ أُغْنِيَاتٍ كَثِيرَةً
مُخْتَلِفَةَ النَّبَرَاتِ
والأفْكَارِ
ولكِنَّ أَبيَاتِي كَانَت تُعْلِنُ دَوْمَا
أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ، يَتَقَدَّمُ دَائِماً يَتَقَدَّمُ
فِي الأيَّامِ المُمْطِرَةِ
من نَيْسا ن المُشْمِس
وَعَبْرَ الدُّرُوبِ الخَضْرَاء بالغَابَةِ
يَتَقَدَّمُ ، يَتَقَدَّمُ دَائِماً يَتَقَدَّمُ

وفي الظُّلْمَةِ الحَالِكَةِ مِن لَيَالِي يُولِيُو
وعَلى عَرَبةِ الغُيُوم القَاصِفَةِ
إنَّه يَتَقَدَّمُ ، يَتَقَدَّمُ دَائِماً يَتَقَدَّمُ
في كُلِّ آلامي
وفي كُلِّ أَوجَاعِي
كَانَت خُطُواتُه تَضْغَطُ عَلَى قَلْبِي
واللَّمَسَاتُ الذَّهَبِيَّةُ لِقَدَمَيْهِ
تَجْعَلُ كُلَّ أَفْرَاحي مُتَأَلِقَة

(46)

لاَ أَدْرِي في أيِّ زَمَنٍ
من الأَزمَانِ البَعِيدَةِ
أَخَذْتَ في الاقْتِرَاب مِنِّي
إن الشَّمْسَ والنُّجُوم لاَ يُمْكِنُ أَن تَحْجُبَكَ عَنِّي
إلى الأَبَد

ما أَكْثَرَ المَرَّاتِ
صَبَاحاً وَمَساءً
التِّي سمعْت فِيها وَقْعَ خُطُواتِك
ودَخَلَ فِيها رَسُولُكَ قَلْبِي
ودَعَاه فِي الخَفَاءِ
لاَ أَدْرِي لِمَاذَا حَيَاتِي اليَوْم
كُلُّها جَيَّاشَةٌ مُسْتَوْفِزَةٌ
وشيءٌ من الفَرْحَةِ الوَاجِفَة
يَتَخَلَّل قَلْبي
لَكَأَنَّ الوَقْتَ قَد حَانَ
لإِنهَاءِ عَمَلِي
إنَّ رَائِحَةَ خَفِيفَةً في الجَوِّ
تنمُّ عَلى عِطْر حُضُورِك العَذْبِ

47

لقد انقَضَى اللَّيْلُ كُلُّه تَقريبا

وانتظارُه صَار عَبَثاً

وأَخْشَى أن يُفَاجِئَنِي عِند الصَّباحِ

بِوُقوفِهِ عند بَابِي

حين يكون الإعياءُ قد أَخَذَ مِنِّي كُلَّ مَأْخِذٍ

وانتَهَى بِي إلى النَّوْم

أيّها الأَصدقاء

دَعُوه يَدْخُل

ولا تَقْفِلوا طَرِيقَه

فإذَا كَانَ وَقْعُ خُطُوَاتِهِ لاَ يُوقِظُنِي

فَلاَ تُحَاوِلُوا إيقَاظِي

هذا رجائي إليكم

فلا أَرغب في أن أُوقَظَ بِضَجِيجِ زَقْزَقَة العَصافِيرِ

ولا بِجَلَبَة الرِّيح

في عيد النُّورِ عِند الصَّبَاح

ألا دَعُوني، أنامُ بِلاَ قَلَقٍ أو إزْعاجٍ

حَتَّى وَلَو جَاءَ مَوْلاَي
فُجْأَةً للوقُوفِ عِند بَابِي
آه يَا لَنَوْمِي ، نَوْمِي الغَالِي
الذي يَنْتَظِرُ فَقَط لَمْسَةً رَقِيقَةً
من يَدِه لِكَي يَتلاَشَى
آه يا لَعَيْنَيَّ المُغَمَضَتَينِ
اللَّتَين تَرْغَبَانِ في أَن تَفْتَحَ أَهَدابَهَمُا
فَقَط عَلى نُورِ ابتِسَامَتِهِ
حِينَ يَنْتَصِبُ أَمَامِي
مِثل الحُلُم الذي يَهُبُّ من ظُلُمَاتِ النَّومِ
دَعُوهُ يَظْهَر لِعَيْنِي
كالبَواكِير الأُولى لِكُلِ الأَضْوَاء
وكُلِّ الأَشْكَال
وَدَعُوا رجْفَةَ الفَرَحِ الأَوَّلِ
تَبْلُغُ النَّفْسَ التي استَيْقَظَت عَلَى نَظَرَاتِهِ

وَدَعُوا عَوْدَتِي إلى نَفْسِي
تكُون عَوْدَتِي الفَوْرِيَّةِ إلَيْهِ. .

48

بَحْرُ الصَّمْتِ الصَّبَاحِي
يَتَمَوَّج في غَمْغَمَاتِ
مِن غِنَاء العصافِيرِ.
وعَلَى حَافَّةِ الطَّريقِ
تَبْدُو الزُّهُور كُلُّها سَعِيدَةً
وَثروةُ السَّماءِ الذَّهَبِيَّة
تَتَنَاثَرُ عَبْرَ الغُيُوم ِ المُتَقَشِّعَةِ
بَينما كُنَّا نَعْبُرُ طَرِيقَنَا
مَشْغُولِين بِأَنْفُسِنَا
ودون أَن نُعِيرَها أَيَّ اهتِمَام ِ
فَلَم نُغَنِّ أغنِيَّاتِ بَهِيجَةً

وَلَم نَعْزِفْ

وَلَمْ نَذْهَبْ إلى القَرْيَةِ لِشِرَاءَ الحَاجَاتِ

وَلَم نَنْطِق بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ

ولم نَبْتَسِمْ

وَكُنَّا دَوْماً نُسْرِعُ الخُطَى

بَيْنَما الوَقْتُ يَمْضِي مُسْرِعاً

الشَّمْسُ كَانَتَ عَالِيَةً في كَبِدِ السَّمَاءِ

واليَمَامُ يَهْدِرُ في الظِّلِّ

والأوراق الجَافَّةُ تَدُورَ راقِصَةً

في هَواءِ الهَجِيرِ اللاَّفِح

وفي ظِلِّ شَجَرة المَوْزِ

يَرْقُد رَاعٍ صَغِيرٌ حَالِماً

فارتَمَيْتُ إلى جَانِبِه قُرْبَ جَدْوَل

وأَلقَيْتْ أعضْائِي المَنْهُوكَةَ فَوقَ العُشْبِ

رِفَاقِي ضَحِكُوا مِنّي هَازِئِين

ثم أَسَرعُوا السَّيْرَ برؤوسٍ شَامِخَةٍ
وَلَم يلتَفِتُوا إلى الوراءِ للتَّأمُّلِ
ولمَ يَتَوَقَّفُوا للرَّاحَةِ
وتَلاَشُوا بَعيدًا
في زُرْقَةِ الضَّبَابِ
مُجْتَازِينَ حُقُولاً وهِضَاباً
مَارِّينَ بِبُلْدَان بَعِيدةٍ غَرِيبَةٍ
لَكِ المَجْدُ
يا كَتِيبة الأَبْطَال الزَّاحِفَة على الطَّريق التي لاَ حَدَّ لها
وقد استَفَزَّنِي اللَّوْمُ والسُّخْرِيةُ
فَأَرَدْتُ النُّهُوضَ
ولكِن عَبثاً
فَقَد ضِعْتُ فِي هَاوِيَةٍ مِن التَّذَلُّلِ المُرِيحِ
في ظِلاَل بَهْجَةَ غَامِضَةٍ
أن هُدُوء الظِّلاَلِ الخَضْرَاءِ

التي طَرَّزَتها الشَّمْسُ
أَخَذَ يَنْتَشِرُ في قَلْبِي
نَسِيتُ هَدَفَ رِحْلَتِي
واسْتَسْلَمْتُ دُون مُقَاوَمَةٍ
لتَدَاخِلِ الأَغَانِي بالظِّلاَلِ
وحِينَ نَهَضْتُ أَخِيراً مِن سُبَاتِي
وفَتَّحْتُ عَيْنَيّ
رَأيتُكَ قَائِماً أَمَامِي
تَغْمُر أَحْلاَمِي بابتِسَامَتِكَ . .
مَا أَكْثَرَ ما أشْفَقْتُ مِن وُعُورَةَ الطَّرِيق
وطُولِها
وما أَكْثَرَ مَا شَعَرتُ بِقُوَّةِ الصِّرَاعِ
من أَجْلِ الوُصُولِ إِليك . .

(49)

نَزَلْتَ مِن عَرْشِكَ

وَوَقَفْتَ عِنْدَ بَابِ كُوخِي الصَّغِير

كُنْتُ أُغَنِّي وَحْدِي

في إِحْدَى الزَّوَايَا

فَتَنَاهَت أَنْغَامي إلى سَمْعِك

فَنَزَلْتَ مِن عَرْشِكَ

وَوَقَفْتَ عِنْدَ بَابِ كُوخِي الصَّغِير

إِن المُغَنِّين الكِبَار في قَصْرِك كَثِيرون

والأَنْغَامُ تَتَرَدَّدُ في أَرجَائِهِ كُلَّ الوَقْتِ

ولكن الأَنْغَامَ البَسِيطَةَ

لِهذَا الرَّاهِب الصَّغير

قد استَهْوَتْكَ وأَثَّرت في نَفْسِكَ

نَغَمٌ صَغِيرٌ حَزينٌ

يَمْتَزِج بمُوسيقى الكَوْن

نَزَلْتَ لَهُ مِن عَرْشِكَ

حَامِلاً زَهْرَةً نَدِيَّةً

هَدِيةً

وَوَقَفْتَ عِنَد بَابِ كُوخِي الصَّغِير . .

50

لَقَد ذَهَبْتُ أَستجْدِي

من بَاب إلى بابٍ .

على طُولِ طَرِيقِ القَرْيَةِ .

حِينَ بَدَت لِي مِن بَعِيدٍ

مَرْكَبَتُكَ المُذَهَّبَةَ

كَأَنَّها الحُلُمُ الرَّائِعُ .

فَتَسَاءَلْتُ

مَنْ يَكُونَ مَلِكُ المُلُوكِ هَذَا؟

وَتَزَايَدَت أَمَالِي

وَفكَّرْتُ في أَن الأَيّام البَائِسَةَ

قد وَلَّت

وَلَبِثْتُ فِي انتِظَار العَطَايا العَفوِيَّة

والخَيْرَاتِ المَنْثُورَةِ في كُلِّ مَكَانٍ

وَوَقَفْتْ مَرْكَبَتُكَ بالقُرْبِ مِنِّي

وحَدَّقْتَ فِيَّ ثُمَّ نَزَلْتَ عَنْهَا بَاسِماً

وأحْسَسْتُ أَن حَظَّ الحَيَاةِ

قَد أَدْرَكَنِي فِي النِّهَايَةِ

ثُمَّ، فَجْأَةً

بَسَطْتَ يَدَكَ

سَائِلاً

مَاذَا لَدَيْكَ لِتُعْطِينِي؟

يَا لَها مِنَ بادِرَةَ رَفيعَةٍ

أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ لِتَسْتَجْدِي

مُتَسَوِّلاً مِثْلِي..

وَلَبِثْتُ مُضْطَرِباً مُرْتَاباً

ثم أَخْرَجْتُ من مِزْوَدِي

أَصْغَرَ حَبَّةِ قَمْحٍ
وَقَدَّمْتُها إِلَيْكَ ..
وَمَا أَعْظَمَ المُفَاجَأَة !
حِينَ انتَهى النَّهَارُ
وجِئْتُ لإِفْرَاغِ مِزْوَدِي
وَنَفْضِهِ عَلَى الأَرْض
فَوَجدْتُ حَبَّةً من الذَّهبِ
في حَصِيلَتِي البَائِسَةِ
بَكَيْت بمَرَارَة
وَوَدِتُّ لَوْ أَنِّي وَجَدْتُ الشَّجَاعَةَ
لإِنَ أَهَبَكَ مَا كُنْتُ أَمْلِكُ ..

51

خَيَّمَ اللَّيْلُ
وانتهت أعمَالُنا اليَوْميَّة

وَظَنَنَّا أن آخرَ الضُّيُوف
قَدْ وَصَل ، لِقَضَاء اللَّيْلِ معنا
وَأُغْلِقَتْ جَميعُ أَبْوابِ القَرْيَةِ
وَوَاحِدٌ فقط هُو الذِّي قَالَ
إن المِلكَ سَوْفَ يَصِلُ
فَأَجَبْنَاه ضَاحِكِين
كلاَّ .. لاَ .. لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ ذَلِك
وَبَدَا لَنَا أَنَّهم يَطْرُقُون البَابَ
فَقُلْنَا في نُفُوسنَا
لاَ يُمْكِن أَنْ يَكُون سِوَى الرِّيح
وأطْفَأْنا المَصَابِيحَ
وَخَلَدْنَا إلى النَّوْم
وَاحِدٌ فَقَطْ قال :
إِنَّهُ الرَّسُولُ .
فَأَجَبْنَاهُ ضَاحِكِين
كَلاَّ .. إنَّها الرِّيح

كَانَت هُنَاكَ جَلَبَةٌ في قَلْبِ اللَّيْلِ
وَفكَّرْنَا ، . نَاعِسِينَ أَنَّه هزيم الرَّعْدِ البَعِيد
وارتَجَفَت الأَرْضُ
واهتَّزت الجُدْرَانُ
فَأَقْلَقَ هذا نَوْمَنَا
وَاحِدٌ فقَط قَالَ :
إِنَّهُ ضَجيجُ العَجَلاَتِ
فَغَمْغَمْنَا نَاعِسِين
كَلاَّ .. إِنَّه هَزيم الرَّعد
كَانَ اللَّيْلُ مَا يَزَالُ حَالِكاً
حِينَ دَقَّ الطَّبْلُ
وَسَمِعْنَا صَوْتاً يَهْتِفُ
استَيْقِظُوا
عَجِّلُوا بِالهُبُوبِ
وَارْتَجَفْنَا مِنَ الخَوْف
وَوَضَعْنَا أَيْدِينَا عَلَى قُلُوبِنَا

وَاحِدٌ مِنَّا فَقَط قَالَ :
انْظُرُوا ، إِنَّهُ عَلَمُ المَلِك
فَنَهَضْنَا صَارِخِين
لِنُسْرِعْ ، لَيْسَ ثَمَّةَ وَقْت نُضِيعُهُ
لَقَدْ جاءَ المَلِك
فَأَيْنَ أَكَالِيلُ الزُّهُورِ
وَأَيْنَ العَرْشُ الذِي يَجْلِسُ عَلَيْه ؟
آه يَا للعَارِ ، يَا للفَضِيحَةِ الكُبْرَى !
أَيْنَ القَاعَة ، وأَيْنَ الزِّينَات ؟
وَاحِدٌ فَقَطْ قَال :
عَبَثًا صُرَاخكم
فاستَقْبلُوه بِأَيْدٍ فَارِغَةٍ
وَقُودُوه إِلَى القَاعَاتِ العَارِيَة
فَلْتَفْتَحُوا الأَبْوَابَ
وَلْتَنفخوا الأَبْوَاقَ
لَقَد جَاءَ المِلك

فِي قَلْبِ اللَّيْلِ
إلى بَيْتِنا المُظْلِم الكَئِيبِ
هَزِيمُ الرَّعْدِ يُزَمْجِرُ في السَّمَاء
والظُّلْمَة يُرْجِفُهَا لَمَعَانُ البَرْقُ
فاحْمِلِ حَصِيرَكَ البَالِي
واطْرَحْهُ في بَاحَة البَيْتِ
فَقَد جَاءَ مَلِكُنَا فَجْأَةً مع العَاصِفَة
فِي أَعْمَاق اللَّيْل الرَّهِيبِ .

52

فَكَّرْتُ في أَنْ أَستَهْدِيك عِقْدَ الوَرْدِ
الذِّي تُطَوِّقُ بِهِ عُنُقَكَ

ولكِنِّي لَم أَجِد الجُرْأَةَ
وَهكَذَا انتَظَرْتَ سَاعَةَ رَحيلِك في الصَّبَاح
لِكي أُفتِّشَ عن أَثَرٍ مِنْهُ فِي سَرِيرِكَ
وكُنْتُ كالمُتَسَوِّلَةِ التي تَبْحث عِنْدَ الفَجْرِ
عنْ بَقَايَا زَهْرَةٍ ذابِلَةٍ
آَوَّاه .. مَا هَذَا الذِّي وَجَدْتُ ؟
أَي عَهْدٍ تَرَكَتْهُ لِي ذِكْرَى حبُّك ؟
لَيْسَ زَهْراً ولاَ قَارُورَة عِطْرٍ
ولا أيَّ نوْعٍ من أَنْوَاعِ الطِّيبِ
وَلَكِنَّهُ سَيْفُك البَتَّار
يَبْرُقُ كاللَّهِيبِ
رَهِيب كالصَّاعِقَة
إن ضَوْءَ النَّهَار
يَتَسَلَّلُ عَبْرَ النَّافِذَة
وَيَنْتَشِرُ فَوْقَ السَّرِير
وعصفورُ الصَّبَاح يُغَرِّدُ وَيَسْأَلُ

أَيّتُها المرأَةُ مَاذا وَجَدْتِ؟
لَيْسَ ما وَجَدْتُهُ زَهْرا
ولا قَارورَةَ طِيبٍ ولا عِطْرا
إنَّه سَيْفُك البَتَّار
وَجَلَسْتُ مُضْطَرِبَة أُفكِّرُ
أَيَّةُ هَدِيَّةٍ هَذِه؟
لاَ أَدْري أَيْنَ أُخبِّئُهَا
وإِنِّي لأَخْجَلُ مِن حَمْلِها
فَفي رَهَافَتِي هَذِه أَخْشَى
أَنْ تَجْرَحَني حِينَ أَضُمُّهَا إلى صَدْرِي
سأَحْمِلُ في قَلْبِي هَذِه الهَدِيَّةَ
كَأَنَّهَا الحِمْلُ المُؤْلِمُ الثَّقِيل
مِنَ الآنَ فَصَاعِداً
لَنْ يُخِيفَنِي أَيُّ شَيءٍ في هَذَا العَالِم
وَسأَكُون ظَافِرَةً في كُلِّ المَعَارِكِ
لَقَد تَرَكْتَ المَوْتَ لِي رَفِيقاً

وَسَأَتَوَجَّه بِحَيَاتِي
وَسَيْفُكَ مَعِي
لِكَي أَقْطَعَ بِهِ كُلَّ القُيُودِ
وَمُنْذُ الآنَ ، سَأَعْزِفُ
عنِ الزِّينَات البَاطِلَة
يَا سيِّدَ قلْبِي
لَنْ تكُونَ بَعْدَ اليَّوْمِ
سَاعَاتٌ للانتِظَارِ والبُكَاءِ
في الزَّوَايَا
ولا الوَجَلُ في سُلُوكي
ولا زِينَات الدُّمْيَةِ
سَتَكُونُ لِي بَعْدَ اليَوْمِ ..

53

جَمِيلٌ هُو سِوَارِك المُزَيَّنُ بالنُّجُومِ
سِوَارُكَ الذي عَمِلَت الأَيدِي المَاهِرَة
علَى تَرْصِيعِهِ بالجَوَاهِرِ المُخْتَلِفَةِ الأَلْوَان
وَأَجْمَلُ مِنْهُ سَيْفُكَ
بِحَدِّهِ المَعْقُوفِ البَرَّاق
كَأَنَّهُ طَائِرُ الإِلَهِ فِيشْنُو المُقَدَّس
وقَد بَسَط جَنَاحَيْه
وَأَخَذَ يُحَلِّقُ بِبَرَاعَةٍ
فِي أَضْوَاء الغُرُوب الوَرْدِيَّة
إنَّه يَخْفُقُ

كآخرِ نَبَضَات الحَيَاةِ
في ذُهُولِهَا المُؤْلِم
حِينَ تَتَوَالَى عَلَيْهَا ضَرَبَاتُ المَوْتِ القُصْوَى
إنَّه يَلْمَعُ

مِثْلَ اللَّهَبِ الصَّافِي الذي يَلْتَهِمُ بِسَعِيرِهِ المتَّقِدِ
أَحَاسِيسَنَا الأَرْضِيَّةَ .
جَمِيلٌ هُو سِوَارُك المُرَصَّع بالجَواهِرِ النَّجْمِيَّة الشَّكْلِ
وَلَكِنَّ سَيْفَكَ
يا سَيِّد الرَّعْدِ
قدْ صِيغَ من جَمَالٍ سَامٍ
يُرْهِبُ الفِكْرَ والنَّظَرَ..

54

لَمْ أَطْلُبْ مِنْكَ شَيْئاً
وَلَمْ أَهْمِس باسْمِي في أُذُنَيْكِ
وحين أَستأْذَنْتَ في الرَّحِيل
لَبِثْتُ سَاكِنَةً
كُنْتُ وَحِيدَةً قُرْبَ البِئْر

حَيْثُ ظِلالُ الأَشجَارِ تَتَساقَطُ مَائِلَة
وقد عادت النِّساء إلى بُيُوتِهَا
بَعْدَ أَنْ مَلأْنَ جِرَارَهُنَّ حتَّى الحَافَّة
وقد هَتَفْنَ بِي وَنَادَيْنَني
تَعالَيْ ، لَقَد انْتَهَى الصَّبَاحُ
وَحانَت الظَّهِيرَةُ
ولكِنِّي كُنْتُ أَتَبَاطَأ في فُتُورٍ
ضَائِعَة في خَيَالاتٍ غَامِضَةٍ
وَحِين جِئْتَ لَمْ أَسْمَعْ وَقْعَ خُطُوَاتِك
كَانت عَيْنَاك حَزِينَتَيْنِ .
حِين وَقَعَتَا عَلَيَّ
وَكَانَ صَوْتُك مُتْعَباً مُرْهَقاً
حِين هَمَسْتَ إِلَيَّ قَائِلاً :
إِنَّنِي عَابِرٌ ظَامِىء .
وانْتَبَهْتُ مِن أَحْلاَمَ يَقْظَتِي
وَسَكَبْتُ مِن جَرَّتِي

مَاءً عَلَى رَاحَتَيْكَ
وَكَانَت الأَوْرَاقُ فَوْقَنَا تَرْتَعِشُ
وَطَائِرِ الكوكُولُو يُغَنِّي
وَمن مُنْعَطَفِ الطَّرِيق
كَانَ يَهُبُّ عَلَيْنَا شَذَى زُهُور البَابْلاَ
وَحِينَ سَأَلْتَنِي عَنْ اسْمِي
لَبِثْتُ صَامِتَةً خَجْلَى
مَا الذِّي فَعَلْتُهُ
حَتَّى أستَحِقُّ تَذَكُّرَكَ لِي
ولكنَّ فِكْرَة أنَّني قَدَّمْتُ إِلَيْكَ مَاءً
لأُطْفِيءَ ظَمَأَكَ
سَتَظَلُّ في قَلْبِي وتَمْلأُهُ عُذُوبَةً
لَقَد وَلَّى الصَّبَاحُ
وفَوْقَ رَأْسِي
تَرْتَعِشُ أَوْرَاقُ النِّيـم
وأَنَا أَجْلِسُ تَحْتَهَا

أُفَكِّرُ ثُمَّ أُفَكِّرُ..

(55)

قَلْبُكَ عَامِرٌ بالغُصَصِ
وَعَيْنَاكَ يُجَاذِبُهما النُّعَاسُ
أَلَمْ يَبْلُغُكَ نَبَأُ الزَّهْرَة
التِّي تُزْهَى بِرَوْعَةِ حُكْمِهَا بَيْنَ الأَشْوَاكِ؟
اسْتَيْقِظ ، اسْتَيْقِظ
وَلاَ تَدَع الوَقْتَ يَمْضِي عَبَثاً
وفي نِهَايَةِ الطَّرِيقِ الصَّخْرِي
فِي بَلَدِ الوِحْدَةِ العَذْرَاءِ
يَجْلِسُ صَدِيقِي وَحْدَهُ
فَلاَ تُخَيِّب أَمَلَهُ

واسْتَيْقِظْ ، اسْتَيْقِظْ
مَا أَهَمِّيَّةَ أَنْ يَرْتَجِفَ الفَضَاءُ أَوْ يَرْتَعِش
فِي رَمْضَاء الظَّهِيرَةِ ؟
مَا أَهَمِّيَّةُ أَنَّ الرِّمَال المُتَّقِدَةَ
تَبْسُطُ سِرَبَال الظَّمأ ؟
أَلاَ تُوجَدُ بَهْجَةٌ فِي أَعْمَاقِ قَلْبِكَ
أَلاِ تَعْزِفُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ من خُطُوَاتِكَ
قِيثَارَةُ الطَّرِيقِ
مُوسِيقَى الأَلَم العَذْبَة ..

56

مِنْ أَجْلِ هَذا بَلَغَتْ بَهْجَتُكَ
قِمَّتَهَا فِي نفْسِي
وَمِن أَجْلِ هَذَا نَزَلْتَ فِي قَلْبِي

يَا إِله السَّماوات
أَينَ يكُون حبُّكَ
إذا لَم أَكُن أنَا مَوْجُودَةً ؟
لَقَد قَسَّمْتَ معي كُلَّ هَذِهِ الثَّرْوَة
وفِي قَلْبِي تَجْرِي اللُّعْبَةُ اللا نِهَائِيَّة
لِغِبْطَتِكَ
وفِي حَيَاتِي تَتَجَدَّدُ
إِرَادَتُكَ على الدَّوَام
ومن أَجْلِ هَذا ، يَا مَلِكَ المُلُوك
تَزَيَّنْتَ بِالجَمَال
لإغْرَاءِ قَلْبِي
وَمِنْ أَجْلِ هَذا يَضِيعُ حُبُّكَ
في حُبِّ عَشِيقَتِكَ
وهُنَاكَ تَبْدُو
فِي التَّوحُّدِ التَّام بَيْنَ مَخْلُوقَيْنِ ..

57

أَيُّهَا النُّورُ ، يَا نُورِي
أَيُّهَا النُّورُ الذِّي يَمْلأُ الكَوْنَ
أَيُّهَا النُّورُ الذي يُقَبِّلُ العُيُونَ
أَيُّهَا النُّورُ الذي يُلَطِّفُ القُلُوبَ
إِنَّ النُّورَ يا حَبِيبِي يَرْقُصُ
فِي مَرْكَزِ حَيَاتِي
والنُّورُ يَعْزِفُ يَا حَبِيبِي فَوْقَ أَوْتَارِ حُبِّي
وَتَنْفَتِحُ السَّمَاوَاتُ
وَتَهُبُّ الرِّيح بوَحْشِيَّةٍ.
وَضَحْكَةٌ مُدَوِيَّةٌ تَعْبُرُ الأَرْضَ
إن الفَرَاشَاتِ تَنْشُرُ أَشْرِعَتَهَا
عَلَى بَحْرِ النُّورِ
وأزهَارُ الفُلِّ واليَاسَمِينُ ترْفَعْ رؤُوسَهَا
عَلَى تَمَوُّجَاتِ النُّور

والنُّورُ يَنْكَسِرُ في أَشِعَّةٍ ذَهَبِيَّةٍ
فَوْقَ كُلِّ غَيْمَةٍ .
يَا حَبِيبِي
وَيَنْثُرُ الجَوَاهِرَ المُعَطَّرَةَ .
وَمِنْ وَرَقَةٍ إِلَى أُخْرَى
يَا حَبِيبِي
تَنْسَابُ بَهْجَةٌ وَسَعَادَةٌ لاَ حَدَّ لَهَا
إِنَّ نَهْرَ السَّمَاءِ فَاضَ
وغَمَرَ الكَوْنَ بالبَهْجَةِ ..

(58)

كُلُّ أَبْيَاتِي المُعَبِّرَة عَن البَهْجَة
تَمْتَزِجُ بِآخِرِ أُغْنِيَاتِي .
تِلْكَ البَهْجَةَ التِّي تَجْعَلُ الأَرْضَ تَفِيضُ

فِي نَضَارَةِ العُشْبِ العَارِمَة .
تِلْكَ البَهْجَةُ التِي تَجْعَلُ التَّوْأَمَيْنِ
الحَيَاةَ والمَوْتَ
يَرْقُصَانِ عَبْرَ العَالَمِ .
البَهْجَةُ التِّي تَنْبَثِقُ كالإِعْصَارِ
تَهُزُّ وتُوقِظُ بابتِسَامَتِهَا
كُلَّ الحَيَاةِ
البَهْجَةُ التِّي تَجْلِسُ صامِتَةً باكِيَةً
على زَهْرَة اللُوتَس
البَهْجَةُ التِي تُلْقِي إلى التُّرابِ
كُلَّ مَا تَمْلِكُ
وَلاَ تَعْرِفُ الكَلِمَاتِ ..

(59)

أَجَلْ، إِنِّي لَأَعْرِفُ

أنَّهُ لَيْسَ سِوَى حُبِّكَ
ذَلِكَ النُّورُ الذَّهَبِيُّ الذي يَتَرَاقَصُ فَوْقَ الوَرَقِ
وتِلْكَ السُّحُبُ الكَسْلَى التي تُبْحِرُ في السَّمَاءِ
وَهَذا النَّسِيمُ الذي يَخْطُرُ
فَيَتْرُكُ طَرَاوَتَه عَلَى جَبِيني
إنَّ نورَ الصَّباحِ قَدْ غَمَرَ عُيُوني
وَتِلْكَ هِيَ رِسَالَتُك إلى قَلْبِي
وَإنِّي لأَخْفِضُ وَجْهِي
فَأَرى عَيْنَيْكَ تُحَدِّقَانِ فِي عَيْنَيَّ
وَقَلْبِي قَدْ لَمَسَ قَدَمَيْكَ ...

60

الأَطْفَالُ يَلْتَقُونَ
عَلَى شَاطِيءِ الدُّنَى غَيْرِ المُتَنَاهِيَةِ
السَّمَاء اللاَّنِهَائِيَّةُ

والمِيَاهُ تتمَاوَجُ.
وفِي رَقْصٍ وهُتَافٍ
يَلْتَقِي الأَطْفَال عَلَى شَاطِىءِ الدُّنَى غَيْرِ المُتَنَاهِيَةِ
يُشَيِّدُونَ قُصُوراً مِن الرِّمَالِ
وَيَعْبَثُونَ بالأَصْدَافِ البَحْرِيَّةِ الفَارِغَةِ
وَيَصْنَعُونَ قَوَارِبَ من الوَرَقِ الجَافِّ
ويَضْحَكُون حِين يُعَوِّمُونَهَا عَبْرَ الامتِدَادِ غَيْرَ المُتناهِي
للبَحْرِ.
إنَّهم يَمْرَحُونَ على شَاطِىء الدُّنَى غير المتناهية
لا يَعْرِفُونَ السِّبَاحَةَ
ولاَ يُتْقِنُونَ إِلْقَاءَ الشِّبَاكِ.
وَيَغُوصُ الصَيَّادُون في البَحْرِ
يَسْتَخْرِجُونَ اللألِىء من الأَعْمَاقِ
وَفَوْقَ السُّفنِ يَرْحَلُ التُجَّارُ
بَيْنَمَا الأَطْفَالُ يَجْمَعُونَ الحَصَى ثُمَّ يُلْقُونَهُ
لاَ يَبْحَثُونَ عن كُنُوزٍ دَفِينَةٍ

وَلاَ يَعْرِفُونَ كَيْفَ تُلْقَى الشِّبَاك.
وَيَتَمَوَّجُ البَحْرُ بالابتِسَامِ
ويتَرَدَّدُ بعُذُوبَة على الشَّاطِىء
صَدَى الأَمْوَاجِ التِي تَحْمِلُ المَوْتَ
وَتُغَنِّي للأَطْفَالِ تَرَانِيمَ لاَ مَعْنَى لَهَا
كَمَا تَفْعَلُ الأُمُّ حين تُهَدْهِدُ طِفْلَهَا
والبحْرُ يَلْهُو مَعَ الأَطْفَالِ
ويُرَدِّدُ البحرُ الصَّدَى ..
وَيَلْتَقِي الأَطْفَالُ عَلَى شَاطِىءِ الدُّنَى غيْـر المُتَنَاهِيَةِ
وتَجُوبُ العاصِفَةُ دُرُوب السَّمَاوَاتِ المُخْتَلِفَةِ
وَتَغْرَقُ السُّفُنُ في دُرُوبِ المِيَاهِ المُتَنَوِّعَةِ
وَيَطُوفُ المَوْتُ ، وَيَلْهُو الأطْفَالُ .
هُنَاكَ حَشْدٌ غَفِيرٌ من الأَطْفَالِ
على شَاطِىء الدُّنَى غَيْرِ المُتَنَاهِيَةِ

لاَ أَحَدٌ يَدْرِي مِنْ أَيْنَ قَد وَافَى
هَذا النُّعَاسُ الذِّي يُرَفْرِفُ عَلَى عُيُونِ الأَطْفَالِ
أَجَلْ، يَقُولُون إنَّه يَسْكُن هُنَاكَ
فِي القَرْيَةِ السِّحْرِيَّةِ
حَيْثُ تَتَدَلَّى بَيْنَ ظِلاَلِ الغَابَةِ الكَثِيفَةِ
التِّي تُضِيئُهَا الحُبَاحِبُ إِضَاءَةً خَافِتَةً
زَهْرَتَان حَيِيَّتَانِ.
مِن هُنَاكَ كَانَ يُقْبِلُ النُّعَاسُ الذِّي يُقَبِّلُ
حُلُمَ الأَطْفَال
لاَ أَحَدٌ يَدْرِي أيْنَ تُولَدُ الإِبْتِسَامَةُ
التِّي تَتَرَقْرَقُ عَلى شفَاهِ الأَطْفَال النَّائِمِين؟
أَجَل، يُقَال إِنَّ شُعَاعاً فَتِيًّا شَاحِباً من الهِلاَلِ
قد مسَّ أَطْرَافَ سَحَابَة خريفِيَّةٍ رَقِيقَة
وهكذا، فِي أَحَد أَحْلاَم الصَّبَاحِ النَّدِي

وُلِدَت للمرَّة الأُولَى الابْتِسَامَة التي تَتمَاوَجُ
عَلَى شفَاه الأَطْفَالِ النَّائِمِين .
لاَ أَحَدٌ يَدْرِي أَيْنَ كَانَتْ تَخْتَبِىءُ
مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ تِلْكَ الطَّرَاوَةُ العَذْبَةُ اللَّطيفَةُ
التي تَزْدَهِرُ فَوْقَ أَطْرَاف الأَطْفَالِ ؟
أَجَلْ ، حينَ كَانَت الأُمُّ مَا تَزَالُ شَابَّةً صَغِيرَةً
كَانَت تَحْمِلُهَا في قَلْبِهَا العَامِرِ
بِأَسْرَارِ الحُبِّ الرَّقِيقَةِ الصَّامِتَةِ
هُنَاكَ تَفَتَّحَت تِلْكَ الطَّرَاوَةُ العَذْبَةُ اللَّطِيفَةُ
التِّي تُزْهِرُ فَوْقَ أَطْرَافِ الأَطْفَالِ ..

62

حِينَ أَحْمِلُ إِلَيْكَ دُمًى مُتَعَدِّدَةُ الأَلْوَان
يَا طِفْلِيَ الحَبيب

أَفْهَمُ لِمَاذَا تَعَدَّدت أَلْوَانُ الغُيُومِ والمِيَاهِ.
ولماذا وُشِّيَت الأَزْهَارُ بِأَلْوَان زَاهِيَةٍ
حِينَ أُهْدِي إِلَيْكَ دُمًى مُتَعَدِّدَةِ الأَلْوَانِ
وَحِينَ أُغَنِّي لِأُرَقِّصَكَ
يَا طِفْلِي
أَفْهَمُ لِمَاذَا كانت موسيقَى الأَوْرَاقِ
ولِمَاذَا تُرْسِلُ الأَمْوَاجُ أَصْوَاتَها المُؤْتَلِفَةَ.
إِلَى قَلْبِ الأَرْضِ التي تُصْغِي
حِينَ أُغَنِّي لِأُرَقِّصَكَ.
وَحِينَ أُقَدِّمُ الحَلْوَى إلى يَدَيْكَ
يَا طِفْلِي
أَفْهَمُ لماذَا يُوجَدُ العسَلُ فِي كَأْسِ الزَّهْرَةِ
وَلِمَاذَا تَمْتَلِئُ كُلُّ الفَوَاكِهِ سِرًّا
بِعَصِيرِهَا المُحَبَّبِ
حِينَ أَمْلَأُ يَدَيْكَ بالحَلْوَى
وَحِينَ أُقَبِّلُكَ لِكَي تَبْتَسِمَ

يَا حَبِيبِي
أَفْهَم سِرِّ البَهْجَةِ التي تَنْتَشِرُ من السَّمَاءِ
عند أَضْواء الصَّبَاح البَاكِرِ
وأفْهَمُ مَعْنَى ملاطَفَة رِيَاح الصَّيْف
لِجَسَدِي
حين أُقَبِّلُك لِكي تَرْقُصَ..

63

لقد عرَّفْتَني بأصدِقَاء
لم أَكُنْ أَعْرِفُهُم
وأَجْلَسْتَني في مَنَازِل
لَيْسَتْ مَنَازِلي
وَقَرَّبْتَ لي البَعِيدَ
وجعَلْت من الغَريب

أَخاً لي .
وفي أَعْمَاقِ قَلْبِي أَشْعُرُ بالضِّيقِ
حينَ أتَخَلَّى عَن مَلاَذِي المأْلُوفِ
وَأَنْسَى أن المأْوَى القَدِيمَ هُوَ في الجَدِيدِ
حَيْثُ تُقِيمُ أَنْتَ نَفْسُكَ
عَبْرَ المِيلاَدِ والمَوْتِ
في هَذَا العَالَمِ أَوْ غَيْرِهِ
وفي أيِّ مَكَانٍ تَقُودُني إليه
فَإِنَّكَ وَحْدَكَ رَفِيقُ حَيَاتي التي لاَ حَدَّ لَهَا
تُوَحِّدُ بِرَوَابِطِ البَهْجَةِ
بَيْنَ قَلْبِي
وبين الأشياء غَيْرَ المأْلُوفَةِ .
حِين يَعْرِفُكِ المَرْءُ
فَلاَ أَحَدَ يَبْدُو له غَرِيباً
ولا بَابَ يُغْلَقُ في وَجْهِهِ
آه

اسْتَجِبْ دُعَائي
في أَنْ لا أَفْقِدَ مُلاَطَفَةَ (الوَاحد) في لُعْبَةِ الجميعِ

64

عَلى ضَفَّةِ النَّهْرِ الكَئِيبِ
وَبَيْنِ الأَعْشَاب الطَّوِيلَةِ
سَأَلْتُهَا
إلى أَيْنَ تَذْهَبِين أَيَّتُهَا الصَّبِيَّة
وقد وَقِيت شُعْلَةَ مِصْبَاحِكَ
بِرِدَائِكَ
إنَّ بَيْتِي لَمُظْلِمٌ وَحِيدٌ
هلاَّ أعرْتيني نُورَكِ؟
فَرَفَعَت عَيْنيهَا العسلِيَتيْنِ
وَحَدَّقَت في وجْهِي

عَلَى أَضْوَاءِ الغُرُوبِ الحَائِرَةِ
وقالت
لَقَدْ جِئْتُ إلى النَّهْرِ
لِكَي أُعَوِّمَ مِصْبَاحِي فَوْقَ التَّيَّارِ
حِينَ كَانَتْ أضْواء الغُرُوبِ
تَتَلاَشَى عِنْدَ الأُفُقِ الغَرْبِي
فَلَبِثْتُ وَحْدِي بَيْنَ الأَعْشَاب العَالِيَة
أَرْقُبُ لَهَبَ مِصْبَاحَهَا الخَجُول
الذي كانَ يَعُومُ بِمَشَقَّة فَوْقَ التَّيَّارِ
وفي ظَلاَم اللَّيْلِ
سَأَلْتُهَا
أَيَّتُهَا الصَّبِيَّة، إن أنْوَارَكِ كُلَّهَا مُضِيئَةٌ
فَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبِينَ بِمِصْبَاحِكِ
إن بَيْتي لَمُظْلِمٌ وَحِيدٌ
هَلاَ أعرتِينِي نُورَكِ
رَفَعَت عَيْنَيْهَا العَسَلِيَتَيْنِ

فِي وَجْهِي وتَطَلَّعَت إليَّ
وظلَّتْ بُرْهَةً مُرْتَابَةً
ثُمَّ قالت :
لَقَدْ جِئْتُ لِكَي أُقَدِّمَ مِصْبَاحي
للسَّمَاءِ
وَلَبِثْتُ أَنْظُرُ ضَوْءَهَا
يَتَبَدَّدُ عَبَثاً في الفَرَاغِ
وفي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ
في الظُّلْمَةِ التِّي غَابَ عَنْهَا القَمَرَ
سَأَلْتُهَا
أَيَّتُهَا الصَّبيَّة عَمَّ
تَبْحَثِين وأَنْتِ تَضُمِّينَ
مِصْبَاحَكِ إلى قَلْبِكِ ؟
إنَّ بَيْتِي لَمُظْلِمٌ مُقْفِرٌ
هَلاَّ أعرتيني مِصْبَاحَك
وتَوَقَّفَت لَحْظَةً

تُفكِّر
وَتُحَدِّقُ في وَجْهِي في الظَّلاَمِ
وأَجابَت
لَقَدْ حَمِلْتُ مِصْبَاحي
لِكَي أنْضَمَّ بِهِ إلى عِيد المَصَابِيحِ
وَلَبِثْتُ أَتَأَمَّلُ مِصْبَاحَها
الصَّغيرَ
يَضِيعُ عَبَثاً بينَ الأَضْوَاءِ

65

أيَّ شَرَابٍ مُقَدَّسٍ
أَرَدْتَهُ يَا إلَهِي
مِن هَذِهِ الكَأْس الطَّافِحَةِ

كَأْسِ حَيَاتِي.
يَا شَاعِرِي
أَمِنْ أَمْجَادِكِ وجَلاَلِكِ
أنْ تَنْظُرَ إِبْداعِك بِعَيْنَيَّ
وَأَنْ تُصْغِي إلى انْسِجَامِك الخَالِدِ
بِأُذُنَيَّ ؟
إن عَالَمَك يَنْسُجُ كَلِمَاتٍ في فِكْرِي
وَبَهْجَتَكَ تُسْبِغُ عَلَيْهَا الأَنْغَامَ
لَقَد وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِي
بِحُبٍّ كَامِلٍ
وإنَّك لَتُحِسُّ فِي ذَاتِي بِكُلِّ عُذُوبَتِكَ..

66

هِيَ التِي ظَلَّتْ علَى الدَّوَامِ
فِي أَعْمَاقِ وُجُودِي

فِي فَجْرِ الأَضْوَاءِ والرُّؤَى
هي التِّي لَم تَفْتَحْ أَبَداً أَجْنِحَتَهَا
لأَضْوَاءِ الصَّبَاحِ
سَتَكُون آخِرَ هَدِيَّةٍ أُقَدِّمُهَا إِلَيْكَ
يَا إِلَهِي
مُتَّشِحَةً بِنَشِيدِي الأَخِيرِ
لَقَدْ غَازَلَتْهَا الكَلِمَاتُ
ولكِنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ كيف تستحْوِذُ عَلَيْها
وعَبَثاً حَاوَلَ الإِغْرَاءُ
أن يَمُدَّ إليها يَدَهُ المُشْتَهِيَةَ.
لقد طُفْتُ من بَلَدٍ إلى آخَرِ
مُحْتَفِظاً بِهَا في أَعْمَاقِ قَلْبِي
وَحَوْلَهَا
نَهَضَت وسَقَطَت أَحْدَاثُ حَيَاتِي.
في أَفْكَارِي ، وفي أَعْمَالِي
وفي نَوْمِي وأَحْلاَمِي

كَانت تُهَيْمِنُ
أو كَانَت تُقِيمُ مُنْتَبِذَةً وَحِيدَةً
لقد طَرَق كَثِيرٌ من الرِّجَالِ بَابِي
لِيَطْلُبُوا يَدَهَا
وَعَادُوا يَائِسِين.
وَلَمْ يَرَهَا أَحَدٌ مِن النَّاسِ أَبَداً
وَجْهًا لِوَجْهٍ
وَظَلَّت عَلَى وَحْدَتِهَا
في انتِظار اعتِرَافِكَ..

67

أَيَّتُهَا الجَمِيلَة
أَنْتِ السَّمَاءُ
وَأَنْتِ المَهْدُ

وفي ذَلِكَ المَهْدَ يَكْمُنُ حُبُّكِ الذي يَأْسِرُ النَّفْس
بِأَلْوَانِهِ وأَنْغَامِهِ وَرَوَائِحِه
هَا هو الصَّبَاحُ يُقْبِلُ
مَاسِكاً بَيَدِهِ سَلَّتَهُ الذَهَبِيَّةَ
حَامِلاً تَاجَ الجَمَالِ
يتوِّجُ بِهِ الأَرْض فِي صَمْتٍ
وَهَا هُو المَسَاءُ يُقْبِلُ
فَوْقَ المُرُوجِ المُنْفَرِدَةِ
بَعْدَمَا هَجَرَتْهَا القُطْعَانُ
عَبَرَ دُرُوبٍ غَيْرَ مَطْرُوقَةٍ
يَحْمِلُ جُرْعَاتٍ مُنْعِشَةً من السَّلاَمِ
فِي جَرَّتِهِ الذَّهَبِيَّة
اغْتَرَفَها مِن خِضَمِّ الرَّاحَةِ الغَرْبِي
ولكن هُنَاكَ
حَيْثُ تَنْفَسِحُ السَّمَاءُ بِلاَ حُدُود
لِتُحَلِّقَ فِيهَا الرُّوحُ

تُهَيْمِنُ الرَّوْعَةُ البَيْضَاءُ الطَّاهِرَة
هُنَاكَ
لَيْسَ ثَمَّةَ نَهَارٌ ولاَ لَيْلٌ
وَلاَ شَكْلٌ ولاَ لَوْنٌ
ولاَ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ

68

يَنْزِلُ شُعَاعُكَ على أَرْضِي
بِأَذْرُعٍ مَفْتُوحَةٍ
وَيَقِفُ عِنْدَ بَابِي
طِوَالَ النَّهَارِ
لِيَحْمِلَ إلى قَدَمَيْكِ
غُيُومًا صِيغَت مِن الدُّمُوع
والتَّنَهُّدَاتِ والأَغَانِي .
وَبَهْجَةٌ مُتَّقِدَةٌ

تَبْسُطُ عَلى صَدْرِكَ المُرَصَّعِ بالنُّجُومِ
هذا الرِّدَاء من الغُيوم الممطِرَة
فَتَنْشُرهُ وَتَطْوِيهِ
فِي أَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ
وتلونه عَلَى الدَّوَامِ بِأَلْوَانٍ مُتَغَيِّرَة
إِنَّه لَخَفِيفٌ وَوَاهٍ
وَرَفِيقٌ وحَزِينٌ وَقَاتِمٌ
ومِن أَجْلِ ذَلِك تُحِبُّهُ
أَيُّهَا الطَّاهِرُ الهَادِي
ولِهَذَا يُمْكِنُهُ أن يَحْجُبَ نُورَكَ
السَّاطِعَ الرَّهِيبَ
بِظِلاَلِه الحَزِينَةِ . . .

69

إنَّ تَيَّارَ الحَيَاةِ الذي يَجْرِي في عُرُوقِي

لَيْلاً ونَهَارًا
وَيَرْقُصُ عَلَى إيقاعٍ موزُونٍ
هُو الحَيَاةُ نَفسُها
التِّي تُنْبِتُ فَرحَتَها
فَوْقَ أَديم الأَرْضِ
وَتَنْسَابُ خَلاَلَ عِيدَانِ الأَعْشَاب العَدِيدَة
وَتَنْفَجِرُ أَمْوَاجًا صاخِبَةً
من الأَوْرَاقِ والزُّهُورِ
وهو الحَيَاةِ نفسُها
يُهَدْهِدُهَا المَدُّ والجَزْرُ
في مَهْدِ الخِضَمِّ الزَّاخِرِ
بالميلاَدِ والمَوْتِ
لقد تَمَجَّدت أَعْضَائي
بِرَوْعَةِ مُلاَمَسَةِ هَذَا الكَوْنِ العَامِرِ بِالحَيَاةِ
وإن فَخْري لَيَتَوَلَّدُ مِن شُعُورِ الخُلُودِ
الذي يَرْقُص فِي دَمي ، في هَذِهِ اللَّحْظَةِ ..

أَلَيْسَ فِي وُسْعِكَ
أَنْ تكُونَ سَعِيداً
بِسَعَادَةِ هَذا الإيقاع
بِأَنْ تَقْذِفَ نَفْسَكَ
وَتَضِيعَ وتَتَشَتَّتَ
في هَاوِيَة هَذِه البَهْجَةِ الرَّهِيبَةِ ؟
كُلُّ الأشْيَاءَ تَتَقَدَّمُ في انْدِفَاع هَادِرٍ
لاَ تَتَوَقَّفُ
لاَ تَلْتَفِتُ إلى الوَرَاءِ
ولاَ قُوَّة تستَطِيعُ أنْ تُمْسِكَ بِهَا
إِنَّهَا تَجْرِي إلى الأَمَامِ في انْدِفَاعٍ هَادِرٍ
مُتَّبِعَةً
هذا الإِيقَاع السَّرِيع

لِهَذِهِ المُوسِيقَى التِّي لاَ تَعْرِفُ التَّوَقُّفَ.
الفُصُولُ تُقْبِلُ رَاقِصَةً
ثُمَّ تَذْهَبُ
والأَلْوَانُ والأَنْغَامُ والأَرِيجُ
تَتَدَفَّقُ كُلُّهَا فِي شَلاَّلاَتٍ لاَ حَدَّ لَهَا
لِتَصُبَّ فِي مَصَبِّ الفَرْحَةِ الطَّافِحَةِ
التِي تَنْتَشِرُ وتَنْقَطِعُ وتَمُوتُ كُلَّ لَحْظَةٍ

71

أنْ أَمْشِيَ مُخْتَالاً
مَزْهُوّاً بِنَفْسِي
مُسْتَعْرِضاً كُلَّ الجِهَات
مُلْقِياً على سَنَاك البَاهِرِ
ظِلاَلاً مُلَوَّنَةً

فَتِلْكَ هِيَ (مايَاكَ) .
إِنَّكَ لَتَشِيدُ حَاجِزاً فِي كِيَانِكِ نَفْسِهِ
ثُمَّ تُنَادِي
بآلاَفِ الأَنْغَامِ
(الأَنَا) التي انْفَصَلَت عَنْكَ
وتَجَسَّدَت فِي كِيَانِي
ويَتَعَالَى فِي السَّمَاءِ
صَدَى أُغْنِيَةٍ حَزِينَةٍ
تَنْسَكِبُ بِدُمُوعٍ مُتَعَدِّدَةِ الأَلْوَان
مُعَبِّرَةً عن الابتِسَامَاتِ والمَخَاوِفِ والآمَال
وتَعْلُو الأَمْوَاجُ ثُمَّ تَهْبِطُ
وَتَتَأَلَّفُ الأَحْلاَمُ ثُمَّ تَتَبَدَّدُ
وفِي نَفْسِي تَتَحَقَّقُ هَزِيمَةُ كِيَانِكَ الذي فِي كِيَانِي
إنَّ السِّتَارَ الذي أَقَمْتَهُ
قَد زَيَّنَتْهُ رِيشَةُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ
بالصُوَرِ العَدِيدَةِ

وَخَلْقَهُ عَرْشكَ الذِّي صِيغَ بِعَدِيدِ مِن المُلْتَوِيَاتِ الرَّائِعَةِ
طَارِحاً عَنْهُ كُلَّ خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ
إن مَهْرَجَانَنَا العَظِيم
قَدْ عَمَّ أَرْجَاء السَّمَاءِ
والفَضَاءُ كُلُّهُ يَهْتَزُّ لِأَنْغَامِنَا
وَتمْضِي الأَحْقَابُ كُلُّهَا
وَنَحْنُ نَلْعَبُ لُعْبَةَ الظُّهُورِ والاستِخْفَاءِ

72

إِنَّهُ هُو الذِّي يُوقِظُ وُجُودِي
بِملاَطَفَاتِه الخَفِيَّة
وهو الذِّي يبْهرُ بَصَرِي
وَيَعْزِفُ بِغِبْطَةٍ
على أَوْتَارَ قَلْبِي

إِيقَاعَاتٍ مُتَنَوِّعَةً
من الأَفْرَاحِ والأَتْرَاحِ
إنه هُو الذي يَنْسجُ
شَبَكَةَ (مَايَا) بأَلْوَانٍ زَاهِيَةٍ
فِضِيَّةٍ، ذَهبِيَّةٍ
خضْرَاءَ ، زَرْقَاءَ
وَيَسْمَحُ لِي بِأَنْ أَرَى عَبْرَ الأَوْجَاعِ
قَدَمَيْهِ اللَّتَيْنِ أَنْسَى في مُلاَطَفَتِها نَفْسِي
تَأْتِي الأَيَّامُ
وَتَمْضِي العُصُورُ
وهوَ دَوْما الذِّي يُثِيرُ قَلْبِي
وَرَاء أَسْمَاء مُخْتَلِفَةٍ
وتحْتَ أَنْمَاطٍ مخْتَلِفَةٍ
وفي عَدِيدٍ مِن مَظَاهِرِ الانْجِذَاب
وَرَاءَ مَشَاعِرِ البَهْجَةِ والأَلَمِ ...

73

إنّ عِتــقِي

لن يكونَ في التَّخَلّي

وإني لأَحِسُّ بِعِنَاقِ الحُرية

في ألْف رِباطٍ من الفرْحَةِ

فَلْتَسكُتْ لي على الدَّوام

جُرُعَاتٍ نَدِية

من نبيذكَ المُعَطَّرِ

المتَعَدِّد الألْوَانِ

مَالِئاً الكأسَ حتّى الحَافّةِ

إنّ عَــالَمي

سيُوقَدُ لِلَهيبكَ

مِئاتَ المَصَابيح المُنَوعَةِ

وسَيُقَدّمُهَا إلى هيْكَلِ معْبَدِك

كــــلاّ

لَن أُغْلِق أبْوَابَ حَواسِي
فَمَبَاهِجِ السَّمعِ والنَّظرِ
تحمِلُ إليّ فرْحَتَكَ
أَجَلْ إن جَمِيع أوْهَامي
سَتَحْتَرِقُ في وَمْضَةِ فَرَحٍ
وجمِيعُ رَغَباتي
ستتَحوّلُ إلى فَواكِه حُبّ

النَّهَارُ قَدْ وَلَّى

والظِّلاَلُ تَهْبطُ عَلَى الأَرْضِ

لَقد حَانَ الوَقْتُ

لأن أَذْهَبَ

وأَمْلأَ جَرَّتِي من الجَدْوَلِ

وفي جَوِّ المَسَاءِ

تَتَردَّدُ حَزِينَةً

مُوسِيقَى المِيَاهِ

وتَدْعُونِي للخُروجِ في الظَّلاَمِ

وفي الطَّرِيقَ المَهْجورَةِ

لاَ يَعْبُرُ أَحَدٌ

وتَتَصاعَدُ الرِّيحُ

وتَهِيجُ مِيَاهُ النَّهْرِ

لاَ أدري إِذا كُنْتُ سَأَعُودُ إلى بَيْتِي
ولا أَعْرِفُ مَن سَوْفَ أَلاقِي فِي الطَّرِيقِ
وَفَوْقَ زَوْرَقٍ قَرِيبٍ
وقُرْبَ المِيَاهِ الضَّحْلَة
يَعْزِفُ مَجْهُولٌ نَايَهُ

75

إِنَّ العَطَايا التي تَمْنَحهَا لَنَا
نَحْنُ الفَانِين
تَسُدُّ كُلَّ حَاجَاتِنَا
وَمَع ذَلِك ، تَعُود إِلَيْك
دُونَ أن يَعْتَرِيهَا النُّقْصَانُ.
للنَّهر عَمَلُهُ اليَوْمِيّ
وهو يَتَدَفَّقُ نَحْوَ الحُقُولِ والقُرَى
ومَع ذَلِكَ، فَإِن تَيَّارَه الهَادِرَ

بَجْرِي لِكِي يَغْسِلَ قَدَمَيْكَ
والزَّهْرُ يُعَطِّرُ الجَوَّ بِأرِيجِهِ
وَمَع ذَلك، فَإن آخر مَهَامِّه
أن يَهَبُ نَفْسَه إِلَيْك
إن عَبَادَتَك لاَ تُفْقِرُ العَالَم
ومِن كَلِمَات الشَّاعِرِ
يَسْتَخْرِجُ المَرْءُ المَعْنَى الذِي يَرُوُقُ لَهُ
ومَع ذَلِك
فَإنّ أَسْمَى هَذِهِ المَعَانِي
مُوَجَّهٌ إِلَيْكَ . .

76

يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ
يَا سَيِّد حَيَاتِي
سَأَقِفُ أمَامَك

وَجْهَا لِوَجْهٍ

وقَد ضَمَمْتُ ذِرَاعِيَّ فِي خُشُوعٍ

يَا سيِّدَ جَمِيعِ الأَكْوَانِ

سَأَقِفُ أَمَامَك

وَجْهَا لِوَجْهٍ

تَحْتَ السَّمَاءِ

العَظِيمَةِ

وفِي وِحْدَة وصَمْتٍ

وبِقَلْبٍ خَاشِعٍ

سَأَقِفُ أَمَامَك

وَجْهاً لِوَجْهٍ

فِي كَوْنِكَ هَذا الحَافِلِ بالنَّشَاطِ

وفي صَخَبِ العَمَلِ والصِّرَاعِ

وبَيْنَ الجُمُوعِ المُنْدَفِعَة المُسْرِعَةِ

سَأَقِفُ أَمَامَك

وَجْهاً لِوَجْهِ

وحِين يَنْتَهِي عَمَلِي في هَذَا العَالَم

يَا مَلِك المُلُوكِ

وَحْدِي ، صَامِتاً

سأَقِفُ أَمَامَكَ

وَجْهاً لِوَجْهِ . .

(77)

أَعْرِفُكَ رَبّاً لِي

فَأَبْتَعِدُ

وحِين لاَ أَعرفُ أَنَّكَ لِي

أَقْتَرِبُ مِنْكَ

أعْرِفُكَ أباً

فَأَجْثُو عِنْدَ قَدَمَيْكَ

وَلا أَشُدُّ عَلَى يَدِكَ

كَمَا أَشُدُّ عَلَى رَاحَةِ صَدِيقٍ

لَسْتُ أَتَهَيَّأُ لأضُمَّكَ

إِلى صَدْرِي.

حِينَ تَطَأُ أَرْضَنَا

تَهَبُنِي نَفْسَكَ

أَنْتَ الأَخ بَيْن إِخْوَتِي

ولكِنّي لاَ أَنْشَغِلُ بِهِم

ولا أَقْتَسِمُ مَعَهُمْ أَرْبَاحِي

وأُقَاسِمُكَ وَحْدَكَ

كُلَّ مَالِي.

فِي سَاعَةِ اللَّذَّةِ والألَمِ

لا أَقِفُ إلى جَانِب البَشَرِ

ولكِنّي أَقِفُ إلى جَوارِكَ

أَهْرُبُ مِن الزُّهْدِ في حَيَاتِي

فَأَنْجُو مِن الغَوْصِ

في خِضَمِّ الحَيَاةِ الرَّحْبِ . .

(78)

حِينَ كَان خَلْقُ الكَوْنِ جَدِيداً

وكانَت النُّجُومُ تتَأَلَّقُ

بِرُوَائِها البِكْرِ

عَقَدَ الآلِهَةُ اجْتِمَاعاً في السَّمَاءِ

وأنْشَدُوا :

يَا لَمْنَظَرِ الكَمَالِ

ويَا للبَهْجَةِ الفَرِيدَة

لَكِنَّ أَحَدَهُم صَاحَ فجْأَةً

يَبْدُو أَن سِلَسَلَة النُّورِ

قَد انقَطَعَت في مَكَانَ مَا

إِحدَى النُّجُومِ

قَد ضَلَّت طَرِيقَها

فانقَطَعَتْ أَوْتَار مِعْزِفِهم الذَّهبيَّة

وهَتَفُوا مُتَضَايِقين :

لقَد كَانَت النَّجْمَةُ الضَّائِعَةُ

هي أَجْمَلَ النُّجُومِ

وكانت فَخْرَ السَّمَاوَاتِ كُلِّها

ومُنْذُ ذَلِك اليَوْمِ

يَبْحَثُونَ عَنْها

ويُكَرِّرُونَ هَاتِفِينَ :

إن العَالَم فَقَدَ بِفَقْدِها

فَرْحَتَهُ الوَحِيدَةَ .

وَلكِن في صَمْتِ اللَّيْلِ العَمِيقِ

كانت النُّجُومَ تَتَهَامَسُ

وتَبْتَسِمُ وتَقُول :

عَبَثاً هَذَا البَحْثُ عَنْهَا

إِن الكَمَالَ الطَّاهِرَ

يُعَانِقُ الكَوْنَ كُلَّهُ . . .

79

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ نَصِيبِي

أَنْ أَلْتَقِيَ بِكَ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ

فَاجْعَلْنِي أَتَذَكَّرْ عَلَى الدَّوَامِ

أَنَّنِي لَمْ أَظْفَر بِرُؤْيَاكَ

وأَن لاَ أَنْسَاكَ لَحْظَةً وَاحِدَةً

وأَنْ أَحْمِلَ قَبْضَةَ هَذَا الأَلَم

فِي أَحْلاَمِي

وسَاعَات أَرَقِي

وحِينَ تمُرُّ أَيَّامِي

فِي سُوق هَذَا العَالَمِ المُزْدَحِمَةِ

وتَمْتَلِىء يَدَاي بالأَرْبَاحِ اليَوْمِيَّة

فاجْعَلْنِي أَتَذَكَّرُ عَلَى الدَّوَامِ
أَنَّني لَمْ أَرْبحَ شَيْئَاً
وأَنْ لاَ أَنْسَاك لَحْظَةً وَاحِدةً
وَأَنْ أَحْمِلَ قَبْضَةَ هَذا الأَلَمِ
في أَحْلاَمِي
وفِي سَاعَات يَقظتي
وحِين أَجْلِسُ عِند حَافَةِ الطَّرِيقِ
مُتْعَبا حَزِيناً
وحِين أسَوِّي مَضْجَعِي التّرابِيّ
فاجْعَلْنِي أَتذَكَّرُ عَلَى الدَّوَامِ
أَن رِحْلَةً طَوِيلَةً في انتِظَارِي
وأَنْ لاَ أَنْسَاكَ لَحْظَةً واحِدَةً
وأَنْ أَحْمِلَ قَبْضَةَ هَذَا الأَلَمِ
في أَحْلامي وسَاعَاتِ يَقْظَتِي
وحِينَ تَزْدَانُ غُرَفِي

وتَعْزِفُ النَّايَاتُ أَنْغَامَها

وتَتَعَالى أَصْدَاءُ الضَّحَكاتِ العَالِيَةِ

فَاجْعَلْنِي أَتَذَكَّرُ عَلَى الدَّوَامِ

أَنَّنِي لَمْ أَدْعُكَ إِلى بَيْتِي

وأَنْ لاَ أَنْسَاكَ لَحْظَةً واحِدَةً

وأَنْ أَحْمِلَ قَبْضَةَ هَذَا الأَلَم

في أَحْلاَمِي

وسَاعَات يَقْظَتِي . .

80

إِنَّني كَذَخيرةِ إِحدى السُّحُبِ الخَرِيفِيَّةِ

التي تَجُوبُ السَّمَاءَ عَبَثاً

يَا شَمْسِي المُمَجَّدَةَ عَلَى الدَّوَامِ

إِن مُلاَطَفَتَكَ لَمْ تَفُكَّ بَعْدُ ضَبَابِي

لِتجْعَلَني شَيْئاً وَاحِداً مَع نُورِكَ

وَهَكذا أَعُدُّ الشُّهُورَ والأَعْوَامَ
بَعِيداً عَنْكَ .
إِذَا كَانَت هَذِه إِرَادَتُك
وإِذَا كَانَ هَذَا يُسُرِّي عَنْكَ
فَخُذ هَذِه الغَيْمَةَ الجَوَّابَةَ الفَارِغَة
ولَوِّنْها بِأَلْوَانِك
وزَيِّنْهَا بِذَهَبِكَ
ولِتَنْقُلْها مَع الرِّيحَ الشَّارِدَةِ
ولِتُبَدِّدْهَا في أَلْوَانٍ مِن العَجَائِبِ
وحِينَ يَلَذُّ لَك أَنْ تُنْهِي هَذِهِ اللُّعْبَةَ
فَسَوْفَ أَذُوبُ وأَتَبَدَّدُ عِنْد ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الحَالِكَةِ
أَوْ نَسْمَةِ الصَّباح السَّاطِعِ
في نَقَاوَةٍ نَدِيَّةٍ شَفَّافَةٍ . .

81

فِي كَثِيرٍ مِن أَيَّامِ الكَسَلِ

كُنْتُ أَبْكِي عَلَى الزَّمَنِ الضَّائِعِ
ولَكِنَّهُ في الحَقِّ - يَا سَيِّدِي -
لَمْ يَكُنْ ضَائِعاً
لَقَد قَبَضْتَ عَلَى كُلِّ لَحْظَةٍ مِن حَيَاتِي
في يَدَيْكَ
وكُنْتَ مُتَوارِياً في قَلْبِ الأَشْيَاءِ
تُغَذِّي البُذُورَ حَتَّى تَنْبُتَ
والبَرَاعِمَ حَتَّى تُزْهِرَ
والزُّهُورَ حَتَى تَصِيرَ فَاكِهَةً نَاضِجَةً ،
كُنْتُ مُسْتَرْخِياً في كَسَلٍ
على فِرَاشِي
وَقَد صَوَّرَ لِي تَعَبِي
أَنَّ كُلَّ شَيءٍ قَد تَوَقَّفَ
وحِينَ نَهَضْتُ في الصَّبَاحِ
أَبْصَرْتُ حَدِيقَتِي

82

إِن الزَّمَنَ فِي يَدَيْك

يَا مَوْلاَي

لاَ حَدَّ لَهُ

وَلاَ أَحَدَ يَقْدِرُ عَلَى حَصْرِ سَاعَاتِك

وَتَمْضِي الأَيَّامُ

وتَزْدَهِر الفُصُولُ ثُمَّ تُذْبُلُ مِثْلَ الزُّهُورِ

وَأَنْتَ الوَحِيدُ الذِي يُحْسِنُ الانتِظَارِ

وتَتَتَابَعُ أَحْقَابُكَ وعُهُودُكَ

لِتَهَبَ الكَمَالَ

لِزَهْرَةٍ صَغِيرَة في أَحَدِ الحُقُولِ

ونَحْنُ لَيْسَ لَدَيْنَا وَقْتُ نُضيعُه

وَعَلَيْنا أَنْ نَشْقَى

لإنَّه لَيْس لَدَيْنا وَقْتٌ نُضيعُهُ
حَتَّى لاَ نَفْقِدَ فُرْصَتَنَا المُتَاحَة
نَحْن أَفْقَرُ مِن أَن يُتَاحُ لَنَا التَّخَلُّفُ.
وَهَكَذَا يَمْضِي الوَقْتُ
بَيْنَمَا أَهَبُ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مُتَذَمِّرٍ
مَا يَرْغَبُ فِيهِ مَنْ هَذَا الوَقْتِ
لأَن هَيْكَلَك فَارِغٌ مِن المُتَعَبِّدِينَ
وفِي نِهَايَةِ النَّهَارِ
أُسْرِعُ الخَطْوَ خَوْفاً مِن أَن يُقْفَلَ بَابُكَ
فَأَجِدَ أَنَّه مَا يَزَالُ هُنَاكَ
مُتَّسَعٌ مِن الوَقْتِ..

(83)

أمَّاه
بِقَطَراتِ دُمُوعِي

سَأَصْنَعُ لَكَ عِقْداً من اللُّؤْلُؤِ

ولقَد صَهَرْتُ النُّجومَ

خَلاَخِيلَ مِن النُّورِ

لِكَي تُزَيِّنَ قَدَمَيْكِ

ولكِن عِقْدِي سَيَكُونُ فَوْق صَدْرِكِ

لَقَد جَاءَتْنِي الشُّهْرَةُ والغِنَي مِنْكِ

ويَتَوَقَّفُ عَلَيْكِ مَنْحُها أَوْ رَفْضُهَا

ولكِن هَذا الأَلَم

لِي وَحْدي

وحِينَ أَحْمِلُه إِلَيْكِ

عَطِيَّةً مِنِّي

فَستُكَافِئِينَنِي بِعفُوكِ . .

(84)

أَلَمُ الفِرَاقِ

يَنْبَسِطُ على كلِّ أَرْجَاءِ الكَوْنِ

ويُوَلِّدُ في السَّمَاء الرَّحِيبةِ

أَشْكَالاً عَدِيدَةً

إن حُزْنَ الفِرَاقِ

يُحَلِّقُ فِي صَمْتٍ

طوَالِ اللَّيْلِ

ويَنْتَقِلُ بَبَصِيرِهِ مِن نَجْمَةٍ إلى أُخْرَى

ثُمَّ يُصْبِحُ أُغْنِيَة بَيْنَ حَفِيفِ الأَوْرَاقِ

في حُلْكَةَ تَمُوز المُمْطِرَةِ

هَذَا الشَّقَاءُ الذِي يَغْزُو كُلَّ شَيءٍ

يَنْصَهِرُ فِي مَشَاعِرِ حُبٍّ

وَرَغَبَاتٍ

وأَفْراحٍ وأَتْرَاحٍ

في مَسَاكِنِ البَشَرِ

وهي المَشَاعِر نفسها التي تَنْصَهِرُ وتَتَدَفَّقُ

85

حِينَ بَادَرَ المُحَارِبُون إلى الخُرُوجِ
مِن بَيْت سَيِّدهِم
أَيْن أَوْدَعُوا قُوْتَهم وسُلْطَانَهم؟
وأَيْنَ تَرَكُوا دُرُوعَهَم وسُيُوفَهَم؟
كَانُوا يَبْدُون فُقَرَاء ، عُزَّلاً مِن السِّلاَحِ
وفَوْقَهَم تَتَسَاقَطُ السِّهَامُ
في ذِلك اليَوْمِ الذِي خَرَجُوا فِيهِ
مِن بَيْتِ سَيِّدِهِم
وحِينَ عَادَ المُحَارِبونَ زَاحِفِين
نَحْوَ بَيْتِ سَيِّدهِم
أَيْنَ أَوْدَعُوا سَطْوَتَهُم وسُلْطَانَهم؟

لَقَد نَزَعُوا السُّيُوفَ

والأَقْوَاسَ والسِّهَامَ

وَبَدَا السِّلْمُ عَلى جِبَاهِهِم

وتَرَكُوا خَلْفَهَم

ثِمَارَ الحَيَاةِ

في اليَوْم الذِي عَادُوا فِيه زَاحِفِين

إلى بَيْتِ سَيِّدِهِم . .

86

المَوْتُ، خَادِمُك المُطِيعُ

يَقِفُ عِنْدَ بَابِي

بَعْدَمَا عَبَر بَحْرًا مَجْهُولاً

وحَمَل إليّ نِدَاءَكَ

إن اللَّيْلَةَ لَمُظْلِمَةٌ

وقَلْبِي عَامِرٌ بِالخَوْف

وَمَعَ ذَلِك سَأَحْمِلُ مِصْبَاحِي
وأَفْتَحُ البَابَ
وأَنْحَنِي لَهُ ، مُرَحِباً بِقُدُومِهِ
إِنَّهُ رَسُولُكَ يَقِفُ عِنْدَ بَابِي
سَوْفَ أُمَجِّدُهُ فِي خُشُوعٍ ودُمُوعٍ
وسَوْفَ أُعَظِّمُهُ بِأَنْ أَضَعَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ
ذَخِيرَةَ قَلْبِي
فَإِذَا أَنْجَزَ مُهِمَّتَهُ
سَافَرَ، تَارِكاً ظِلاً قَاتِماً
عَلَى صَبَاحِي
وفِي بَيْتِي الخَالِي
يَظَلُّ جَسَدِي المَتْرُوك
آخَرَ مَا أُقَدِّمُهُ إِلَيْكَ مِن هِبَاتٍ . .

87

فِي أَمَلٍ يَائِسٍ

أَبْحَثُ عَنْهَا

في كُلِّ زَاوِيَة مِن بَيْتِي

ولكِنَّنِي لاَ أَعْثُرَ عَلَيْهَا

بَيْتِي صَغِيرٌ

فإِذَا ذَهَبْتَ مَرَّةً وَاحِدَةً

فَلاَ يُمْكِنُ الإِمْسَاكُ بِهَا

ولَكِنَّ قَصْرَكَ يَا إِلَهِي كَبِيرٌ لاَ حَدَّ لَهُ

وحِينَ بَحَثْتُ عَنْها

سرعَانَ مَا وَصَلْت إلى بَابِكَ

فَأَنَا تَحْتَ القُبَّة الذَّهَبِيَّة لِسَمَائِكَ المَسَائِيَة

وَأَرْفَعُ عَيْنَيَّ في قَلَقٍ

لأُطَالِعَ مُحَيَّاكَ

لَقَدْ بَلَغْتُ حَافَّةَ الأَبَدِيةِ

حَيْثُ لاَ يُمْحَى شَيءٌ

لاَ الأَمَلُ، ولاَ السَّعَادَةُ

ولاَ رَؤْيَةُ وَجْهٍ نُبْصِرُهُ
بَيْنَ رَقْرَقَةِ الدُّمُوعِ
آه ، لتغطسْ حَيَاتِي الفَارِغَةُ في ذَلِكَ الخِضمِّ
ولتَدْفَع بِهَا إلى أَبْعَدِ أَغْوَارِهِ
ولتَدْعِني أُحِسَّ مَرَّة وَاحِدَة عَلى الأَقَلّ
تِلْكَ المُلاَطَفَةَ العَذْبَةَ الشَّائِعَةَ
في الكَوْنِ كُلِّه . .

88

يَا آلِهَةَ المَعْبَد المُتَداعِي
إن إوتَارَ (فينا) المَقْطُوعَةَ
لن تَتَغَنَّى بَعْدَ اليَوْمِ بِمَدْحِك
ولا نَواقيسُ المَسَاءِ
يُمْكِنُها أَن تُعْلِنَ عَن سَاعَة العِبَادَةِ .
وحَوْلَكِ

كُلُّ شَيْءٍ سَاكِنٌ وصَامِتٌ

وفِي بَيْتِكِ الخَالِي

يَتَسَلَّلُ شَارِداً

نَسِيمُ الرَّبِيعِ

فَيَحْمِلُ أَخْبَارَ الزُّهُورِ

تِلْكَ الزُّهُوُرِ التي لَنْ تُزْجَى أَبَداً لِعِبَادَتِكِ

إِن عَابِدَكِ القَدِيم

يَهِيم دَوْماً في انتِظَارِ النِّعْمَةِ المُحَرَّمَةِ عَلَيْهِ

وفي المَسَاءِ

حِين تَخْتَلِطُ الأَنْوَارُ والظِّلاَلُ

في ظُلْمَةِ الغُبَارِ

يَعُودُ مُتْعَباً

إلى المَعْبَدِ المُتَدَاعِي

وفي قَلْبِه تَوْقٌ.

مَا أَكْثَر الأَعْيَاد التي مَرَّت بِكِ صَامِتَةً

يا إِلهةَ المَعْبَدِ المُتَدَاعي

وما أَكثر لَيَالي العِبَادَةِ التي مَرَّت مُطْفَأَةَ الأَضْوَاءِ

وما أَكَثر الصَّوَر التي صَنَعَها أَسَاتِذَةُ الفَنِّ

وحُمِلَت إلى نَهْرِ النِّسْيَانِ المُقَدَّسِ

حِين أَدْرَكَها الحَيْن

وآلهةَ المَعْبَدِ المُتَدَاعِي

وَحْدَها، وإلى الأَبَدِ

تَظَلُّ مُهْمَلَةً وغَيْرَ مَعْبُودَةٍ مِن أَحَدٍ . .

89

لاَ كَلِماتٌ صاخِبَةٌ، بَعْدَ اليَوْمِ

هذهِ إرادَةُ مَوْلاَي

فَسَأَتَكَلَّمُ مُنْذُ الآن، هَمْساً

وسَأَتَابعُ حَدِيثَ قَلْبِي

في غَمْغَمَاتِ الأَغَانِي

إن الرِّجَالَ يُهْرَعُونَ إلى سُوقِ المَلِك

وجَميعُ البَائِعِين والشَّارِين

مَوْجُودُون هُنَاك

أَمَا أَنَا فَإني أَسْتَأذِنُ قَبْلَ الأَوَانِ

في مُنْتَصِفِ النَّهَارِ

وفي عُنفوانِ العَمَلِ

دَعُوا الزُّهُورَ

تَتَفَتَّح في حَديقَتِي

حَتَّى فِي غَيْرِ أَوَانِها

دَعُوا النَّحْلَ يَكُفُّ عَن طَنِينِهِ الكَسُولِ

في الهَجِيرَةِ.

سَاعَاتٌ طَوِيلَةٌ

أَمْضَيْتُها في الصِّرَاع بَيْن الخَيْرِ والشَّر

أمّا الآن فَإِنَّ رَفِيقَ أَلْعَابِي

في أَيَّامِي البَاطِلَةِ

يَرْغَبُ في أَن يَجْذِبَ قَلْبِي إِلَيْهِ
ولاَ أَفْهَمُ
أَيَّ نِهَايَةٍ عَاتِيَةٍ
يَحْمِلُها هَذَا النِّدَاءُ المُفَاجِىء

(90)

في اليَوْمِ الذِي يَطْرُقُ فِيهِ المَوْتُ بَابَكَ
مَاذَا سَتُقَدِّمُ إليه؟
سَأُقَدِّمُ إلى ضَيْفي كَأْسَ حَياتِي المُفْعَمَة
وَلَن أَتْرُكَهُ يَمْضِي بِأَيْدٍ خَاوِيَةٍ
سَأُقَدِّمُ إِلَيْه
كُلَّ مَحاصِيلِي الحُلْوةِ
من أَيَّام الخَرِيف
وكُلَّ لَيَالي الصَّيْفِ
وكُلَّ مَا حَصَدْتُهُ فِي حَياتِي الجَادَّةِ

سَأُقَدِّم كُلَ ذَٰلك إِلَيْه

في آخر أَيَّامي

عِنْدَما يَطْرُقُ المَوْتُ

بَابِي . .

91

أَيُّهَا المَوْتُ

يَا مَوْتِي

آخِرَ إِنجَازَاتِ حَيَاتِي

تَعَالَ، وتَحَدَّث إِليَّ هَمْساً

لَقَد انْتَظَرْتُكَ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ

وتَحَمَّلْتُ مِن أَجْلِكَ

أَفْرَاحَ الحَيَاةِ وأَتْرَاحَها .

وجَمِيعُ مَا يُكَوِّنُنِي

وكُلُّ مَا أَمْلِكُ

وكُلُّ مَا أَرْجُو

تَدَفَّقت نَحْوَك فِي سِرٍّ عَمِيقٍ .

نَظْرَةٌ أَخِيرَةٌ مِن عَيْنَيْكِ

سَتَجعَلُ حَيَاتِي كُلَّها لَكَ

لقد ضُفِرُتْ الزُّهُورُ

وَهُيِّيء إِكليلُ العَرِيسِ .

وبَعْدَ الزَّفافِ

سَتَتْرُكُ العَرُوسُ بَيْتَها

وتَذْهَبُ وَحْدَها

لِمقَابَلَة سَيِّدِها

في وَحْدَةِ اللَّيلِ . .

92

أَعْلَمُ أَنْ سَوْفَ يَأتي اليَوْمُ الذي أَفْقِدُ فِيه

رُؤْيَتِي لِهَذا العَالَم

وفي صَمْتٍ تُوَدِّعُ رُوحِي كُلَّ شَيْء

مُسْدِلَةً فَوْقَ بَصَرِي حِجَابَها الأخِيرَ

ومَعَ ذَلِك فَإِن النُّجُومَ سَتَسهَرُ بِاللَّيْلِ

والصَّبَاح يَنْهَضُ كُلَّ يَوْمٍ

كَشَأْنِهِ عَلَى الدَّوَامِ

والسَّاعَاتُ سَتَتَفتَّحُ كَأَمْوَاجِ البَحْرِ

وَهِي تُعِدُّ الأَفْرَاحَ والأَتْرَاحَ

حِين أفْكِّرُ فِي نِهَايَة أَيَّامِي

فإن حَاجِزَ الزَّمنَ يَنْكَسِرُ

وأَرَى في نُورِ المَوْتِ

عَالَمك بِكُلِّ كُنُوزِهِ.

ثَمينٌ حَتَّى أَحْقَر الأماكن.

وحَتَّى الحَيَاةُ المُتَواضِعَة ثَمِينَةٌ.

الأَشْيَاءُ التي حَصلْتُ عَلَيْهَا

لِنَدَعَها الآن

وليُسْمَحْ لِي الآن فَقَط

بِأَنْ أَمْتَلِكَ حَقّاً

الأَشْيَاءَ التي رَفْضتُها وأَهْمَلْتُها

على الدَّوام . .

93

أَيُّها الإِخْوَة

لَقَد أُذِنَ لِي بالرَّحَيلِ

قُولُوا لِي . . وَدَاعاً

إِنَّني أَنْحَني أَمَامَكُم جَمِيعاً

وأَودِّعكُمْ

هَا أَنا أُعِيدُ مَفَاتِيح بَابِي

وأَتَنَازَلُ عَن كُلِّ حَقٍّ لي فِي بَيْتِي

ولا أَطْلُبُ مِنْكُم سِوَى كَلِمَات وَدَاعِيَّةٍ لَطِيفَةٍ

لَقَد تَجَاوَرنا وَقْتاً طَويلاً

وأَخَذْتُ أَكْثَر مِمَّا أَعْطَيْت

وهَا هُو الصَّباحُ يَنْشُرُ ضَوْءَهُ

والمِصْبَاحُ الذي كَانَ يُضيءُ زَاوِيتي

الصَّغِيرَةَ المُظْلِمَةَ

قَد انْطَفَأَ

وقَد بَلَغَنِي النِّدَاءُ

وإني لَمُسْتَعِدٌّ للَّرحِيلِ

94

أَيُّها الأَصْدِقَاء

لَقَد حَانَت سَاعَةُ رَحِيلي

فَلتَتَمَنَّوْا لِي حَظًّا سَعِيداً

لَقَد صَبَغَ الفَجَرُ السَّمَاءَ بِلَوْنٍ وَرْدِي

وطَرِيقي تَمْتَدُّ جَمِيلَةً رَائِعَةً

لا تَسْأَلُوني عَمَّا سَوْفَ أَحْمِلُه مَعِي

إنّي أنْهَضُ لِرِحْلَتي بِأيْدٍ فَارِغَةٍ
وقَلْبٍ عَامِرٍ بالأَمَلِ
سَأَتَزَّينُ بإِكْلِيل عُرْسِي
أَمَّا ثوْبُ المُسافِرِ الأَحْمَرُ المُغْبَرُّ
فَلاَ يُلاَئِمُنِي.
ولَن استَشْعِرَ الخَوْفَ
وإنْ كَانَت ثَمَّةَ أَخْطَارٌ فِي الطَّرِيقِ.
إن نَجْمَةَ المَسَاءِ سَتُطِلُّ
حِين تَنْتَهِي رِحْلَتِي
وأَنْغَامُ الغُرُوبِ الحَزِينَةِ
سَيَتَرَدَّدُ صَدَاهَا في الأبْوابِ المَلَكِيَّةِ الحَزِينَةِ..

95

لَمْ أَشْعُر باللَّحْظَة
التي اجْتَزتُ فِيها أول مرَّة

عَتَبَةَ هَذِهِ الحَيَاة.
أيّ قُدْرَةٍ جعَلَتْني أتَفَتَّحُ
عَلى هَذا السِّرِّ الرَّحِيبِ
كَمَا تَتَفَتَّحُ الزَّهْرَةُ في الغَابَةِ
عِنْدَ مُنْتَصفِ اللَّيْلِ
وحِين رَأَيْتُ النُّورَ فِي المِصْبَاحِ
شَعرْتُ عَلَى الفَوْرِ
أنَّنِي لَسْتُ غَرِيباً عَن هَذا العَالَم
وأن ذَلكِ الغَامِضَ المَجْهُولَ
بِلا اسْم ولاَ شَكْلٍ
قد أَخَذَني بَيْن ذِرَاعَيْهِ
مَاثِلاً فِي صُوَرةِ أمّي.
هَكَذا
فِي المَوْتِ
فإن هَذا المَجْهُول سَيَبْدُو لِي

كَمَا هُوَ مَأْلُوفٌ لَدَيَّ .
ولإنّي أُحِبُّ الحَيَاةَ
فإني أعْلَمُ أَنّني سأُحِبُّ المَوْتَ أَيْضاً .
والطِّفْلُ يَبْكِي حِينَ تُبْعِدُه أُمُّهُ
عن ثَدْيِهَا الأَيْمَنِ
ولكِنّه سُرْعَانَ مَا يَجِدُ سَلْوَاه
في مَصِّ ثَدْيِها الأَيْسَرِ

96

عِنْدَما أَرْحَلُ بَعِيداً عن هَذا المَكَانِ
فَسَتَكُون هذِه كَلِمتي الأَخِيرَة
إِن ما رَأَيْتُه لاَ يُمْكِن أن يُدَانِيهِ أَو يَسْمُوَ عَلَيْه شَيءٌ
لَقَد تَذَوَّقتُ طَعْمَ العَسَلِ الخَفِيِّ
لِزَهْرِ اللُّوتَس الذي يَنْتَشِرُ فِي بِحَار النُّورِ
وكانَتَ حَيَاتِي مُبارَكَةً

وتِلك هِي كَلِمَتي الأَخِيرَة

وفي هَذا المَسْرَحِ العَامِر بالأشْكَال المُخْتَلِفةِ

مَثَّلْتُ دَوْرِي

وهُنَا لَمَحْتُ مَا لاَ صُوَرَة له .

كُلُّ جَسَدِي

وكُلُّ أَعْضَائِي

ارتَجَفَت تَحْتَ لَمْسَةِ ذَلك الذِي لاَ يُلْمَسُ

وإذَا طَاب لِنِهَايَتِي أَن تَكُون هُنَا

فَلتَتْركُوها تأْتِي إِليّ

وهَذِه هِي كَلِمَتي الأَخِيرَة . .

97

حِينَ لَعِبْتُ مَعَكَ

لَمْ أَسْأَلْكَ مَن أَنْتَ

ولَمْ أَكُن أَعْرِفُ الخَوْفَ والخَجَلَ

وكَانَت حَيَاتِي صَخَّابَةً

كُنْتَ تُوقِظُني فِي الصَّباحِ البَاكِرِ

كَأَيّ رَفِيق

وتُقُودُنِي من غَابٍ إلى غَابٍ

وفي تلك الأَيَّام

لَمْ أَكُنْ أَشْغَلُ نَفْسِي

بفَهْم مَعَانِي الأَغَانِي التي كُنْت تُغَنِّيهَا لي

كَان صَوْتِي وَحْدَهُ

يَتَلَقَّفُ الأَلْحَانَ

فَيُردِدُّهَا

ويَرْقُصُ قَلْبِي عَلى إِيقَاعِهَا

والآن وقَد انْقَضَى وَقْتُ اللعِب

أَيُّ رُؤْيَا مُفَاجِئَة تَبْدُو لِي؟

إِن العَالَم

بكُلِّ نُجُومِهِ الصَّامِتَة

يَخْفِضُ بَصَرَه

نَحْو قَدَمَيْكِ . .

98

سَأُتَوِّجُكَ بِغَنَائِمِي

الّتي هي أكاليلُ هَزِيمَتِي

فلن تكونَ فِي وُسْعي النجاة

قبل أن أشْعُرَ أننِّي مَغْلُوبٌ

أَعْلَمْ عَنْ يقينٍ أن زَهوِي

سَيُفْسِحُ الطريقَ

وأنّ في الألَم اللاّنهائي

ستُحَطِّم حياتي كُلَّ قُيودِها

وأن قلبي الخاوِي

سَيَجْهَشُ لموسيقَاه

مثل قصبةٍ جَوْفَاء

وأن الأحْجَار

سَتَصِيرُ دُمُوعًا

واعلم عن يقين
أن الأفواف المئة لزهرة اللوتس
لن تبقَى مغلقة إلى الأبد
وأن المنفذ الخفي لشهدها
سينفتح
ومن السماء الزرقاء
سترعاني مُقْلة
وتدعوني في صمت
لن يبقَى لي شيء، شيء على الإطلاق
وعند قدميك
أتلقّى الموت الأكمل

99

عِنْدَمَا أتَخَلَّى عِن المِقْوَدِ

أَعْلَم أنَّه قد حَانَت السَّاعَةُ التي تُمْسِكُ أَنْتَ بِهِ
ومَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْمَلَ

يَجِبُ أَنْ يَتِمَّ بِسُرْعَةٍ

وأيُّ مُقَاوَمَةٍ هي نَوْعٌ مِن العَبَثِ

فَلْتَسْحَب يَدَيْكَ

ولتَقْبَلْ هَزِيمَتِكَ فِي صَمْت .

وَاذْكُرْ

أنَّك كُنْتَ مَحْظُوظاً

لأَن تَجْلِسَ سَاكِناً في المَكَان المُحَدَّدِ لَكَ

هَذِهِ مَصَابِيحي تَنْطِفِىءُ

بِأَوْهَى نَسْمَةٍ من نَسَمَات الرِّيَاحِ

وفي مَحاوَلَةِ الإِبقاءِ عَلَيْها

وَضَّاءَةً مُوقَدَةً

فَإِنِّي أَنْسَى مَا سِوَى ذَلِكَ

ولكِن في هَذِه المَرَّة

سَوْفَ أَكُونُ حَكِيماً

وأَنتَظِرُ في الظَّلاَم

بَاسطاً حَصِيرَيْ عَلَى الأَرْض ِ
وفي أيٍّ وَقْت يَطيب لك
يَا سَيِّدي
فَلْتَأْت ِ في صَمْت ٍ
ولتَجْلِس إلى جَانِبي . .

100

أَغُوصُ في خِضَمٍّ الأشْكَال ِ
عَلَى أَمَل أَن أَجِدَ اللُّؤْلؤة الكَامِلَة
التِّي لاَ شَكْلَ لَهَا .
لَنْ أُبْحِرَ بَعْدَ اليَوْم
مِنْ مَرْفَأ إلى آخرٍ
بِزَوْرَقِي هَذا الذِّي هَدَّمَتْهُ العَوَاصِفُ .
لقد انْقَضَت مُنْذُ زَمَن بَعِيدٍ
تِلْكَ الأَيَّام التِي كُنْتُ أَنْعَمُ فِيهَا بِهَدْهَدَةِ الأَمْوَاج ِ

وإني لأتُوقُ الآنَ إلى أَنْ أَمُوتَ
في مَنْ لاَ يَمُوتْ
وفي رَدْهَةِ الاسْتِقْبالاَتِ
قُرْبَ الهَاوِيَة السَّحِيقَة
حَيْثُ تَتَرَدَّدُ مُوسِيقَى الأَوْتَار التي لاَ صَوْتَ لَهَا
سَأَحْمِلُ مِعْزَفَ حَيَاتِي
وسَأطَوعهَا لأَلْحَان الخَالِدِ الدَّائِمِ
وحِين تَشْهَقُ
تَكُون قد قَالَت كَلِمَتَها الأخِيرَةَ
فَأضَعُ مِعْزَفِي الأخرس
على قَدَمِي ذَلِك السَّاكِت ..

101

حَاوَلْتُ علَى الدَّوَامِ
وطِوَالَ حَيَاتِي

أَنْ أَبْحَثَ عَنْكَ
عَبْرَ أَغانِيَّ التي كَانت تَقُودُني
من بَابٍ إلى بَابٍ
وقَدْ تَمكَّنْتُ بِواسِطَتِهَا
أَنْ أَلْمَس مَا حَوَالَيَّ
بَاحِثاً عَنْ عَالَمي
وَمُعَابِثاً لَهُ
كَانَت أَغَانِيَّ هِي التي عَلَّمَتْني كُلَّ مَا تَلَقَّنْتُهُ مِن الحَيَاةِ
وهي التي أَرْشَدَتْني إلى الدُّروبِ المَجْهولةِ

التي حَمَلَت كَثِيراً مِن النُّجُومِ
إلَى آفَاق قَلْبِي
وطَوَال اليَوْمَ كانت تَقُودُني
حتَّى بَلَغْتُ سِرَّ وَطَنِ الفَرَحِ والأَلَمِ
والآنَ
نَحْوَ بَابِ أيِّ قَصْرٍ

حَمَلْتَنِي
فِي هَذَا المَسَاءِ الذِّي تَنْتَهِي فِيه رِحْلَتِي ؟ .

102

بَيْنَ الرِّجَالِ
كُنْتُ أَفْخَرُ بِمَعْرِفَتِكِ
ولقدْ رَأَوْا صُورَتَكَ
فِي جَمِيع أَعْمَالِي

وقدْ جَاؤُوا لسُؤالِي
مَنْ هُوَ ؟
وَلاَ أَعْرِفُ كَيْفَ أُجِيبُ
وَأَقُولُ :
حَقًّا إِنَّنِي لاَ أَعْرِف
فَيَضْحكُونَ مِنِّي وَيَنْصَرِفُونَ عَنِّي

وقد امْتَلأت نُفُوسُهم بِالاستِهْزَاءِ
وَكُنْتَ أَنْتَ تَجْلِسُ هُنَاكَ
بَاسِماً
لقدْ قَصَصْتُ حِكَايَاتِك في أُغْنِيَات خَالِدَةٍ
وَقَدْ جَاؤُا لِسُؤَالِي
اشْرَحْ لَنَا مَا عَنَيْت
ولاَ أَعْرِفُ كَيْفَ أُجِيبُ
وأَقُولُ
لاَ أَدْرِي مَاذَا تَعْنِي
فَيَضْحَكُون وينْصَرِفُون

وَقدْ امْتَلأَتْ نُفوسُهم بالاستهْزَاء
وأنْتَ تَجْلِس هُنَاكَ
بَاسِماً ..

(103)

في تَحِيَّةٍ مَرْفوعَة إِلَيْكَ

يَا إِلَهِي
فَإِنَّ جَمِيعَ حَوَاسِّي تَنْسَكِبُ
لِتُلاَمِسَ هَذا الكَوْنَ
الرَّابِضَ بَيْنَ قَدَمَيْكَ
وَمِثْلَ غَيْمَةِ تَمُّوز
التِّي تَنُوءُ بِثِقْلِ أَمْطَارِها
التِّي لَمْ تَهْطِلْ
فَإِن أَفْكَارِي تَنْحَني عند بَابِكَ
في تَحِيَّةٍ مَرْفُوعَةٍ إِلَيْكَ

وكَسِرْبٍ من الطُّيُورِ المُهَاجِرَةِ
التِّي يَقُودُهَا الحَنِينُ
إِلَى أَوْكَارِهَا الجَبَلِيَّةِ
فَتُحَلِّقُ مِنْ أَجْلِ العَوْدَةِ إليْهَا
لَيْلاً وَنَهَاراً
هَكَذَا حَيَاتِي التِي تَسْتَأْنِفُ رِحْلَتَهَا
نَحْوَ الإِقَامَةِ الخَالِدَةِ
تَرْتَفِعُ فِي تَحِيَّةٍ إِلَيْكَ..

البُسْتَانِي

1

الخادم : رحمةً بخادمِكِ... يا مَلِيكَتِي

المَلِكَة :إن الاجتِمَاعَ قَد انْفَضَّ ، وانْصَرَف جَمِيعُ خُدَّامِي ،فَلِمَاذَا جِئْتَ فِي هَذِهِ السَّاعةِ المُتَأَخِّرةِ ؟

الخادم : حِينَ تَفْرَغِينَ مِن الآخرِين ، تَأْتِي سَاعَتِي ، لَقَد جِئْتُ أَسْأَلُ عمّا بَقِي لآخر خُدامِكِ

المَلِكَة :مَاذَا تُؤمِلُ أَنْ تَنَالَ عِنْدَما تكونُ مُتأَخِّرًا ؟

الخادمُ : اجْعَلِينِي بُسْتَانيًا في حَدِيقَةِ زُهورِكَ

المِلكَة : مَاهَذَا الجُنون ؟

الخادمُ : سأَتَنَازَلُ عَن كُلِّ عَمَلٍ آخرَ ، وأُلْقِي إِلَى التُّرابِ حِرَابِي وسيُوفِي ، فَلاَ تبعثِينِي إِلَى بَلاَطَاتٍ بعِيدَةٍ ، ولا تأْمرِيني القيامَ بفُتُوحاتٍ جَدِيدَةٍ ، وَلَكِن اجْعَلِينِي فَقَطْ بُسْتَانِيًا فِي حَدِيقَةِ زُهُورِكِ .

المَلِكة : مَاهي الواجباتِ التي ستؤديهَا ؟

الخادم : أن أَخْدمَكِ فِي أَيَّام الرّاحةِ والاسْتِرْخاءِ : سَأَجْعَلُ الدَّرْبَ المُعْشِب الذي تَمُرِّينَ فَوقَهُ عِنْدَ الصَّباحِ طرِيًّا نَدِيًّا . وفي كلِّ خُطْوَةٍ ، تُحَيِّي قَدَمَيْكِ أماديحُ الزُّهُور المَشُوقَة إلى المَوْتِ ، وسَأُهُزُّ أُرجُوحَتَكِ بَيْنَ أغْصَانِ السَّباطابرنا حَيْثُ القَمَرُ ، عِنْدَ أَوَّلِ ظُهُورِهِ فِي المساء ، يُصارِعُ بَيْنَ أَوْراقِ الشَّجَرِ لِيُقبِّلَ حافَةَ فُسْتَانِكِ . وسأَمْلأُ بالزَّيتِ المُعطَّرِ المِصْبَاح الذِي يتَّقِدُ قُرْبَ سَرِيرِكَ ، وأُزَخْرِفُ المَقْعَدَ الذي تَضَعينَ عَلَيهِ قَدَمَيْكِ بِرُسُومٍ رائعةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ عَجِينِ الصَّنْدَلِ والزَّعْفَرَانِ .

المَلِكة :وَمَاذَا تَطْلُبِ مِن أجْرٍ؟

الخادمُ : أنْ أشُدَّ على رَاحَتَيْكِ الصَّغِيرَتَينِ اللَّتين تُشْبِهَانِ بَرَاعِمَ اللُّوتُو الرَّطْبَة .وأنَ أَضْفِرَ حَوْلَ مِعْصَمَيْكِ أَسْوِرَة مِن الزُّهُورِ ، وأنْ أُحَنِّي بِعَصِيرِ الأشوكَا

الأحْمَر وأن أمْسَحَ بِقُبَلاتي حبَّاتِ الغُبَارِ التي تقع عَلَيْهِمَا .

المَلِكَة :إن رَجَاءكَ قَد تَحقَّقَ يا خادِمي ، ستكُون بُسْتَاني حَدِيقَةِ زُهُورِي ..

2

آه أيُّهَا الشَّاعِرُ
إنَّ المَسَاءَ يَقْتَرِبُ
وَشَعْرُكَ يَشيبُ
فهَل تُصْغي في وَحْدَتِك التَّأَمُّلِيَّةِ
إلى رِسَالَةِ المَجْهُولِ ؟
أجاب الشَّاعِر :
إنَّهُ المساءُ
وإنّي لأُصْغي
فرُبَّما دَعَاني أحَدُهم من القَرْيَةِ

رغْم تأخُّرِ السَّاعةِ
إنِّي أرْقبُ القُلوبَ الشَّابَةَ الشَّارِدَةَ
وهي تَلْتَقِي .
وبعُيونٍ مُبْتَهِلَةٍ خاشِعَةٍ
تَلْتَمِس أن تُحَطِّمَ مُوسِيقاي
سكُونها
وتتحَدَّثُ إليها
فَمَن يَنْسِج أغانيها العاشِقَةِ
إذا جَلَسْتُ على ضِفَّة الحياةِ
أتأمَّلُ الموْتَ ، وما وَرَاءَ المَوْتِ ؟
إن نَجْمَةَ المَسَاءِ تأفُلُ
ونارُ مِحْرَقَةِ الموْتَى تخْبُو بُبُطْءٍ
قُرْبَ النَّهْرِ الصَّامِتِ .
ومِن سَاحَةِ بَيْتٍ مَهْجُور تعْوِي الذِّئابُ عَوَاءً جَمَاعيًّا
لِضَوْءِ القَمَرِ الوَاهِي
فإذا غَادَرَ أحَدُ العابِرين بيْتَهُ

وَجَاءَ هُنا يَتَأَمَّلُ اللَّيْلَ
وَيُصْغي بِرَأْسٍ مُنكَّسٍ خَاشِعٍ
إلى غَمْغَمَةِ الظَّلاَمِ
فَمَنِ الذِي يَهْمِسُ إليه بأسْرَارِ الحَيَاةِ ؟
إذا أنا أغْلَقْتُ أبْوَابِي
مُحاوِلاً التَّحرُّرَ مَن الرَّوَابِطِ الفانِيةِ .
غيرُ مهمٍّ
أن يَشيبَ شَعْري
إنَّني دائِمًا شَابٌّ وعَجُوزٌ
كأَكْثَر شَبَاب القَرْيَة شَبَابًا
وأكْثَر شُيوخِهم شَيْخُوخَةً
في عُيونِ البَعْضِ
ابتِسامَةٌ بَسِيطَةٌ وعَذْبَةٌ
وفي عُيونِ البَعْضِ الآخرِ غَمَزَاتٌ مَاكِرَةٌ
وآخرِون في حاجةٍ إلَيَّ
ولَيْسَ لَدَيَّ وَقْتٌ

للتَّفْكِيرِ
حولَ الأَبَدِيَةِ
أنا تِرْبُ لَهُم جَميعًا
ومن العُمْرِ نفسِهِ
فَماذا يَهُمُّ
إذا كان شعْري سَيشِيبُ ؟

3

في الصَّباحِ
أَلْقَيتُ شِبَاكي في البَحْرِ

واستَخْرَجْتُ من اللجَّة المُظْلِمَةِ
أشْياء غريبةَ المَنْظَر ، رائِعَة الجَمَالِ
بَعْضُهَا يَتأَلَّقُ كَأَنَّهُ ابتسَامةٌ
وَبعضُها يَلْمَعُ كَأَنَّه دَمَعَةٌ
وَبَعْضُها وَرْدِيّ كَأَنَّهُ وجنتا عَرُوسٍ .
وحين عُدْت إلى بيْتي في نِهَايَةِ المَساءِ
حَامِلاً غَنِيمَتي
كَانت حَبِيبَتي تجْلِسُ في الحَدِيقَةَ
تَنْزَعُ في كَسَلٍ أفوافَ زَهْرَةٍ .
وفي تَهيُّبٍ واحِتِشامٍ
وَضَعْتُ تَحْتَ قَدَمَيْهَا ، كُلَّ صَيْدِي
فَنَظَرت إليْهِ في استِخْفَافٍ ، وَقَالت :
ما هَذِهِ الأشْياءُ الغرِيبَةُ ؟
لَسْتُ أَدْرِيَ مَا نَفْعُهَا ؟
فَأَحنَيْتُ رَأْسَي في خَجَلٍ ، وَفكَّرْتُ
« لَمْ أُصارِعْ للحُصُول عَلَيها
إنَّها عَطايا لَيْسَت جَدِيرَةً بِكِ »

وَلَبِثْتُ طَوالَ اللَّيْلِ
أُلْقِيْها وَاحِدَةً واحِدَةً
فَي الطَّرِيقِ.
وفي الصباح
جاء المُسَافِرُون
وجمَعُوهَا، وَحَمَلُوها إلى بُلْدانٍ بَعِيدَةٍ

4

أوّاهِ.. لِمَاذَا شَيَّدُوا بَيْتي عَلَى قارعةِ الطَّريقِ المُفْضِيَةِ إلى السُّوق؟
إِنَّهمُ يرسُونَ مَرَاكِبَهم المَشْحُونَةَ
قُرْب أشْجَاري
يَرُوحونَ وَيَجِيئُونَ

كَمَا يَحْلُولَهُم
وأنا جالِسُ أَرْقبهُم
ووَقْتِي يَمرُّ بَهُدوءٍ
لا أسْتَطِيعُ طَرْدَهُم

وعلى هذا النَّسَقِ تمْضِي أيَّامِي
ليلاً ونهَارًا
بعضهم تعرِفُه أصابعي
بَعْضُهم خَيَاشِيمي
وَيَبْدُو أن بَعْضَهُم الآخر يَعرِفُهُم الدَّمُ الذي يَجْرِي في
عروقي
لاَ أَسْتَطِيعُ طَرْدَهُم فأهْتِفُ بِهِم . وأَقُولُ
ليأتِ إلى بَيْتِي مَن أرادَ مِنْكُم
نَعَم ، تعالوا إلى بَيْتِي
وفي الصَّباح حِين يُقْرَعُ جَرَسُ المَعْبَدِ
يأْتُونَ حامِلِينَ سَلالَهم .
أَقْدَامُهُم مُورَّدةٌ

ووجوهُهُم مُضاءَةٌ بأوَّل أنْوارِ الفَجْرِ
أَنْ أَطْرُدَهُم ، لاَ أستْطِيعُ
ولكنِّي أهْتِفُ بِهِم وأقُولُ
تَعَالُوا ، اجمَعُوا الزُّهُور مِن حدِيقَتِي
تَعَالَوْا ،
وفِي مُنْتَصَف النَّهَارَ
يَدقُّ الطَّبْلُ أمام مَدْخِلِ القَصْرِ
لا أَدْري لِمَاذَا يَتْرُكُون العَمَل
ويَطُوفُون حول سِياجِي ،
الزُّهورُ فَوقَ شعُورِهِم
شاحِبَةٌ ذابِلَةٌ .
وأَنْغامُ ناياتِهِم خافتَةٌ واهِنَةٌ .
لاَ أَسْتَطِعُ طَرْدَهُمْ
وأهْتِفُ بِهِم قَائلاً :
إنَّ الظلَّ نديٌّ تحْت أشْجارِي
أيُّها الأصْدِقَاء ، تَعَالَوْا

وفي اللَّيْلِ تَخْفُتُ أصْواتَ الحباحِب في الغابِ
مَنْ هُو هَذا الغرِيبُ القادِمُ ، الذِي يأْتِي بِهُدُوءٍ ، وَيَطْرقُ
بَابِي بِلُطْفٍ ؟
لاَ أكادُ أتَبيَّنُ مُحَيَّاهُ
ولا مِن كَلِمَةٍ يَنْبِسُ بِهَا
أَنْ أَطْرُدَ ضَيْفِي
ذَلِكَ مَالاَ أستَطِيعُ
وَلَكِنِّي أرْقُبُ مُحَيَّاهُ في الظَّلام
وتَمْضِي بِي سَاعاتٌ من الأحْلامِ

5

إنِّي قَلِقٌ
وظامِيءٌ إلى أشْياء بَعِيدَةٍ
وإن نَفْسِي لَتَهُبُّ مَشُوقَةً
إلى أن تَلْمَسَ حافَةَ البُعْدِ الغامِضِ المُبْهَمِ .

آه ، أيُّهَا الماوراءُ العَظِيمُ
يا لَرَوْعة النِّداءِ العظيمِ الذي يَهتف بِهِ نايُكَ
إني أنْسَى ، أنسى دَوْماً
أنَّه ليست لي أجْنِحَةٌ أُحَلِّقُ بهَا
إنَّ صَبْرِي لَنَافِدٌ ، وإنِّي لَمُؤَرَّقٌ
وغَريبٌ في أرْضٍ غريبةٍ
ونَفَسُكَ يَبلُغُنِي ، هَامِساً بالأَمَلِ المُسْتَحِيلِ
إن قَلْبي يَفْهَمُ لُغَتَكَ
وهي شَبِيهَةٌ باللُّغَة التي يَتَحَدَّثُ بِهَا.
آه أيُّهَا البعيدُ عَنِ البَحْثِ والتَّناوُلِ
أوَّاه ، مِن نِدَاءَ نايكَ الحادّ
إني أنْسَى ، أنسَى دَوْماً
إنني أجْهَلُ الطريقَ
ولَيْس لِي ولا لك الفَرَسُ المُجَنَّحُ
ولا شَيْء يثيرُ اهتمامي
أنا مُتشرِّدٌ في أعْماقِ قَلْبِي

وفي الضَّبابِ المُشْمِسِ للسَّاعات الوَاهِنة تتَّخِذُ تِلْكَ الرُّؤْيَا
العَظيمَةِ شَكْلاً في زُرْقَةِ السَّماءِ
آه أيُّها الهَدَفُ القصيُّ النَّائي
آه ، مِن نِدَاء نايكَ الحادّ
إني أنْسَى ، أنْسى دَوْمًا أن جَمِيعَ البوَّابات مُغْلَقَةٌ
في البيْتِ الذي أعيشُ فيه وحيدًا

6

الطائرُ الحبيس في القَفصِ
والطائرُ الطليقُ في الغابِ
التَقَيا حِين أزِفَ وَقْتُ اللِقاء
تلك كانت مَشيئةُ القَدَرِ
هتف الطائرُ الطليقُ برفيقِهِ :
يا حَبيبي ، لِنُحَلِّقْ في الغَاب
ولكنّ الطائِرَ الحبِيسَ هَمَسَ :
تَعَالَ ، لِنَعِشْ معًا في القَفص

فَيَقُول الطَّائِرُ الطَّلِيقُ :
بيْن القُضْبان ؟ كيْف نَجِدُ الفَضاء لِبَسْطِ أجْنِحَتِنَا ؟
فَيَصْرُخُ العصْفُورُ الطَّليقُ (يا حبيبي ، غَنِّ

أُغْنِيَاتِ الغَابِ
فَيَقُولْ الطائِرُ السَّجين (اجْلس بِالقُرْبِ مِنِّي
أُعَلِّمُكَ لُغَةَ العَارِفِين)
فَيَصْرُخُ الطَّائرُ الطَّلِيقُ (لا .. لا .. إن الأغْنيات لا تُعَلَّمُ)

فَيَقُول الطَّائرُ السَّجَينُ (أوَّاه ، إني لا أعْرِفُ
أُغْنِيَات الغاب) .
إن حُبَّهُما لَعَمِيقٌ ومُدَمِّر

ولكنَّهُما لا يستطِيعان التَّحْليق معًا
ومن خلال قُضْبان القَفَصِ
يَتَأمَّلانِ ، وَيُمْعِنَانِ فِي التَّأمُّلِ .
وَلَكِن .. عَبَثًا يُحاولان التَّعرُّفَ على بَعْضِهِمَا
فَيَهزَّان أجْنِحَتَهُما ويُغَنِّيانِ
(تَعَالَ ، اقترب مِنِّي يَا حَبِيبِي)

فَيَصرخُ العُصفُورُ الطَّليقُ
(مُسْتَحِيل . إني أخْشَى أبْوَابَ
القَفْصِ المُقْفَلَةِ)
فَيَهْمِس العُصْفُور السَّجِينُ
(أوَّاه . إن أجْنِحَتِي لَعَاجِزَةٌ مَيِّتَةٌ)

7

أُمَّاهُ .. إن الأمِيرَ الشَّابَ
سَوْفَ يَمُرُّ بِمَوْكِبِهِ أمامَ بَابِنَا ..
كيْفَ يُمْكِنُنِي الإنْشِغَالُ بِالعَمَلِ
هَذا اليَوْمَ ؟
أَرِينِي كَيْفَ أصُفُّ شَعْرِي
وَقُولِي ، أيَّ أثْوابٍ أرْتَدِي
أُمَّاهُ ، لِمَاذَا تَنْظُرِينَ إليَّ بِدَهْشَةٍ
إنِّي أعْرِفُ أنَّهُ لَنْ يَرفَعَ عَيْنَيْهِ
نَحْوَ نافِذَتِي
وأعْرِفُ تمامًا أنَّهُ سَيَخْتَفِي كالبَرْقِ أمام بَصَرِي
ولَنْ يَصِلَنِي من بَعِيدٍ
سِوَى نشيجِ أنْغَامِ النَّاي

وَلكنَّ الأميرَ الشَّابَ
مرَّ أمامَ بابِنَا
وشَمْسُ الصِّبَا
تَسْطِعُ مِن عَرَبتَهِ الفَاخِرَة
لَقَد رَفَعْتُ الحِجابَ عَن وَجْهِي
وَنَزَعْتُ عِقْدِ المَاسَ من عُنُقِي
وأَلْقَيْتُ بِهِ في طَرِيقِهِ
أمَّاه ، لِمَاذَا تَنْظُرِينَ إليَّ بِدَهْشَةٍ
أعْرِفُ ، أنَّهُ لَم يَجْمَع العَقْدَ
الذي سَحَقَتْهُ العَجَلاَتُ
تَارِكَةً بُقْعَةً مَسْحُوقَةً حَمْراءَ فَوقَ الغُبارِ
ولَم يَعْرِفْ أحَدٌ هَدِيَّتِي
أوْلِمَن كانت مُوَجَّهَةً
وَلَكِن الأميرَ الشَّابَ مرّ أمَامَ بَابِنَا
وأنَا أَلْقَيْتُ فِي طَرِيقِهِ
الحِلْيَةَ التِي أحْمِلُهَا فَوْقَ صَدْرِي

8

عِنْدَمَا انطَفَأَ المِصْبَاحُ القَرِيبُ مِن سَرِيرِي
اسْتَيْقَظْتُ مَعَ يَقْظَةِ العَصافِيرِ المُبكِّرةِ
وَجَلَستُ إلى النَّافِذَةِالمفْتوحَةِ
وإكليلٌ طَرِيٌّ من الزُّهُور يُتوِّجُ شَعْرِيَ المُبدَّدَ
وأقْبل الشَّابُ العَابرُ يَمْشِي غي الطريقِ الملفُوفَةِ
بضَبَابِ الصباحِ الورْدِي
كَانَت في عُنُقِهِ قِلادَةٌ من اللؤلؤ
وعلى تاجه تتلألأُ أشِعَّةُ الشَّمْسِ
ووَقَفَ أمَامَ بَابِي ، وسأَلَنِي بِصَوْتٍ مُتَلَهِّفٍ
نافِدِ الصَّبْرِ :
أيْنَ هِي ؟
ومِن خَجَلِي العظيمِ ، لَم أسْتَطِع أنْ أَقُولَ إِنَّهَا أَنَا ،
أيُهَا الشَّاب العَابِرُ ، إنَّهَا أنا ؟
كَانَت سَاعَاتُ الغُرُوب .

وَلَم يُوْقَدِ المِصْباحُ بعْدُ
وكُنْتُ أَضْفِرُ شَعْرِي بلاَ رَغْبَةٍ
فَجَاءَ الشاب فَوْقَ عَرَبَتِهِ
يَحُفُّ بهِ بَريقُ شَمْسِ الغُرُوبِ
كَانَتَ مَلاَبِسهُ مُغَطاةً بالغُبارِ
وخُيُولُه مُجْهَدَةً
نَزَل أمَامَ بابِي
وسأَل بِصَوتٍ مُتْعَبٍ مُرْهَقٍ
أيْن هِي ؟
ولم أسْتَطع من خَجَلِي أنْ أقُولَ ، إنَّهَا
أنا أيُّهَا المُسافِرُ المُتْعَبُ ، إنَّها
أنا ..) ..
وفِي لَيْلَةٍ من نيسان
كان المِصْباحُ يَشْتَعِلُ فِي غُرْفَتِي
وَنَسِيمُ الجَنُوبِ يَهُبُّ بِلُطْفٍ
والبَبَّغَاءُ المِهْذَارُ يَنَامُ فِي قَفَصِهِ

وصَدْرِيَتِي كان لَهَا لَوْنُ عُنُقِ الطاوُوسِ
ومِعْطفِي أخْضَرُ مَثْل العُشْبِ الغضِّ النضير
وَجَلَسْتُ عَلَى الأرضِ ، قُرْبَ النَّافِذَةِ
أتأمَّلُ الطريقَ المَهْجُورَةَ
وفي ظلام اللَّيْل
كُنْتُ أُتَمْتِمُ باستِمْرارٍ
إنَّهَا أنَا .. أيُّها المُسافِرِ اليَّائِسُ .. إنَّها أنا

9

عِنْدَمَا أذْهَبُ وَحْدِي فِي الليْلِ
للقائي الغَرَامي

تَكُونُ العَصَافِيرُ قَدْ تَوَقَّفَتْ عن الغِنَاءَ
والريحُ قد انْقَطَعَتْ عنِ الهُبُوبِ
والبُيُوتُ المُنْتَشِرةُ عَلى جانِبَي الطَّريقِ
صامِتَةً سَاكِنَةً
أن أَسْوِرَتي فَقَطْ هِي التي تَرِنُّ مَعَ كُلِّ خُطْوةٍ
فَيَمْلَؤُني ذلكَ بالخَجَلِ الشَّدِيدِ
وحين أجْلِسُ عِنْدَ الشُّرْفَةِ
أتَسَمَّعُ صَدَى خُطُوَاتِهِ
فالأوراقُ تنْقَطِعُ عن حفِيفِها بَيْنَ الأغصانِ
وَتَسْكُنُ مياه النَّهْر
كمَا يَسْكُن السَّيْفُ فَوْقَ رُكْبَتَيْ حَارِسٍ نائِمٍ
إن قَلْبي فَقَطْ هُو الذّي يَدُقُّ بِوحْشِيَّةٍ
ولا أعْرِفُ كَيْفَ أهدِّئُهُ
وحين يأْتي حَبِيبي
ويَجْلِسُ إلى جانِبي
وَحِينَ يرْتَجِفُ جَسَدِي
وَتَفْتَرُّ جَفْنَايَ

واللَّيْلُ يَزْدَادُ حُلْكَةً
وتُطْفِيءُ الرِّيحُ المِصْبَاحَ
وَتَبْسُطُ السُّحُبُ حِجَابًا على النُّجومِ
فإنَّ جَوْهَرَةَ قَلْبِي هِيَ التي تتأَلَّقُ ، وتشِعُّ
ولا أدْرِي كَيْف أُخْفِيهَا

10

كُفِّي عَنِ العَمَلِ .. أيتُّهَا العَرُوسُ
وَاسمَعي .. لَقَد جَاء الضَّيْفُ
ألا تَسْمَعِيهِ ؟ إنَّهُ يحَرِّكُ بِلُطْفٍ
السِلْسِلَةِ التي تُقْفِلُ البَابَ
إحذَرِي أن تَرِنَّ أسوِرَتُكِ رَنِينًا عاليًا
ولا تُسرِعي الخَطْوَ إلى لِقائِهِ

دَعِي عَمَلِكِ أيتُها العَرُوسُ
واسمَعِي .. لَقَدْ جاءَ الضَّيْفُ
لاَ تَخَافِي أيتها العَرُوسُ
فَلَيسَ هُو ريحَ الأشْبَاحِ
إنَّ البَدْرَ مُكْتَمِلٌ في لَيْلَةٍ من لَيَالِي نيسَان
والظِّلالُ شَاحِبَةٌ في باحةِ البيْتِ
والسَّمَاءُ مُنِيرَةٌ
أسدلي الخمارَ عَلَى الوَجْهِ
إذَا كُنْتِ تُؤْمِنِينَ
وضعِي المِصْباحَ عِنْدَ البَابِ
إِذَا كُنْتِ تَخَافِينَ
لاَ تَخَافِي أَيَّتُهَا العَرُوسُ
فَلَيْس هُو رِيحَ الأشْبَاحِ.
إذا كُنْتِ تَخْجَلِينَ
فَلاَ تَقُولِي أيَّ كَلِمَةٍ
وقِفِي إلى جَانِبِ البابِ ، حين تَسْتَقبلِينَهُ
فإِذَا طَلَبَ مِنْك شَيْئًا

فَخَفِّضي بَصَرَكِ في صَمْتٍ إذا شِئْتِ
ولاَ تَدعي الأَسْوَرَةَ تَرَنُّ حِينَ تُدْخِلِينَهُ ، والمِصْبَاحُ في يَدَيْكِ
إذا كُنْتِ خَجْلَى فَلا تَقُولي لَهُ كَلِمَةً وَاحِدَةً
لَمْ تُكْمِلِي عَمَلَكِ بَعْدُ ؟
اسْمَعي .. لَقَدْ جاءَ الضَّيْفُ
أَلمْ تُوقِدِي المِصْباحُ في الحظيرَةِ ؟
أَلَمْ تُعِدِّي سَلَّةَ العَطَايا لِصَلَوات المَسَاءِ
أَلَمْ تَضَعي عَلاَمَةَ الحَظ الحَمْرَاءِ عِنْد فَرْقَةِ الشَّعْر
أَلَمْ تتَزَيَّنِي لِلَّيْلِ
أَيَتُهَا العَرُوس ، أَلَمْ تَسْمَعي ؟
إن الضَّيْف جاءَ
كُفِّي عنِ العَمَلِ الآن .

11

تَعَالَيْ ، عَلَى حَالَتِكِ
وَلا تتَباطَئي في التَّزَيُّنِ

إذا كَانَت ضَفِيرةُ الشَّعْر قد انْحَلَّت
وَفَرْقَةُ الشَّعْر غَيْر مُسْتَقِيمةٍ
وَإِذَا كَانَت أَشْرِطَةُ الصِّدَارِ غَيْرَ مَعْقُودَةٍ
فَلا تَهْتَمِّي
وَتَعَالَي ، على حالَتِك ولاَ تتبَاطَئِي فِي التَّزيُّنِ
تَعَالَي فَوْقَ العُشْبِ بِخُطُواتٍ سَرِيعَةٍ
فَإِذا انفَسَخَ الأَحْمَرُ بِسَبَبِ النَّدَى
وتَراخَت الخلاخِيلُ التي تَرِنُّ في قَدَمَيْكِ
وتَساقَطَت حَبَّاتُ قِلادَتِكِ
فَلا تَهْتَمِّي
فَلاَ تَهْتَمِّي
تَعَالي ، فَوقَ العُشْبِ بِخُطُواتٍ سَرِيعَةٍ
ألا تَرِيْنَ السُّحُبَ تُغَطِّي السَّماءَ
وأَسْرابَ الطُّيُورِ تَرْتَفِعُ للتَحْلِيقِ
مِن فَوقِ الضفَّةِ الأُخْرَى لَلنَّهْرِ
والقُطْعَانَ الخَائِفَةَ تُسْرِعُ نَحْوَ الحَظائِرِ

أَلا تَرَيْنَ السُّحُبَ تُغَطِّي السَّمَاءُ
حينَ تُوقِدِينَ مِصْباح غُرْفَةِ الزِّينَةِ
يَتَرَنَّحُ اللَّهْبُ ثُمَّ تُطْفِئُهُ الرِّيحُ
فَمِنَ الذِي يَفْطَنُ إِلى أن رُمُوشَكِ لَم تُصْبَغْ بالظِلالِ
إن عَيْنيكِ أشَدُّ سَوادًا مِن السُّحُبِ القاتِمَةِ
فَمن العَبَثِ أن تُوقِدِي مِصْباح غُرْفَةِ الزِّينةِ
تَعَالَى ، عَلَى حَالَتِكِ
ولا تَتَباطئي في التَزيُّنِ
إذا كانَ العِقْدُ غَيْر مَنْظُومٍ
فلا يَهُمُّ
وإذا كَان السِّوارُ غَيْر مُقْفَلٍ
دَعِيهِ عَلَى حَالِهِ
إنّ السَّماءَ مُغَطَّاةٌ بالسُّحُبِ
والوَقْتُ مُتأَخِّرٌ
تَعَالَى عَلَىَ حالَتِكِ
ولا تَتَباطئي في الزِّينةِ .

12

تعالَيْ ، تَعَالَيْ إلى بُحَيْرَتِي إذا كُنْتِ تُرِيدِينَ أن تُلْقِي بِنَفْسَكِ في الماءِ
إذا كُنْتِ تُرِيدِينَ أن تَكُونِي مَجْنُونَةً
وإذا كُنْتِ تَبْحَثِينَ عَنْ المَوْتِ غَرَقًا
تعالَي ، تَعَالي إلى بُحَيْرَتِي
إنها بُحَيْرَةٌ بَارِدَةٌ وعَمِيقَةٌ
ومُظْلِمَةٌ مِثْلَ نَوْمٍ بلاَ أحْلام
وفي أغْوارِهَا يَسْتَوِي اللَّيْلُ والنَّهَارُ
والأُغْنِياتُ فيهَا هي الصَّمْتُ
تعَالَي
تعالَي إلى بُحَيْرَتِي
إذَا كُنْتِ تَرْغَبِينَ في أن تُلْقِي
بِنَفْسِكِ في أحْضَانِ المَوْتِ
إذا كُنْتِ تُرِيدِينَ أن تَمْلَئِي جَرَّتَكِ

تَعَالَي ، تَعَالي إلى بُحَيْرَتي
فَالمَاءُ سَيُطَوِّقُ قَدَمَيْكِ
وَيَهْمِسُ إليْكِ بِسِرِّهِ .
وعلى الرَّملِ .
ظِلالُ المَطَرِ القادِمِ
والسُّحُبِ عَلَى مَسَافَةٍ مَنْخَفِضَةٍ
فوْقَ الجَانِبِ الأزْرَقِ مِن الأشْجَارِ
كالشَّعْرِ الكَثيفِ المُنْسَدِلِ عَلَى عَيْنَيْكِ
إني أعْرِفُ تَمَامًا وَقْعَ خُطُواتِكِ
إنَّهَا تَدُقُّ في قَلْبِي
فَتَعَالَي ، تعَالَي إلى بُحَيْرَتي
إذا كُنْتِ تُرِيدِينَ أن تتَكَاسَلي
وتجْلِسِي في خُمُولٍ
وَتَدْعي جَرَّتَكِ تَطْفُو فَوْقَ المَاءِ
تَعَالَي ، تَعَالَي ، إلى بُحَيْرَتي
إنَّ المُنْحَدر المُعْشِبِ مُخْضَرٌّ

وزُهُورُ الحَقْلِ لا تُحْصَى

ومن عَيْنيكِ السَمْرَاوَيْنِ

تَجُوبُ أفْكارُكِ

مِثْلَ الطُّيورِ خارِجَ أعْشاشِهَا

وَسَيَسقُطُ خِمارُكِ عَلَى قَدَمَيْكِ

تعالَى ، تَعَالَي

إذا كُنْتِ تُرِيدِينَ الجُلُوسَ فِي اسْتِرخَاءِ

إذَا كُنْت تَرْغَبين في تَرْك لُعْبَتِكِ والغَوْص في المَاءِ

تَعَالَي ، تَعَالَي إلى بُحَيْرَتِي

دَعي لِحَافَكِ الأزْرَقَ على الضفَّةِ

فالمِيَاهُ الزَّرْقَاءُ سَتسْتُرُكِ وتُخْفِيكِ

وتَرْتَفِعُ الأمْوَاجُ عالِيَةً لِتُقَبِّلَ عُنُقَكِ

وتَهْمِسَ في أُذُنَيْكِ

3

لَمْ أَطلُب شَيْئاً.

اكْتَفَيْتُ بالوقُوفِ عند نِهايةِ الغَابةِ

مختفياً وراءَ شجرةٍ.

عيونُ الفجر ما تزالُ واهِنَةً

والنَّدَى ما يزالُ عَالِقاً بالجَوِّ

والعِطْرُ الكَسُولُ المُنْبَعِثُ من العُشْبِ المُبَلَّلِ ،

يُرَفْرِفُ عَبْر الضَّبابِ الخَفِيفِ

فَوْق الأرضِ

وَتحت الشَجَرةِ

كنتِ تَحْلُبين البقرةَ بِيَدَيْكِ النَّاعِمَتَيْنِ الطَّرِيَّتَينِ طَراوةَ الزُّبْدَةِ

ولَبِثتُ وَاقِفاً أتَأَمَّلُكِ

لم أَفُهْ بِكَلِمَةٍ واحدةٍ

كان العصفورُ المُختَفِي وراءَ الأدغال يُغَنِّي

والمَانْجَا تُسَاقِطُ زُهُورَها عَلَى طَرِيقِ القَرْيَةِ

والنَّحل يَطِنُّ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى

وعِنْدَ حَافَة المُسْتَنْقَعِ

كان بابُ معبدِ (شِيفَا) مَفتُوحاً

وقد أَخَذَ المؤمنُ يُنْشِدُ تَراتِيلَه وأَغانِيهِ

والسَّطْلُ في حضْنِكِ

كُنْتِ تَحْلُبِين البَقَرَةَ

ولَبِثْت أنا وَاقفاً بِوِعَائِي الفَارِغِ

وَلَم أقْتَرِب مِنْكِ

واستَيْقَظتِ السَّماءُ عَلَى صَدَى طَبْل المَعْبَدِ

وحَوافِرُ البَهَائِم التي تُقَادُ إلى المَرْعَى

كَانَت تُثِيرُ غُبارَ الطَّريقِ

وبَعْضُ النِّسَاءِ يُقْبِلْنَ مِن النَّهْرِ

وفَوْقَ أَكْتَافِهنَّ الجَرِارُ المَلآى

وأَسْورتُك كَانَت تَرِنُّ

والرَّغْوَةُ تَفِيضُ عن السَّطْلِ

وانقَضَى الصَّباحُ

وَلَم أَقْتَربْ مِنْك

(14)

كُنْتُ أَمْشِي طُولَ الطَّرِيقِ

ولا أَعْرِفَ لِمَاذَا أَمْشِي

لَقَد مَضَى نِصْفُ النَّهَارِ

وكانَت أَشْجَارُ البَامْبُو تَبْعَثُ حَفِيفَها مَع حَرَكَة الرِّيَاحِ

والظِّلاَلُ المَائِلَة بِأَذْرُعِها المُمْتَدَّة تَدُكُّ

أَقْدَامَ النُّور الهَارِبِ

والكُورَس قَد تَعِب مِن الغِنَاءِ

وأنا أَمْشِي طُولَ الطَّريقِ

ولا أَعرِف لِمَاذا أَمْشِي.

أن الكُوخَ القَائِمَ عَلى ضفَّةِ النَّهْرِ

كَانَت تُظَلِّلهُ شَجَرَةٌ وَارِفَةٌ

وامرأةٌ مشغُولَةٌ بأَعْمَالِها

فَأسْمَعُ رَنِين أَسْوِرَتِها

وقَد توَقَّفْتُ قُرْبَ ذَلِك الكُوخِ

دُون أن أَدْرِي

والطريقُ الملتويةُ الضَيِّقَةُ

كانَت تُحاذِي الكَثِير من الحُقُولِ

والعَديدَ من غَابَاتِ المَنْجَا

وتَمُرّ قُرْبَ مَعْبدِ القَرْيَةِ .

أمَّا السُّوق فكَان عند مَرْسَى النَّهْرِ

وَتَوَّقفْتُ قربَ الكُوخِ

دُون أَنْ أَدْرِي لِمَاذَا؟

كَان يَوْماً مِن أَيَّامَ مَارِس

شَدِيدَ الرِيَاحِ

ومنذُ أَعْوامِ

عِنْدَما كان يَخْفُتُ هَمْسُ الرَّبيعِ

وتَسْقُطْ زُهورُ المَانْجا

واحِدةً بَعْدَ أَخْرُى في التّراب

كَانتَ المِيَاهُ العَكِرَة تَلْعَقُ

السَطْلَ البُروُنْزِي عِند مَدْرَجِ المَرْسَى

وأُفكِّرُ في ذَلك اليَوْمِ مِن مَارِس

دُون أنَ أَدْرِي .

إن الظِّلاَل تَتَدَاخَلُ

والقُطعانُ تعودُ إلى حَظَائِرها

والنُور قَد اتَّخَذَ لَوْناً رَمَادِياً فَوْقَ الحُقُولِ المُوحِشَةِ

والفلاَّحون يَنْتَظِرُون زَوْرَق العُبُورِ

وأَعُودُ أَدْرَاجي بِبُطْء

ولاَ أَدْرِي لِمَاذا أَعُودُ؟

15

أَجْرِي مِثْلِ الوَعْلِ

الذي يَعْدُو في ظِلاَل الغَابِ

مَجْنُوناً بِرَائِحَة المِسْكِ التي تَفُوحُ مِنْهُ

الليلةُ من لَيالِي مَايُو

والنَّسيمُ يَهُبُّ من الجَنُوبِ

وقد ضَلَلْتُ طَرِيقِي

ومع ذَلك فَإنّي أَمْشِي

أَبْحَث عَمَّا لاَ أَحْصلُ عَلَيْه

وأَحصلُ على ما لاَ أَبْحَثُ عَنْه

ومِن قَلْبِي ، تَخْرُجُ رَاقِصَةً

صُورةُ رَغَبَاتِي

والرُّؤْيَا الخَاطِفَةُ تَهْرُبُ مِنِّي

فَأَحَاوِلُ القَبْضَ عَلَيها بِقُوَّةٍ

ولَكِنَّها تُرَاوِغُنِي وَتفْلِتُ مِنِّي

إِني أَبْحَثَ عَما لاَ أَحْصلُ عَلَيْه

وأَحْصل على ما لاَ أَبْحَثُ عَنْه

16

اليَدَان تَشُدَّانِ عَلى اليَدَيْن

والعينَانُ تُديِمَان النَّظَرَ في العَيْنَيْنِ

هَكذَا بَدأَت قِصَّةُ قَلْبَيْنَا

كَانَت لَيْلَةَ البَدْرِ مِن شَهْرَ مارِس

وفي الجَوِّ يَعْبُقُ عِطْرُ الحِنَّاءِ العَذْبِ

ونَظْمُكَ عِقْدَ الأَزْهَارِ، لَم يَنْتَهِ بَعْدُ.
إِنَّ الحُبَّ بَيْني وَبيْنَكِ
بَسِيطٌ مِثل أُغْنِيَّةٍ.
وِشَاحُكِ الزَّعْفرانِي
يَمْنَحُ عَيْنِي نَشْوَةً.
وإكلِيلُ اليَاسِمينَ الذِي تَضْفُرِينَه
كَان يُثيرُني ويُحَرِّكُني كَقصِيَدةٍ
مَدِيح
إنَّها لُعْبَةُ العَطَاءِ والمَنْعِ
والكَشْف ثُمَّ العَوْدَة إلى الإخْفَاء
الا بتِسَامَات والحَيَاء
والصِّرَاعَات العَابِثَة اللَّذِيذَة
إن الحُبَّ بَيْني وبَيْنَكِ
بَسِيطَ مِثَل أُغْنِيَّةٍ
لاَ سِرَّ أَبْعَدَ من الحَاضِرِ

ولا صِرَاعَ مِن أَجْل المُسْتَحِيل
وَلاَ ظِلٌ وَرَاءَ الانْدِهَاشِ
ولا بَحْثَ في الظَّلاَمِ
إن الحُبُّ بَيْني وَبَيْنِكِ
بَسِيطٌ مِثل أُغْنِيَّةٍ
لاَ نَطُوفُ عَلَى أَبْعَدَ مِن الكَلِمَاتِ
بَحْثاً عن الصَّمْتِ الخَالِد.
ولا نَرْفَعُ أَيْدِينَا في الفَضَاءِ
بَحْثاً عن أَشْياءَ أَبْعَدَ من الأَمَلِ.
مَا نُعْطِيهُ ونَحْصلُ عَلَيْه
يَكْفِينَا.
ولَمْ نَطْرُدِ البهْجَةَ
لِنَعْصِرَ نَبِيذَ الألم.
هَذَا الحُبُّ بَيْني وبَيْنَكِ
بسِيطٌ مِثْل أُغْنِيّةٍ

17

العُصْفُورُ الأَصْفَرُ يُغَنِّي فَوْق شَجْرَتِهِم

فَيُرْقِصُ قَلْبي بِالبَهْجَةِ

نَحْنُ نَعِيشُ في القَرْيةِ نفسها

وهَذا يَجْعَلُني سَعِيدا

إن خروفَيْها الأَثِيرَيْن

يَرْعَيَان في ظِلٍّ أَشْجَارِ حَدِيقَتِنِا

فَإذا شَرَدا في حَقْل الشَّعِير

اخَذْتُهُمَا بين ذِرَاعيّ

اسْمُ قَرْيَتنا خنْجَانَا

وَنهْرُنَا يُسَمَّى انجَانَا

وكُلُّ القَرْيَةِ تَعْرِفُ اسمِي

أَمَّا هي فَتُدْعَى رانجانا

لاَ يَفْصِلُ بَيْنَنا حَقْلٌ

فالنَّحْلِ الذي يُنْشِيء خلاياهُ في غابَتِنَا
كَان يَطِيرُ بَحْثا عن الرَّحيق في زُهُورِ أحْرَاشِهِم
والأزْهَارُ التي تَتَساقَطُ عِنْدَ مَرْسَاهُم
كَانَت تَطْفُو عَائِمَةً فَوْقَ الجَدْول
حتّى تَبْلُغَ المَكَان الذي نَسْبَحُ فِيهِ
وَسِلاَلُ زُهُورِ الكَسْمِ الجافَّةِ
كَانَتْ تَأتِي من حُقُولِهِم إلى أسْواقِنَا
إن اسم قَرْيَتِنَا خَانْجَانَا
واسم نَهْرنا انْجَانَا
وكُلُّ القريةِ تَعْرِفُ اسْمِي
أمَّا اسمُهَا فَهُو رَانْجانَا
إن الطَّرِيق التي تُؤدِّي إلى بَيْتِهَا
مُعَطَّرَةٌ في الرَّبيع بأزهَارِ المَانْجُو
وعِنْدَما يَكُون الكَتَّانُ مُهَيَّئًا للجَنْي لَدَيْهم
تُزْهِرُ الكَنَبا في حَقْلِنَا
والنُّجومُ التي تَضْحَكُ لِبَيْتِهِم

تَنْظُر إلينَا بالنَّظْرَةِ الغَامِزَةِ نَفْسِهَا
والمَطَرُ الذي يَمْلأُ صِهْرِيجَهم
يُنْعِشُ غابَتِنَا المُكَوَّنَة مِن أشْجَارِ الكَدْم
إن قَرْيَتَنَا تُسَمى خانْجَانَا
وكُلُّ القَرْيَةِ تَعْرِفُ اسمي
واسمُها هي رانْجَانَا

18

عِنْدَما تَخْرُجُ الأُخْتَانِ لِجَلْبِ المَاء
تأْتِيان من هَذَا الجانِب ، وَتَبْتَسِمَانِ

لا بدَّ أنَّهما تَعْلَمَانِ أنَّ أحَدًا ما يخْتَفِي خَلْفَ الشَّجَرَةِ
في كُلِّ المرَّاتِ التي تَخْرُجَانِ فِيهَا لِجَلْبِ المَاءِ
وَعِنْدَما تَمُرَّانِ مِن هَذَا الجانِب مِن الطَّريق
تَتَهامَسَانِ
فَلاَ بُدَّ أنَّهما خَمَّنتا سِرَّ ذلك الذِي يَتَجَسَّسُ عَلَيْهِمَا
خَلْفَ الشَّجَرَةِ
في كُلِّ المَرَّاتِ التي تَخْرُجَانِ فِيهَا لِجَلْبِ المَاءِ

وعِنْدَما تَبْلُغَانِ هَذِهِ الجِهَةِ
تهتزُّ جَرَّتاهُما وَيَنْكَسِبُ مِنْهُما المَاءُ
فلا بُدَّ أنَّهما اكتَشَفَتَا أنَّ القَلْبَ يَخْفقُ
وأنَّ وَاحِدًا يتجَسَّسُ عَلَيْهِمَا خَلْفَ الشَّجَرَةِ
في كُلِّ مَرَّةٍ تَخْرُجَانِ فِيهَا لِجَلْبِ المَاءِ
وعِنْدَمَا تَتَّجِهَانِ نحْوَ هَذِهِ الجِهَةِ
تَتَبادلُ الأخْتَان النَّظراتِ
وَتَبْتَسِمَانِ
وفي خُطُواتِهما السَّريعةِ
شَيءٌ يُشْبِهُ الضَّحِك

يُثِيرُ الاضْطِرابَ في عَقْل ذلكَ الذِي
يَخْتَفِي خَلْفَ الشَّجَرِ
في كُلِّ المَرَّاتِ التي يخْرُجانِ فيهَا لِجَلْبِ المَاءِ

19

تخْطرينَ عِنْدَ ضِفَّة النَّهْر
والجَّرةُ المَلأى فَوْق كَتِفِكَ
فَلِمَاذَا أدَرْتِ رَأسَكِ فَجْأةً
وأخَذْتِ تَرْمُقِينَني خَلْف خِمَارُكِ الرَّفَّافِ؟
تِلْكِ النَّظْرَةُ المُتَألِّقَةُ في الظَّلام
وَقَعَتْ في نَفْسي كَمَا يَقَعُ النَّسِيمُ الذِي يبْعث
رجْفَةً في المِياهِ العابسَةِ
ثمَّ يَهْرُبُ إلى الضَفَّةِ الظَّلِيلَةِ
بَلَغَتْنِي كَمَا يَبْلُغُ عُصْفُورُ المَسَاءِ
الذي يَعْبرُ الغُرْفَةَ المُظْلِمَةَ
طائِرًا مُحَلِّقًا في سُرْعَةٍ من شُرْفَةٍ إلى أخْرَى
ثم يَخْتَفِي في اللَّيْلِ الحَالِكِ
خَلْفَ الحِجَابِ

وفي الظِّل تَخْتَفِينَ
كَمَا تَخْتَفِي النَّخْمَةُ خَلْفَ الهِضَابِ
وأنا عابِرُ طَرِيقٍ
فَلِمَاذَا تَوَقَّفْتِ لَحْظَةً .
وَنَظَرْتِ إليَّ من وَرَاَ خِمَارِك
حينَ كُنْتِ تَخْطُرِينَ عِنْدَ ضَفَّةِ
النَّهْرِ ، والجَرَّةُ الملآى فوْقَ كَتِفِكِ

20

يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ
يَأتِي ويَرْحَلُ
اذهَبِي إلَيْهِ
وأعطِيهِ زَهْرَةً من شَعْرِي

أرْجُوكِ
لا تُفْضِ إليه باسمي
لأنه وحْدَهُ يَأتِي وَيَرْحَلُ
تَحْتَ الشَّجَرَةِ يَجْلِس فَوْقَ الأرْضِ
فاجْعَلِي لَهُ مَقْعَدًا من الزُّهُور والوَرَقِ
إنَّ عَيْنَيْهِ حَزِينَتَانِ
يَحْمِلاَنِ إلى قَلْبِي الكآبَة
لا يَكْشِفُ أبَدًا عن أفْكَارِهِ
إنَّه فَقَط
يَأتِي ثُمَّ يَرْحَلُ

21

لِمَاذَا اختارَ أنْ يَجِيءَ إلي بَابِي
عِند نِهَايَةِ النَّهَارِ
ذلكَ الشَّاب الجَّوابُ ؟

فِي خُرُوجِي ودُخُولِي
أمَرّ بالقُربِ مِنْهُ
وقَد أخذَتِ عيْنَايَ بِمُحَيَّاهُ الجَمِيلُ
لا أدْرِي إذا كان مَن الوَاجِب أن أُكَلِّمَهُ
أم ألتزِمَ السُّكُوتَ
فَلِمَاذَا اخْتَار أنْ يَجَيء إلى بابِي ؟
إنّ اللَّيالي المَكْسُوَّةَ بالسَّحَابِ في شَهْرِ يُولَيُو
مُظْلِمَةٌ
وَسَمَاءُ الخَرِيف ذَات زُرْقَةٍ شَاحِبَةٍ
وأيَّامُ الرَّبيع المُشْرِقَةِ قد هَيَّجَتْهَا رِيحُ الجَنُوبِ
إنَّهُ يَنْسِجُ أغَانِيهِ
كلَّ مَرَّةٍ يأتِي بِألْحَانٍ جَدِيدَةٍ
أنْزِعُ نَفْسِي مَن العَمَلِ
وَعَيْنَاي مليئَتَانِ بالضَّبابِ
لِمَاذَا اخْتَار أنْ يَجِيءَ إلى بَابِي ؟

22

عِنْدَما مَرَّت بالقُرْبِ مِنِّي
بِخُطُواتٍ سَريعَةٍ
لَمَسَتْني بِرِقَّةٍ
حافَّةُ تَنُّورَتِهَا
ومن الجَزيرَةِ المَجْهُولَة لأَحَدِ القُلوبِ
هَبَّ فُجَأَةً نَسِيمٌ رَبيعِيٌ دَافِيءٌ
رَجْفَةٌ من لَمْسَةٍ خاطِفَةٍ
مَسَّتْني وتلاشَتِ في لَحْظَةٍ
مِثْل بَتْلَةِ زَهْرَةٍ مبْتُورَةٍ
مَحْمُولَةٍ عَلَى أجْنِحَةِ النَّسِيم
واستقَرَّتِ في قَلْبِي
مَثْل تَنْهيدَةٍ من جَسَدِهَا وَهَمْسَةٍ من قَلْبِهَا

23

لِمَاذَا تَبْقِينَ جَالِسَةً هُناكَ
تُشَقْشِقِينَ أَسْوَرَتِكِ
هل تَفْعَلِينَ ذلك من أجْلِ اللَّعبِ فَحَسْبَ ؟
امْلَئي جِرَّتَكِ
لَقَدْ حَانَت سَاعَةُ العَوْدَةِ إلى البيْتِ
لِمَاذَا تُحرِّكِينَ المَاءَ بِيدَيْكِ
وَتَنْظُرِينَ مِن حينٍ إلى آخر إلى الطَّريقِ
لِتَري مَاذَا إذا كَانَ ثَمَّةَ قَادِمٌ ؟
أتفعَلِينَ ذلِكَ مِن أجْل اللَّعِبِ فِحِسْب ؟
املَئي جرَّتَكِ وعُودِي إلى البيْت
سَاعاتُ الصَّباحِ تَمْضي
والماءُ يجْري قاتِماً
والأمواجُ تَضْحَكُ وتتَهَامَسُ فيمَا بَيْنَها
من أجْلِ اللّعبِ فَحَسْب .

والسُّحُبُ الشَّارِدَةُ
تَجَمَّعَت عِنْدَ حافَةِ السَّماءِ
فَوْقَ هَضَبَةٍ عالِيَةٍ
إنَّهَا تَتمهَّلُ وَتُحَدَّقُ في وَجْهَكِ
وَتَبْتَسِمُ
من أجْل اللّعبِ فَحَسْبُ
فاملَئي جَرَّتَكِ وتعالي إلى البيتِ

24

لا تُخْفِ أسْرارَ قَلْبك يا صَدِيقي
وافْضِ بِهَا إليَّ سرًّا
إليَّ أنا فَحَسْب .
أنتِ الذي تَبْتَسِمُ بِلُطْفٍ

اهْمِسْها بِخُفوتٍ
فإنَّ قَلْبي هُو الذي يُصْغي إليها
وَلَيْسَتْ مَسَامِعي.
إن اللَّيلَ عَميقٌ
والبيتَ صَامتٌ
وأعْشَاشَ الطُّيورِ يَكْسُوها النُّعاسُ
فقُلْ لِي
بينَ الدُمُوعِ المُتردِّدةِ
والابتسَامَاتِ الحَائِرَةِ
والالم المَريرِ، والخجَلِ الحُلْوِ
أسْرَارَ قَلْبِكَ

25

تَعالَ، أيُّهَا الشَّاب
وقُلْ بِصِدْقٍ

لِمَاذَا هَذَا الجُنُونُ البَادِي بِعَيْنَيْكَ
ـ لا أَدْرِي أيَّ نَبِيذٍ
من أنْبِذَةِ الخَشْخَاشِ الوَحْشِي شَرِبْتُ
ولِذَا كَانَ هَذَا الجُنُونِ بِعَيْنَي
ـ يا للعَارِ !
ـ حسنًا إن بَعْضِ النّاسِ حُكَمَاءُ
وبَعْضَهُم واعُون مُتَبَصِّرُونَ
وآخَرُونَ طَائِشُونَ مُتَهَوِّرُونَ
وهُناكَ عُيُونٌ بَاسِمَةٌ
وهُناك عُيُونٌ باكِيَةٌ
وفي عَيْنَيّ جُنُونٌ
ـ أيُّهَا الشَّاب
لِمَاذَا أنْتَ ثَابِتٌ تَحْتَ ظِلِّ الشَّجَرَةِ ؟
ـ إن قَدَمَيَّ مُتْعَبَتَانِ
تَحْتَ ثِقْل قَلْبِي
ولِذَا وَقَفْتُ إلى ظِل الشَّجَرَةِ
ـ يَا لَلعَارِ !

ـ حَسَنًا إنّ بَعْضَ النَّاس يسيرونَ في طَرِيقِهم
وَبَعْضَهم يَتَباطَأُ وَيَتَوقَّفُ في سَيْرِهِ
بَعْضَهم أحْرَار
وَبَعْضَهم مُقَيَّدُونَ
إنَّ قَدَمَيَّ مُتْعَبَتَانِ
تحتَ وطأة قَلْبِي

26

إنِّي أَتَقَبَّلُ كُلَّ مَا يأْتِي مِنْ يَدَيْكِ الكَرِيمَتَيْنِ
ولا أطْلُبُ شَيْئًا آخرًا
« أجَل .. أجَل إنِي أعْرِفَكَ أيُّهَا الشحَّاذُ المُتَواضِعُ
إنَّكَ تَطْلُبُ كُلَّ ما نَمْلِكُ
إذا كَانَت هُناكَ زَهْرَةٌ تَائِهَةٌ

فَسَأحْمِلُهَا في قَلْبِي
ـ وإذا كَانَت ثَمَّةَ أشْوَاك ؟
ـ سَوْفَ أتَحَمَلُّهَا
ـ أجَل ، أجَل إني أعْرِفُكَ أيُّهَا الشَحَّاذُ المُتَواضِعُ
إنَّكَ تَطْلُبُ كُلّ ما نَمْلِكُ
إذا رَفَعْتِ مَرَّةً وَاحِدَةً
عَيْنَيْكِ الحَبِيبَتَيْنِ إلى وَجْهِي
فإنَّكَ سَتَجْعَلِينَ حَيَاتِي حُلْوَةً ، بَعِيدَةٌ عن المَوْتِ
ـ ولَكِن إذا كَانَت هُنَاكَ نَظَراتٌ قَاسِيَةٌ
ـ سأُمْسِكُها لأطْعَنَ بهَا قَلْبِي
أجَلْ ، أجَلْ إنِي أعْرِفُكَ أيُّهَا الشَحَّاذُ المُتَواضِعُ
إنَّك تَطْلُبُ كُلَّ ما نَمْلِكُ

27

ثِقِي في الحبِّ

ولَو عَذَّبَكِ

ولاَ تُغْلِقي قَلْبَكِ

(آه يا صَديقي

إنَ كَلَماتِكَ غَامِضَةٌ

لا أَقْدِرُ عَلَى فَهْمِهَا)

إِنَّ القَلْبَ يَا حَبِيبتِي قَد وُجِدَ

لِكَي نَهَبَهُ مَع دَمْعَةٍ وأَغْنِيَةٍ

(آه ، لاَ يَا صَدِيقي إن كَلمَاتِكَ غَامِضَةٌ

ولاَ أَقْدِرُ عَلَى فَهْمِها)

إِن اللَذَّةَ رَهِيَفةٌ هَشَّةٌ

مِثْل قَطْرَة النَّدَى

مَا تَكادُ تَضْحَكُ حَتَى تَمُوتَ

ولَكِن الأَلَم قَوِيّ ودَائِمٌ

دَعي الحُبَّ الحَزِينَ

يَسْتَيْقِظ في عَيْنَيكِ

(آه لاَ صَدِيقي
إن كَلماتِكَ غَامِضَةٌ
ولاَ أَقْدِرُ عَلَى فَهْمِها)
إِنَّ زَهْرَةَ اللُّوتَسُ تُزْهِرُ للشَّمْسِ
ثُمَّ تَفْقِدُ كُلَّ مَا لَدَيْهَا
لاَ تَرْغَبُ في أَن تَكُونَ مُزْهِرَةً
في ضَبَابِ الخَرِيف الخَالِدِ
آه ، لاَ ، يَا صَدِيقي
إِن كَلَماتِكَ غَامِضَةٌ
ولا أَقْدِرُ عَلَى فَهْمِهَا

28

عَيْنَاكِ تَسْأَلاَنِي في حُزْنٍ
تُرِيدَانِ مَعْرِفَةَ أَفْكَارِي
مِثْلَ القَمَرِ الذِي يُرِيدُ أَنْ يَسْبِرَ أَغْوَارِ البَحْرِ

مُنْذُ البِدَايَةِ
وحَتَّى النِهَايَةِ
عَرَّيْتُ حَيَاتي أَمَامَ عَيْنَيْكِ
دُون أَن أُخْفِي شَيْئاً، أَوْ أَصُونَ شَيْئاً
ولِهَذَا السَّبَب لَم تَعْرِفِيني
لَوْ كُنْتُ جَوْهَرَةً
لَهَشَّمْتُها أَلْفَ قِطْعَةٍ
لأَصْنَعَ بِهَا عِقْداً يُطَوِّقُ عُنُقَكِ
لَوْ كُنْتُ زَهْرَةً مُسْتَدِيرَةً، صَغِيرَةً، حُلْوَةً
لَقَطَفْتُها مِن غُصْنِها لأضَعَها فَوْقَ شَعْرِكِ
ولَكِنَّه قَلْبِي أَيَّتُها العَزِيزَةُ الحَبِيبَة
أَيْنَ هي شَواطِئُه وأَيْن أَعْمَاقُهُ؟
إِنَّك تَجْهَلِين حُدُودَ هَذِه المَمْلَكَةِ
ومَع ذَلِكَ فَأَنْتَ مَلِكَتُها المُطْلَقة.
لَوْ كُنْتُ فَقَط لَحْظَةَ فَرَحٍ

لأَزْهَرْتُ في ابتِسَامَةٍ بَسِيطَةٍ

تَفْهَمِينَها فِي لَحْظَةٍ

ولو كُنْتُ الأَلمَ وَحْدَه لتَحَلَّلَ في دُمُوعٍ صَافِيَةٍ

كَاشِفاً أَعْمَقَ أَسْرَاره، دُون أن يَنْبس بِكَلِمَةٍ

ولَكِنَّه قَلْبِي يا حَبِيبتِي

أَفْرَاحُه وأَحْزَانُه لاَ حُدُودَ لَها

غِنَاهُ وَرَغَبَاتُه لا نِهَايَةَ لَهَا

إِنَّه قَرِيبٌ مِنْكِ مِثل حَيَاتِكِ

ولَكِنَّك لاَ تَسْتَطِيعِين فَهْمَهَ فَهْماً تَامّاً

29

تَحَدَّثْ إليّ يَا حَبِيبي

قُلْ لِي كَلِمَاتٍ

مَا تَقُولُه في أُغْنِياتٍ

إِنَّ اللَّيْلَ مُظْلِمٌ.

والنُّجُوم مُخْتَفِيةٌ وَرَاءَ السُّحُبِ
والرِّيحُ تَهُبُّ وتُصفِّرُ خِلاَل الأَوْرَاقِ
سَوفَ أَضْفِرُ شَعْري
ويُطَوِّقُني بُرْنُسي الفَيْرُوزيّ كَأَنَّه اللَّيْلُ
سأَضُمُّ رَأْسَك إِلى صَدْرِي
وهُنَاك في تِلْكَ الوَحْدِة العَذْبَةِ
أُغْمِضُ عَيْنَيّ وأُصْغِي إِليكَ
وحِينَ تَتَوَّقفُ كَلِمَاتُك
نَجْلِسَ ساكِنَيْن في صَمْتٍ
إِن الأَشْجَارَ وَحْدَها هي التي تَتَهامسُ في الظَّلاَمِ
وَيَشْحُبُ اللَّيْلُ
ويَبْزغُ الفَجْرُ
وتَلْتَقِي نَظَراتُنَا لِلمَرَّة الأَخِيرَةِ
ثُمَّ يَأْخُذُ كُلٌّ مِنَّا طَريقه
تَحَدَّث إِليّ يَا حَبِيبي

قل لي في كَلِمَاتٍ
مَا كُنْتَ تَقُولُه في أُغْنِيَاتٍ

30

أَنْتِ سُحُبُ المَسَاءِ
التي تَجُوبَ سَماءَ أَحْلاَمِي
إِنِي أرْسُمُكِ وأشكِّلكِ
بأَشْواقِ حُبِّي
أنتِ لي . . لِي أَنَا فَقَط
أَيَّتُها السَّاكِنَة أَحْلاَمي اللاَّنِهَائِيَّة
إِن قَدَمَيْكِ مُوَرَّدَتَانِ
بِلَهِيبِ أَشْوَاقِي
أَيَّتُها الجَانِيَةُ لأُغنِيَاتي عند الغُرُوبِ .
من طَعْمِ نَبِيذِ أَلَمِي
كان لِشَفَتَيْكِ ذَلِك المَذَاق الحُلْوُ المُرُّ

أَنتِ لي ، لِي أنا فَقَط

أَيَّتُها السَّاكِنَة أَحَلاَمِي المُنْفَرِدَة

بِظِلاَل غَرامِي

ظَلَّلْتُ عَيْنَيْكِ

أَيَّتُها الزَّائِرَةُ لأَعْمَاقِ نَظَراتِي

لَقَد أَمْسكْتُ بِكِ وسَأَضُمُّكِ

في شَبَكَةِ مُوسِيقَاي

فَأَنْتَ لِي

أَنا وَحْدِي

أَيَّتُها السَّاكِنَةُ أَحْلاَمِي الخَالِدَة

31

إِنَّ قَلْبِي ذَلِك العُصْفُور الصَّحْرَاوِي

وَجَدَ سَماءَهُ

في عَينيْكِ

هُمَا مَهْدُ الصَّبَاحِ

هُمُا مَمْلَكَةُ النُّجُومِ

وفي أعْمَاقِهِما تَضِيعُ أُغنيتي

دَعِيني فَقَطْ

أَتَحَرَّر وأَنْطَلِق في تِلك السَّمَاءِ

وفِي وَحْدَتِها اللاَّنِهَائِيَّة

دَعِيني أَخْتَرِق سُحُبَها

وأَبْسِطُ جَنَاحِي في شَمْسِها المُشْرِقَة

32

قُلْ لِي يَاحِبِيبي إِذَا كَان هَذا حَقّاً

قُلْ لِي ، إِذَا كَانَ هَذَا كُلُّه حَقّاً.

حِينُ تُلْقِي هَذهِ العُيُونُ بُرُوقَها

وتُعْطِي السُّحُبُ القَاتِمَةُ في صَدْرِكَ

رُدُودَها العَاصِفَةَ.

أَحَقًّا أنَّ شِفَاهِي عَذْبَةٌ مِثل بُرْعُمِ الحبِّ الأوَّلِ؟

وأن ذِكْرَيَات شَهْرِ مَايُو الغَابِرَةَ تَتَمَطَّى فَوْقَ أَعْضَائِي

وأن الأَرْضَ تُصْبحُ كالقِيثَارِ

وتَهْتَزُّ بالأَغَاني عِنَد وَقْع أَقْدَامِي

أحقًّا أنَّ قَطَرَاتِ النَّدَى تَسْقُطُ مِنْ عُيُونِ الليْل

عِندَ ظُهُورِي؟

وأن ضَوْءَ النَّهَارِ سَعِيدٌ حِينَ يَلُفُّ جَسَدِي؟

أحقًّا، أن حُبَّكَ رَحَلَ عَبْرَ الأزْمَانِ والبلْدان

بَحْثاً عَنّي؟

وأنّك حِينَ عَثَرْتَ عَليّ أخِيراً

وَجَدَ شَوْقُكَ العَرِيقُ

سَلاَمهَ الكَامِلَ

في لُطْفِ حَدِيثي

وفي عَيْنَيَّ

وفي شَفَتَيَّ

وفي شَعْرِي المُتَدَفِّقِ المُنْسَابِ

وقُل لِي أَخِيراً، إذا كَان حَقّاً

أن سِرَّ اللاّنِهَائِي

مَكْتُوبٌ على جَبِيني الصَّغِيرِ

قُلْ لِي

إِذَا كَانَ هَذا كُلّه حَقيقَة

33

أَنَا أُحُبُّكَ يا حَبِيبي

فَلْتَغْفِر حُبِّي

لَقد أَخْذِتُ مِثْلَ عُصْفُور ضَلَّ طَرِيقَهُ

وحِينَ أَهْتَزَّ قَلْبِي، سَقَطَ حِجَابُه

وَبَقِي عَارِياً

فلتَكْسُهُ بِرَحْمَتِكَ يَا حَبِيبي

ولتَغْفِر حُبِّي

إذا كُنْتَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحِبَّنِي

يَا حَبِيبي

فَلْتَغْفِر أَلَمِي

لاَ تَنْظُرْ إليَّ من بَعِيدٍ نَظَراتِ السُّخْطِ

إِني أَرْجَعُ إِلى رُكْني الصَّغِير

وأَجْلِسُ في الظَّلامِ

وبِكِلْتَا يَدَيّ أُغَطِّي خَجَلِي العَارِي

فَانظُر إليَّ يا حَبِيبي

ولتَغْفِرْ فَرَحي

وحِينَ تَلُفُّ قَلْبي

دَوَّامَةُ السَّعَادَةِ

فَلاَ تَسْخَرْ من استِسْلاَمي

وحينَ أَجْلِسُ فَوْقَ عَرْشِي

وأَطْغَى عَلَيْكَ بِحُبِيّ

وحِينَ أَمْنَحُكَ فَضْلِي كَإِلِهَةِ

فَلْتَتَحَمَّل اعتِزَازِيَ يا حَبيبي
ولتَغْفِرلِي سَعَادَتِي

(34)

لاَ تَذْهَبْ يَا حَبِيبِي دُونَ أَنْ تُخْطِرَني
لَقَد سَهِرْتُ اللَّيْلَ كُلَّه
والآن ، أَثْقَل النُّعَاسُ أَجْفَانِي
أَخْشَى أَنْ أَفْقِدَك في نَوْمِي
فَلاَ تذْهَبْ يا حبِيبي دَون أَن تُخْطِرَني
إِني أَصْحُو
وأَمُدُّ يَدِي لأَلْمَسَكَ ، وأَشْعُرَ بِكَ
وأَتَسَاءَل
هَل هُو حُلْمٌ؟
آه ، لَو أَمْكَن أَن أُمْسِكَ قَدَمَيْكَ
بِقَلْبِي

وأحتفِظَ بِكَ مَضْمُوماً إلى صَدْرِي
فَلاَ تَذْهَبْ يَا حَبِيبي دُون أَنْ تُخْطِرَني

35

مِن الخَوفِ الذِي يَعْرِفُكِ بِسُهُولَةٍ
تَلْعَبِينَ بِي
ولِكَي تُخْفِي دُمُوعَكِ
فَإنَّك تُعْمِينني بِضَحْكَاتٍ مُدَوِّيَةٍ
إنِّي أَعْرِفُ
أَعْرِفُ فَنَّكِ
أَنْتِ لاَ تُقُولِين الكَلِماتَ التي تَرْغبِينَ فِيهَا
وَخَوْفاً من ذَهابِ إعجَابِي بِكِ
فإنَّكِ تُراوِغِينَني بِأَلْفَ طَرِيقَةٍ
وخَوْفاً من الاختِلاطَ بأَغْمَار النَّاسِ
فَإنَّك تَنْعَزِلِين

إنِي أَعْرِفُ، أَعِرفُ فَنَّكِ
إنَّك لا تَسْلُكِين أبَداً الطَّريقَ التي تَرْغَبِين فِيهَا
وأَنْتِ تَطْلُبين أَكْثَر مِمَّا يَطْلُبُه الآخَرُون
ولِهَذا أَنْتِ صَامِتَةٌ
ثُمَّ وبَعَدِم اكتِرَاثٍ سَاخِرٍ هَازِيءٍ
تَرْفُضِينَ جَمِيعَ هِبَاتِي
إنِّي أَعْرِفُ، أعرف فَنَّك
إنَّكَ لاَ تَقْبَلِين أَبَداً مَا تَرْغَبِينَ فِيهِ

36

هَمَس
(يَا حَبِيبتِي ارْفَعِي عَيْنَيْكِ)
فَأَنَّبْتُه بِشِدَّةٍ
وقُلْتُ لَهُ أُغْرُبْ عَنِّي
ولَكِنَّه لَم يَتَحَرَّكْ

وظَلَّ وَاقِفاً أمَامِي
مُمْسِكاً بِيَدِي
قُلْتُ لَهُ دَعْني
ولَكِنَّه لَمْ يَذْهَبْ
وقَرَّبَ وَجْهَهُ مِن أُذُني
فَنَظَرْتُ إلَيه وقُلْتُ
- يا لَلعَار!
ولَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ
ولَمَسَ خَدِّي بِشَفَتَيْهِ
وقُلْتُ لَهُ مرْتَجِفَةً:
كَيْفَ تجرُؤُ؟
ولَكِنَّه لَم يَشْعُرْ بِالخَجَلِ
وَوَضَعَ زَهْرَةً في شَعْرِي
قُلْتُ لَهُ عَبَثاً تفعل ذلِكَ
ولَكِنَّه لَمْ يَتَأَثَّرْ

وأَخَذَ القِلاَدَةَ مِن عُنُقِي

وذَهَبَ دُونَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً

والآن، إنِّي أَبْكِي وأَسْأَلُ قَلْبِي

لِماذَا لاَ يَعُودُ؟

37

أَيَّتُها الجَمِيلَة

هَل تَرْغَبِينَ في أَنْ تَضَعِي قِلاَدَة زُهُورِكِ الطَّرِّية

حَوْلَ عُنُقِي؟

فَلْتَعْلَمِي أَن قِلاَدَتِي قَد نَظَمْتُها لِلْكَثِيرِينَ

لِلَّذِينَ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُم في الرُّؤَى الخَاطِفَةِ

أَوْ يَسكُنُونَ الأَقْطَار المَجْهُولَة

أَو يَعِيشُون في أُغْنِيَاتِ الشُّعَرَاءِ

لَقَد تَأَخَّرْتَ فِي طَلَبِ قَلْبِي بَدِيلاً عن قَلْبك

فَفي المَاضِي كانَت حَياتِي مِثْلَ البُرْعُم

الذي يَطْوي في أَعْمَاقِهِ كُلَّ رَحِيقِهِ

أَمَا الآن فقد تَبَدَّد هَذَا الرَّحِيقُ في كُلِّ جِهَةٍ

فَمَنِ الذي يَعْرِفُ فَنَّ السِّحْر حَتَّى

يَجْمَعَه ويُقْفِلَ عَلَيْه مِن جَدِيدٍ؟

لَقَدْ أَعْطَيْتُ قَلْبي لِلكَثِيرين

ولَم يَعد بِوِسْعِي

أن أَهَبَهُ لِوَاحِدَة فَقَط

38

يَا حبيبتي

ذَاتَ مَرَّةٍ

نَظَمَ شَاعِرُكِ في ذِهْنِهِ

مَلْحَمَةً شِعْرِيَةً عَظِيمَةً

ولكِنَّه لَم يَكُنْ حَكِيماً

فَذَهب يَنْطَحُ الخَلاَخِيلَ التي تَرِنُّ في قَدَمَيْكِ

فَغَرِقَ

وتَمَزَّق في قِطَعٍ من الأَغْنِياتِ

التي تَبْعَثَرت تَحْتَ قَدَمَيْكِ

وَذَهَبَت مَرْكَبَتِي المَشْحُونَةُ بِقَصَصِ الحُرُوبِ القَدِيمَةِ

ضَحِيَّةً للأَمْواجِ الضَّاحِكَةِ.

وَامتَلأَت بالدُّموعَ فَغَرِقَت

يا حَبِيبتي

عَلَيْكِ أَنْ تُعَوِّضيني عن هذه الخَسَارَةِ الفَادِحَةِ.

فإذَا كَانَ طُمُوحي إلى الشُّهْرَةِ الخَالِدَةِ بَعْدَ مَوْتي

قَد تَبَدَّدَ، وذَهَبَ شَظَايَا

فاجْعَلِيني

خَالِداً في حَيَاتِي.

ولَن آسفَ على خَسَارَتِي

ولَن أَلُومَكِ.

39

طوَالَ الصَّبَاحِ
حَاوَلْتُ أن أَضْفِرَ قِلاَدَةً
ولكِنَّ الزُّهُورَ كَانتَ تَفْلِتُ من أَصَابِعي
وتَسْقُطُ فَوْقَ الأَرْضِ
وأَنْتِ تَجْلِسينَ هُنَاك
وتْرقُبِينَنِي خفْيَةً
بِطَرفِ عيْنيْكِ الفُضُولِيَتَيْن
فَمَن هُو المُذْنِب؟
اسْأَلِي العَيْنَين اللتين تحِيكَان المَكِيدَةَ
في الظَّلام.
وعَبَثاً حَاوَلْتُ أَنْ أُغَنّي أُغْنِيَةً
فارتَجَفَت ابتِسَامَةٌ خَفِيَّةٌ فَوْق ثَغْرِكِ
اسْأَلِي هَذهِ الابتِسَامَة عَن سَبَبِ فَشَلي؟

اسْأَلِي شَفَتَيْكِ البَاسِمَتَيْنِ
كَيفَ ضَاعَ صَوْتِي في الظَّلامِ
كما يَضِيع النَّحل المُنْتَشِي بأَزْهَار اللُّوتَس.
إنَّه المَساءُ
وقَد حَان الوَقْتُ لِتُقْفِلَ الأَزْهَارُ تِيجَانَها.
دَعِينِي أَجْلِسُ بِقُرْبِكِ
و مُرِي شفتيّ
أَن تفعلا ما يُمكِنُهمَا أن تَفْعلاَ
في صَمْتِ أَضْوَاء النُّجُومِ الخَافِتَةِ

40

ابتِسَامَةٌ مُرْتَابَةٌ تُرَفرِفُ فَوْقَ عَيْنَيكِ
كُلَّمَا جِئْتُ لِتَوْدِيعِكِ
لَقَد وَدَّعْتُكِ عِدَّةَ مَرَّاتِ
حَتَّى صِرْتِ تُفَكِّرِينَ في أَنَّني سَاعُودُ إِلَيك

فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ
وإذَا أَرَدْتِ الحَقَّ
فإِنِّي أَنَا أَيْضاً أَرْتَابُ في هَذا التَّوْدِيع
ذَلِك لأَن أَيَّامَ الرَّبِيعِ
تعُوْدُ كُلَّ عَامٍ
والبَدْرُ يُوَدِّعُنَا ثُمَّ يَعُودُ لِزِيارَتِنا مِن جَدِيد
والزُّهُورُ تَعُودُ كُلَّ عَامٍ
لِتَتَضَرَّجَ فَوْقَ الغُصُونِ
ورُبَّمَا كُنتُ أَنا الآخر
أَبْتَعِدُ عَنْكِ، مِن أَجْلِ العَوْدَة إِلَيْكِ
إِن الوَهْمَ يُفيدُني قَلِيلاً
فَلاَ تَتعَجَّلِي بِطَرْدِهِ
فَإِذَا جِئْتُكِ أَقُولُ :
إِنِّي أُوَدِّعْكِ إِلى الأَبَدِ.
فَاقْبَلِي ذَلِك كَمَا لَو كَان حَقِيقَةً

ودَعي حِجَاباً من الدَّمْعِ
يُعَتِّمُ، ولَو لَحْظَةً بَسِيطَة، تِلْك الدَّائِرَةَ
الظَّلِيلَةَ التي تُحِيطُ بِعَيْنَيْكِ
ثُمَّ اضْحَكِي ضِحْكَةً مَاكِرَةً
حِينَ أَعُودُ إِلَيْكِ

41

أُرِيدُ أَن أَقُولَ لَكِ أَعمْقَ الكَلِمَاتِ
ولَكِنِّي لاَ أَجْرُؤُ خَوْفاً من سُخْرِيَتِكِ
ولِهَذا أَضْحَكُ مِنْ نَفْسِي
وأُحَوِّلُ سِرِّي إلى سُخْرِيَةٍ
وأَسْتَخِفُّ بِأَلَمِي حَتى لا تَسْتَخِفِّي بِي
أُرِيدُ أَن أَقولَ لَكِ أَصْدَقَ الكَلِمَاتِ
ولَكِنِّي أَخْشَى أَلاَّ تُصَدِّقِينِي
لِهَذَا السَّبَب أُخْفِي هَذا الصِّدْقَ

وأَقُولُ لَكِ عَكْسَ مَا أُفَكِّرُ فِيهِ

إِنيّ أَجْعَلَ دَائِماً أَلَمِي عَبَثاً

خَوْفاً من أَنْ تَقُومي أَنْتِ بِذَلِك

أريدُ أن أَسْتَخْدِمَ أَثْمَن الكَلِمَاتِ التي ادَّخَرْتُها لَكِ

ولكِني لاَ أَجْرُؤُ خَوْفاً من أَن تَحْتَقِريها

لِهَذا أَتَحَدَّثُ إِلَيْكِ في قَسْوَةٍ

وأَجْرَحُكِ، خَوْفاً من أَلاَّ تَعْرَفي أَيَّ أَلَمٍ

أريدُ أَنْ أَجْلِسَ صَامِتاً إلى جَانِبِكِ

ولكِني أَخْشَى أَن يَثِبَ قَلْبِي إِلى شَفَتِي

لِهَذا أُثَرْثِرُ باستِمرارٍ

وأَخْتَفي وَرَاء الكَلِمَاتِ

إِنيِّ أُعَامِلُ أَلَمِي بِقَسْوَةٍ

خَوْفاً مِن أَن تَقُومي أَنْتِ بِذَلِك

أُريدُ أَنْ أَبْتَعِدَ عَنْكِ

ولكنِي لا أَجْرؤ حَتَّى لا يُكْشَفَ جُبْنِي

وهذَا هُو السَّبَبُ الذِي يَجْعَلُني أَرْفعُ رَأْسِي
وأَتَقَدَّمُ إليكِ بِلاَ مُبَالاَةٍ
إِن طعَنَاتِ عَيْنَيْكِ تُبْقِي عَلَى أَلَمي حَيّاً

42

أيُّها المَجْنُونُ، الرَّائِعُ النَّشْوَةِ
إِذَا فَتَحْتَ أَبْوَابَك بِرَكْلاَت قَدَمَيْك
وَقُمْتَ بِدَوْرِ المُهَرَّجِ أَمَامِ الجُمْهُورِ
وأَفْرَغْت مِحْفَظَتَك فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ
وسَخرْتَ مِن الحِكْمَةِ والرَّصَانَةِ
وسَلَكْتَ دُرُوباً غَيْرَ مَطْرُوقَةٍ
ولَم تَهْتَمَّ بالقَافِيَةِ والمَضْمُونِ
وَنَشَرْت أَشْرِعَتَك لِلعَاصِفَةِ
وَشَطَرْتَ مِقْوَدَكَ شَطْرَيْنِ
فَإِنِّي سأَتْبَعُكَ أَيُّها الرَّفِيق.

وأَسْكَرُ وألْقي بِنَفْسِي إلى التَّهَلُكَةِ.
لَقَد بَدَّدْتُ أَيَّامي ولَيَالِيَّ
في صُحْبَةِ العَارِفين والمُمْتَازِين.
والعِلْمُ شَيَّبَ رَأْسِي
والسَّهَرُ أَضْعَفَ بَصَرِي.
وطَوَالَ أَعْوامٍ عَديدَةٍ
جَمَعْتُ قِطَعاً وشَذَرَاتٍ
لمُخْتَلَفِ الأَشْيَاءِ.
فَلْتَدُسْها، ولتَرْقُص فَوْقَها
ولتُبَدِّدْهَا لِلرِّيَاح الأَرْبَعِ
لأني أَعْرِفُ أن الحِكْمَةَ العُظْمَى
أن تَسْكَرَ وتُلْقِي بِنَفْسِك إلى التَّهْلُكَةِ
فَلْتَتَلاَشَ الوَسَاوِسُ المُلْتَوِيَةُ
ولتَضِعْ طَرِيقي الخَالِيَةُ من الأَمَلِ
ولتَنْتَزِعني رِيحٌ وَحْشِيَةٌ عَاصِفَةٌ

من حِبَالِ المَراسِي التي شَدَّتْنِي .
إن العَالَمَ عامِرٌ مَلِيءٌ بالرِّجَال القَيِّمِين
العَامِلين النَّافِعِين ، العَارِفين
وثَمَّةَ رِجَالٌ يَتَفَوَّقُون بِسُهُولَةٍ
وآخرونَ يَتْبَعُونَهم في طَاعَةٍ عَمْيَاءَ
فَلْيَسْعَدُوا ولْيَهْنَأُوا
ودعُوني أكونُ تافهًا وسَفِيهًا
ذَلِك لأنِّي أَعْلَمُ أَنَّ نِهَايَة كُلِّ عَمَلٍ
هي الإنتِشَاءُ أَو إِلقَاءُ النَّفْسِ إلى التَّهْلُكَةِ .
أُقْسِمُ
أنَّني سأَتَخَلَّى مُنْذ هَذِه اللَّحْظَةِ
عن أن أَكُونَ في زُمْرَة الرِّجَالِ الفَاضِلين
سَوْفَ أَتخَلَّى عَن كِبْرِيَاء العِلْمِ
ومَعْرِفَةِ الخَيْرِ والشَّرِّ
وسأُهَشِّمُ وِعَاءَ الذِّكْرَيَاتِ

قِطَعاً مُتَنَاثِرَةً
سَاكِباً عَلَيْها آخرَ دَمْعَةٍ،
وبِرَغْوَةِ النَّبِيذِ الأَحْمَرِ
سَأَغْسِلُ ضَحِكَاتِي وأَصْقِلُهَا.
وبالمُنَاسَبَة
سَأُقَطِّعُ مَائة قِطْعَةٍ
شِعَار المُتَمَدِّنِ الرَّصِينِ.
وسَأَنْذرُ النَّذْرَ المُقَدَّسَ
بأَنْ أَكُونَ غيرَ لائِقٍ
وأنْ أَسْكَرَ
وأُلْقِي بِنَفْسِي إلى التَّهْلُكَةِ

(43)

لاَ أيُّهَا الأَصْدِقَاء، لَنْ أَكُونَ نَاسِكاً أَبَداً
مَهْمَا قُلْتُمْ

فَلَن أَكُونَ نَاسِكاً

إِذَا هِيَ لَم تنْذرْ نَفْسَها لِلنُّسْكِ مَعِي

إِنَّه مِن عَزْمِي الثَّابِت

أَنْ لاَ أَكُونَ نَاسِكاً

إِذَا لَمْ أَجِدِ مَأْوَى ظَلِيلاً

ورَفِيقَةً لِتَوْبَتي

لاَ أَيُّهَا الأَصْدقَاء

لَنْ أَتْرُكُ أَبَداً

دِفْءَ الحَيَاةِ العَائِلِيَّةِ

وَبْيتِي

ولَنْ أَنْسَحِب إِلى وَحْدَةِ الغَابِ

إِذَا لَمْ تَرِنَّ ضَحكاتٌ بَهِيجَةٌ

في ظِلاَلِه المُرَدِّدَة للصَّدَى

وإِذَا لَم تُرَفْرِفُ لِلرِيح

حَافَّةُ لِحَافٍ زَعْفَرانِي اللَّوْنِ

إِذَا لَمْ تَجْعَلْ هَمَسَاتٌ نَاعِمَةٌ
صَمْتَ الغَابِ أَكْثَرَ عُمْقاً
فَلَن أَكُونَ أَبَداً نَاسِكاً

(44)

أَيُّها الكَاهِنُ المُبَجَّل
اغْفِرِ لِهَذَيْن الخَاطِئَيْن
إن رِياحَ الرَّبيع تَهُبُّ في أَعاصِيرَ وَحْشِيَّةٍ
حَامِلَةً الأَوْرَاقَ المَيِّتَةَ
وَقَد ضَاعَتَ مَعَهَا كُلُّ دُرُوسِكَ
فَلاَ تَقُل أَيُّها الأَب . . إِنَ الحَيَاةَ بَاطِلٌ
ذَلِك لإِنَّنا عَقَدْنَا، هَذِه السَّاعَةَ، مِيثَاقاً
مع المَوتِ
وَلِبضْعِ سَاعَاتِ مُعَطَّرَةٍ
سَنَصِيرُ خَالِدَيْن .

لَو زَحَفَ عَلَينا جَيْشُ المَلِكِ

وَانقَضَّ علينا بعُنفِهِ

فَسَنَهُزُّ له رَأْسَيْنَا قَائِلَيْن

أيُّها الإِخْوة، إِنَّكم تُضَايقُونَنَا

فَإِذَا أَرَدْتُم فِعْلاً الاستِمْرَارَ في هذهِ اللُّعْبَةِ الصَّاخِبَةِ

فَاذْهَبُوا إِلى مَكانٍ آخرٍ

يَتَرَدَّدُ فِيه صَدَى أَسْلِحَتِكُم

فإنَّنا لِلَحظَات قَلِيلَة هَارِبَةٍ

قَد صِرْنَا خَالِدَيْن

و إذَا جَاءَ أَحْبَابُنَا

وتَجَمَّعُوا حَوْلَنَا

فإِنَّنا سَنَنْحَنِي لَهُم ونَقُولُ

إن هَذا الحَظَّ الفَائِق

يُرْبِكُنَا

فَالفَضَاءُ قَلِيلٌ

فِي السَّماءِ اللاَّنِهَائِيَّةِ
التي نَسْكُنُها
فَفِي الرَّبيعِ
تَتَزَاحَمُ الزُّهُورُ
وأَجْنِحَةُ النَّحْلِ العَامِلِ تَصْطَدِمُ بِبَعْضِها
والفِرْدَوْسُ الذِي نَسْكُنُهُ
نَحنُ الاثْنَيْنِ الخَالِدَيْن
ضَيِّقٌ بِشَكْلٍ غَيْرِ مَعْقُولٍ

45

تَمَنَّ للضُّيُوفِ المُغَادِرينَ حَظًّاً طَيِّباً
ثُمَّ امْسَح آثارَ خُطواتِهم
وضُمَّ إلى صَدْرِكَ بابتِسَامٍ
كُلَّ مَا هُو سَهْلٌ وبَسِيطٌ وقَرِيبٌ
فَاليَوْم عِيدُ الأشْبَاحِ

الذين لاَ يَعْرِفُون مَتَى يَمُوتُون

وَلْتكُنْ ضِحْكَتُكَ

بَهْجَةً لاَ مَعْنَى لَها

مِثلَ شَرَارَاتِ النُّور فَوْق الأَمْوَاجِ

ولتَرْقُصْ حَيَاتُك بِخِفَّةٍ

عِند حُدُود الزَّمن

مِثل مَا يَرْقُص النَّدَى

على أَطْرَاف الوَرَق

وعلى أَوْتار القِيثَارِ

عَازِفاً أنْغَاماً هَارِبَةً

46

لَقَد تَركْتنِي ، وتَابَعْتِ طَرِيقَك

وقد ظَنَنْتُ أَنَّنِي قَد غَرَسْتُ واحتَفَظْتُ

بِصُورَتِكِ الفَرِيدةِ فِي قَلْبِي

منحوتةً في أغنيةٍ ذهبيةٍ

ولكن . . أواه، إِنَّ الزَّمَنَ لَقِصيرٌ

وعَامَاً بَعْدَ عَامٍ، يُزْهِرُ الشَّبَابُ

وأَيامُ الرّبيع قَصيرةٌ هَارِبَةٌ

والأزْهَارُ النَّاعِمَةُ تَمُوتُ عَبَثاً

والحَكِيمُ يُنْبِىءُ بِأَنَّ الحَيَاةَ

لَيْسَت سِوَى قَطْرَةِ نَدَى

عَلى صَفْحَةِ ورَقِ اللُّوتس

فَهَل يَنْبَغِي أَنْ أُغْفِلَ كُلَّ ذَلِكَ

من أَجْلِ وَاحِدَةٍ تَخَلَّت عَنِّي

إن ذَلِك لَمِنَ الغَبَاوَةِ، والسُّلُوكِ الصِّبْيَانِي

إن الزَّمَنَ لَقِصِيرٌ

فَلتَأْتِ، إِذَن، يَا لَيَالِيَّ المُمْطِرَة

بِخُطوات سَرِيعَةٍ صغيرةٍ

وَلْتَضْحَكَ يَا خَرِيفي الذَّهَبِي

وَلتَأْتِ يَا نِيسَانُ الخَالِي البَال
نَاثِراً حَوْلَنَا قُبُلاَتِك
تَعَالَ أَنْتَ
وأَنْتَ
وأَنْتَ أيضاً
يا أَحِبَّائِي ، إِنَّكم تَعْلَمُون أَنَّنا فَانُون
فَهَل من الحِكْمَةِ أَنْ أُمَزِّقَ القَلْبَ
من أَجْل وَاحِدَةٍ سَحَبَت مِنّي قَلْبَها؟
ذَلِك أَنَّ الزَّمن قَصِيرٌ
إِنَّه لَمِنَ العَذْبِ
أَنْ أَجْلِسَ إِلى زَاوِيَةٍ
أَتَأَمَّلُ وأَكْتُبُ شِعْراً
أَقُولُ فِيه
إِنَّكِ عَالَمِي كُلُّه
وإِنَّه لَمِن البُطُولَةِ أَن يَتَعَلَّقَ الإِنْسانُ بِأَلَمِه ويَرْتَبِطَ بِهِ

وإن يَرْفُضُ العَزَاءَ
ولَكِن وَجْهاً صَغيراً
يَتَجَسَّسُ مِن البَابِ
ويُحدِّ النظر فِي عَيْنَيَّ
فَلاَ يُمْكِنُنِي إلا أن أُجَفِّفَ دُمُوعِي
وأُغَيِّرَ إِيقَاعَ أُغْنِيَتي
لأِنَّ الزَّمَنَ قَصِيرٌ

47

إِذَا أَرَدْتِ
فَإِنِّي أَتَوَقَّفُ عن الغِنَاءِ.
إِذَا كَان قَلْبُك يَقفِزُ
عند نَظَرَاتِي
فإنِي أَصْرِفُها عَن وَجْهِكِ.
وإِذَا كَانَت تَهُزُّكِ بَغْتَةً

حين تَتَنَزَّهِينَ
فإنِّي سأَنْسَحِب جَانِباً
وأَسْلُكُ طَريقاً أُخرى.
وإذَا كَانَت تُثِيرُ فِيكِ الاضطِرَاب
حِين تَضْفُرِين قِلاَدَةَ الزُّهُورِ
فإني سأَتَجَنَّبُ حَدِيقَتَكِ الفرِيدَة
وإذَا كَانَت ستُحَرِّكُ المِيَاهَ كَثِيراً
فإنِي لَنْ أَطُوفَ
قُرْبَ شَاطِئِكِ

48

حَرِّرِيني مِن قُيُودِ عُذُوبتِكِ
يا حَبِيبتي
وَاصرِفِي عَنِّي نَبِيذَ القُبَلاتِ
إن ضَبَاب البَخُورِ الكَثِيفِ

يَخْنُقُ قَلْبِي

إِفتَحِي الأَبْوَابَ

وادخلِي أَنْوَار الصَّبَاحِ

لقد ضِعْتُ فِيكِ

وصِرْتُ أَسيراً لملاطَفَاتِكِ

فحرِّريني من فُنُون سِحْرِكِ

وأعيدِي مَنْحَ القُوَّةَ لِي

حَتَّى أَهَبَكِ قَلْبِي الطَّلِيقَ

49

إِنِّي أَقْبِضُ على يَدَيْكِ

وأَضُمُّهُمَا إِلى صَدْرِي

وأَحَاوِلُ أن أَمْلأ ذِرَاعِي

بِجَمَالِكِ

وأَن أُلْهِبَ بالقُبُلاَتِ

ابتِسَامَتَكِ العَذْبَةَ

وان أَشْرَبَ نَظَراتِك السَّمْرَاءَ

بِعَيْنَيَّ

ولكن أَيْنَ؟

ومن الذي يَقْدِرُ على عَصْرِ زُرْقَةِ السَّمَاءِ؟

أُحَاوِلُ أن أمْسِك بِالجَمَالِ

فَيُرَاوِغُني

وَلاَ يَتْرُكُ سِوَى الجَسِدِ بَيْن يَدَيّ

وأنسَحِبُ في إِعياءٍ وإِحبَاطٍ

كَيْفَ يُمْكِنُ للجَسَدِ أَن يَنَالَ الزَّهْرَةَ

التي لا تَقْدِرُ الرُّوحُ إلا عَلَى لَمْسِها لَمْساً هَيِّناً رَفِيقاً

(50)

يَا حَبِيبي

لَيْلاً ونَهَاراً

يَتَلَهَّفُ قَلْبِي لِلقَائِك

لِقاءً يُشْبِه المَوْتَ الذِي يَبْتَلِعُ كُلَّ شَيء

فاكسحْني كالعَاصِفَة

وخُذْ مَا عِنْدِي

افتَحْ أَبوابَ نَوْمِي عَلى مصاريعها

وانْهَبْ أَحْلاَمي

واخطِفْني مِن عَالَمي

وفي ذَلِك الأَسَى

والعُرْي المُطْلَق للرُّوح

فَلْنَتَوَحَّد في الجَمَالِ

أَواه . . يَا لهَا من رَغْبَةٍ بَاطِلَةٍ

أي أَمَلٍ في التَّوَحُّد

إِن لَم يَكُن فِيكَ

يا إِلَهي

(51)

أُختمْ هَذهِ الأَغْنِيَة الأَخِيرَةَ

ولنَفْتَرِقْ

إِنْسَ هذه اللّيلةَ .

الآن، وبعد أن انَقَضَى اللّيْلُ

عَمّن أَبْحَثُ لأَضُمَّهُ في أَحضَاني؟

الأحلام لاَ يُمْكِن أَن تَكُونَ أَسْرَى

وبِيَدَيْنِ مُتَلَهِّفَتَيْنِ

أَضُمُّ الفَرَاغَ إلى قَلْبِي

فَيَجْرحُ صَدْرِي

(52)

لماذا انطَفَأَ المِصباح؟

لقد غطّيتُه باللّحاف

حتّى أقيه من الريح

لهذا انطفأ المِصباح

لماذا تَذْبُلُ الزّهرة؟

لقد ضَمَمْتُها إلى قَلبي

في حبٍّ مُشْفِقٍ

لهذا ذَبُلتَ الزَّهرة

لِماذَا جَفَّ الجَدْوَلُ؟

لقد صَنَعْتُ حَوْلَه سدّاً

ليكونَ لِي وَحْدي

لهذا جَفَّ الجَدْوَل

ولِماذَا تَقَطعَت أَوْتَارُ القِيثَار؟

لقد حَاوَلْتُ أن استَخْرجَ مِنها

نَغَماً فَوْق طَاقَتِهَا

فلهذا تَقَطَّعت أَوْتَارُها

53

لماذا تُغَطِّيني نَظَرَاتُكِ بالخَجَل؟

فلم آتِ اليكِ مستعْطِيا

لقد وقفتُ ساعةً خاطِفَة

عند حَافَة سَاحَتِكِ

خَارِجَ سِيَاج حَديقتِكِ

فلماذا تغطيني نَظَرَاتُكِ بالخَجَلِ ؟

لم أقْطِف لاَ وَرْدَةً، ولا ثَمَرةً

من بُستانِكِ

ولَجَأتُ في حَياءٍ إلى الظلّ

المُنْبَسِطِ على قَارِعَةِ الطَّريقِ

حَيثُ يُمْكِنُ لِكُل عَابِرٍ أن يَقِفَ

ولم أقطُفْ ولاَ وردةً

نَعم، إن قَدَميّ كَانَتا مُتْعَبَتَيْنِ

والمطرُ يَهْبِطُ مِدْرَاراً

والرِّياح تَعْوِي بين الأغصان

وأعوادِ قَصَب البامبو.

والسُّحُب تَرْكُضُ في السَّماء

مِثْلَ الهَارِب بَعْدَ الهَزِيمَة

كَانت قَدمَاي مُتْعَبَتَيْن

لاَ أَعْرِفُ فِكْرَتَكِ عَنِّي

ولاَ مَنْ كُنْتِ تَنْتَظِرينَ عِند بَابِكِ

وكانت الأضواءُ تُغْشِي عَيْنَيكِ

فكيف يمكنني أن أتصور

أنَّكِ قادرةٌ على رُؤْيتي في الظَّلام

لا أدري فِكْرَتَكِ عَنِّي

لَقد انقَضَى اليَوم

والمَطرُ لم يَتَوَقَّف لَحْظَةً عن الهُطُولِ

إني أترك ظِلال الشَّجَرَة

الواقِعَةِ عند بُسْتَانِكِ

وهذِه المِصْطَبَة وَسَط الأعشَاب

لقد خَيَّم الظلامُ

فاغلِقي بَابَكِ

وسَأواصِل طَرِيقي

إن اليومَ قَد انقَضَى

(54)

ذَاتَ صَباح

جَاءَتني فَتَاةٌ عمياءُ

وأهدَتْني قِلاَدَةً من الزُّهُورِ

مُغلَّفة بورقِ اللُّوتس

وَوَضعَتْهَا فِي عُنُقِي

فَطَفَر الدَّمعُ إلى عَيْني

وَقَبَّلتُها قَائِلاً

إنك عَمْياءُ مِثْلَما الزُّهورُ عَمْياء
ولا تَعْرَفين أَنْتِ نَفْسُكِ
إلى أيٍّ حَدٍّ هِي جَمِيلَةٌ هَدِيَّتُكِ

55

إلى أَيْنَ تَرْكُضُ بِسَلَّتِكَ
في هَذهِ السَّاعَةِ مِن المَسَاءِ
بَعْد أَن انْتَهت السُّوقُ؟
لَقد أوىَ النَّاسُ بِأَحْمَالِهم إلى بُيُوتِهِم
والقَمَرُ يَتَجَسَّسُ فَوْقَ أَشْجَار القَرْيَةِ
وصَدَى الأَصْواتِ التي تُنَادِي عَابِرَةَ النَّهْرِ
يَتخَلَّلُ المَاءَ العَكِرَ، حَتَّى نِهَايَةِ المُسْتَنقَع
حَيْثُ يَنَامُ البَطُّ الوَحْشِي
إلى أَيْنَ تَرْكُضُ بِسَلَّتِكَ
بَعْدَ أَن انْتَهت السُّوق؟

إن النَّومَ قَد مَرَّ بِأَنَامِلِهِ على عُيونِ الأرضِ
وأعْشَاشُ الصَّفْرَد صَارَت سَاكِنَةً
وسَكَتَتَ أَوراقُ البَامْبُو
والفَلاَّحُون العَائِدُون مِن الحَقْلِ
يَجْلِسَون عَلى الحُصَرِ في رَحْبَةِ البَيْتِ
فَإلَى أيْنَ تَرْكُض بِسَلَّتِكَ
حِين انتَهَت السُّوقُ؟

56

كَانَ مُنْتَصفَ النَّهَارِ
حِين سَافَرْتَ
والشَّمْس كَانتَ في كِبَدِ السَّمَاءِ
كُنْتُ قَد انْتَهَيْتُ مِن عَمَلِي
وجَلَسْتُ وَحْدِي في الشُّرْفَةِ
حِين سَافَرْتَ

وبَيْنَ الفَيْنَةِ والأُخْرى

كانَت هَبَّاتٌ مِن الرِّيحِ

تَهُبُّ، حَامِلَةً عِطْرَ

كَثِيرِ من المُرُوجِ البَعِيدَةِ

وَيْرتَجِفُ الحَمَامُ في الظِلِّ

ونَحْلَةٌ تَدْخُل غُرْفَتِي

تُدَنْدِنُ بِأَخْبَارِ الكَثِيرِ

من الحُقُولِ البَعِيدَةِ

وفي قَيْظَ القَيْلُولَةِ

كَانَت القُرى تَنَامُ

والطَّرِيقُ تَمْتَدُّ مَهْجُورَةً

ومِن حِين إِلى آخرَ

يَمُوتُ حَفِيفُ الأَوْرَاق ثُمَّ يَحْيَا

أُحَدِّقُ في السَّمَاءِ

وأَصُوغُ في زُرْقَتِها

حُرُوفَ اسمٍ عَرَفْتُهُ

حين كَانَتَ القَرْيَةُ

تَنَامُ في قَيْظِ القَيْلُولَةِ

لَقد نَسِيتُ أَنْ أَضْفر شَعْرِي

والنَّسِيمُ الوَاهِنُ يَتلاَعَبُ بِهِ فَوْقَ وَجْهِي

وتَحْتَ الضِفَّة الظَلِيلَةِ

كان النَّهْرُ يَجْرِي هَادِئاً

والسُّحُبُ البَيْضَاءُ المُتَكَاسِلَةُ

كانت ثَابِتَةً في السَّمَاءِ

لَقد نَسِيتُ أن أَضْفر شَعْرِي

كَان مُنْتَصفَ النَّهَارِ

عِنْدَما سَافَرْتَ

وغُبَارُ الطَّريق كَان مُلْتَهِباً

والحُقُولُ تَخْفُقُ

والحَمَامُ يَضْطَرِبُ بَيْن الأَوْرَاقِ الكَثِيفَةِ

كُنْتُ وَحْدي في شُرْفَتي
عِنْدَما سَافَرْتَ

57

كُنْتُ واحِدَةً من النساءِ المَشْغُولاتِ
بالأعمالِ المَنْزِلَيةِ المُتَواضِعَةِ
فَلِمَاذَا اخْتَرْتَنِي، وأَخْرَجْتَنِي
من المأْوَى النَّدِّي للحَيَاة العَادِيَّةِ؟
إِنَّ الحُبَّ الصَّامِتَ مُقَدَّسٌ
وهُو يَتَأَلَّقُ مِثْلَ الجَوَاهِر في ظَلاَمِ
القَلْبِ الخَفِي
وفي ضَوْءِ النَّهَارِ الفُضُولِي
يَبْدُو مُظْلِماً بِشَكلٍ مُثِيرٍ للرَّحْمَةِ
آهٍ، لَقَد اقتَحَمْتَ حُصُونَ قَلْبِي
وجَرَّرْتَ قَلْبِي الخَافِقَ إِلى الخَارِجِ

مُدَمِّراً إلى الأَبْدِ تِلك الزَّاوِيَة الظَّلِيلَةِ
التي كان يُخْفِي فِيها عُشَّهَ
وهكذا شَأْنُ النِّسَاءِ الأُخْرَيات دَوْماً
فَلاَ أَحَدٌ
تَطَلَّعَ إلى أَعْمَاق قُلُوبِهِنَّ
وهُنَّ أَنْفُسُهُنَّ لاَ يَعْرِفْنَ سِرَّهُنَّ الخَاصَ
يَبْتَسِمْنَ بِرِقَّةٍ، ويَبْكِين، ويُثَرْثِرْنَ
ويَعْمَلْنَ
وَكُلَّ يَوْمَ يَذْهَبْن إلى المَعْبَدِ
ويُوقِدْن مَصَابِيحِهن
وَيَسْتَقِين من مِياهِ النَّهْرِ
كُنْتُ أرجو أنْ أَكونَ قَد وَفَّرْتُ
عَلى حَبِيبي ذَلِك الخَجَل الرَّاجِفَ
الذي يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ مَنْ حُرِمَ المَأْوَىَ
ولَكِنَّك وَجَّهْتَ وَجْهَكَ نَحْو وجْهَةٍ أُخْرَى

أَجَل ، إِن طَرِيقَكَ مَفتُوحَةٌ أَمَامَك

ولكِنَّك قَطَعْتَ عَلَيَّ طَريقَ العَوْدَةِ

وَتَرَكْتَني عَارِيةً أَمَامَ العَالَم

يُحَدِّقُ فِيَّ صَبَاحَ مَسَاءَ

بِعُيُونِهِ الخَالِيةِ مِن الأَجْفَانِ

58

أَيَّتُها السَّمَاءُ

لَقَد قَطَفْتُ زَهْرَتَكِ

وَضَمَمْتُها إِلى قَلْبِي

ولكِنَّ شَوْكَةً جَرَحَتْنِي

وحِينَ أَفَلَ اليَوْمُ

وخَيَّم الظَّلاَمُ

اكتَشَفْتُ أَن الزَّهْرَة قَد ذَبُلَت

ولكِنَّ أَلَم الجرح بَاقٍ

زُهُورٌ أخرى
سَوفَ تَأتِيكَ بِعِطْرِهَا وبَهْرَجَتِها
أيتها السَّمَاءُ
أمّا أنا فقد انقَضَى عِنْدِي
زَمَنُ قَطْفِ الزُّهُورِ
وفي اللَّيْلِ الحَالِكِ
لَم تعُدْ لِي وَرْدَتِي
ولَم يَبْقَ لِي سِوَى الألَمِ

59

أَيتُها المَرأَة
لَسْتِ من خَلْق الله وَحْدَه
ولَكِنَّكِ أيضاً مِن خَلْق الرِّجَالِ
الذين يَجْعَلُونَكِ بِقُلُوبِهِم
جَمِيلَةً

فَالشُّعَراءُ نَسَجُوا لَكِ شَبَكَةً
من خُيوطِ الأَخْيِلَةِ الذَّهَبِيَةِ
والرسّامونَ أَعْطُوا دَوْماً
لِهَيْئَتِكِ خُلُوداً جَدِيداً
والبَحْرُ يُقَدِّمُ إِلَيْك لُؤْلُؤَهُ
والمَناجِمُ ذَهَبَها
وبَساتِين الصَّيْفِ تَمْنَحُكِ زُهُورَهَا
لِكَي تُوَّشِيكِ وتَكْسُوكِ
وتَجْعَلَكِ عَلى الدَّوامِ
ثَمِينَةً غالِيةً
وشَوْقُ قُلُوب الرِّجَالِ
بَسَطَ مَجْدَهُ
عَلَى شَبَابِكِ
فَصِرْتِ نِصْفَ امرأةٍ
ونِصْفَ حُلْمٍ

60

آه . . أيّتُها الجَمِيلة

المَنْحُوتَة في الصَّخْر

بَيْن هَيَجَان الحَياة وصُراخِها

تَظَلِّين ثَابِتَةً سَاكِنةً

مُتَفَرِّدَةً ، مُنْعَزِلَةً

والزَّمنُ الأَعْظَمُ

يَجْلِس عَاشِقاً تَحْت قَدَمَيْكِ

ويَهْمِسُ

تَحَدَّثِي ، تَحَدَّثي إِليّ يا حَبيبتي

تَكَلَّمي يَا عَرُوستِي

ولكن كَلِمَاتك مَخْتُومةٌ في الصَّخر

آه ، أيتها الجَمِيلة السَّاكِنَة

سَلاَماً يا فُؤَادِي

وَلِنَأْمَلْ أَن يَكُونَ وَقْتُ الوَدَاعِ

حُلْواً لَطِيفاً

أَنْ لاَ يكون مَوْتاً، بَل كَمَالاً

وأَن يَذُوبَ الأَلَمُ فِي الذِّكْرَى

والألم في الأغنيات

وأنَّ التَّحْلِيقَ نَحو السَّمَاءِ

يَنْتَهِي عِند طَيِّ الأَجْنِحَةِ فَوْقَ الوَكْرِ

تَوَقَّفِي بُرْهَةً

أيتُها النِّهَاية الجَمِيلَة

وقُولي لي في صَمْتٍ

آخرَ كَلِمَاتِك

إِنَّني أَنْحَنِي أَمَامَكِ

وأَرْفَعُ مِصْبَاحِي

يُنيرُ سَيْرَكِ

طُولَ الطَّرِيقِ

(62)

في الطَّريق الفَاقِع لأَحَدِ الأَحلام

ذَهَبْتُ أَبحَث عن حَبِيبَةٍ

كانت لي في حَياة سَابِقَة

بَيتُها كان في آخرِ الطريّقِ المَهجُورة

وعند هبوب نَسِيم المساءِ، كان طاوُوسها المُفَضَّل

يَنعْس فوق الحمالة

والحَمامُ كان قَابِعاً بِهُدُوء في إحدى الزوايا

وقد وَضَعْت هِي مِصْبَاحَها أمام الباب

وَظلَّت واقِفَة أَمامِي

ورَفَعت عَيْنيها الكَبِيرَتَيْن فِي وَجْهِي

وقالت في صمْتٍ

كَيْف حَالُك يا صديقي

وحاولت أن أُجيب

ولكنّ لُغَتَنا قد ضَاعت، ونَسِيناها

وَفكّرت هِي وَفكّرتُ

فلِمَ نَستَرَجع اسمَيْنا

وتألّقت الدمُوعُ في عَيْنيها

وَقدّمت لِي يَدَها اليُمنْى

فأَخَذْتُها بِيَدِي

ولَبِثْنا وَاقِفيْن

وارتَجَفَ المصباحُ، مع هُبوبِ نَسِيمِ المَساء

ثمّ انطَفَأَ.

(63)

أَيّها العَابِر

هل يَجِبُ أن تُسَافِر؟

إن الليلِ هادِي

والظُّلْمَة تَذْبُلُ فوق الغاب

والمصابيحَ تَتَوَقَّد في شُرْفَتِنَا

والزُّهور مَا تَزالُ طَرِيةً نَدِيَّة

والأعين الشّابَة ما تَزالُ يَقْظَى

فَهل حَانَ وَقْتُ رَحِيلِك ؟

أيَّها العابِر

هل يَجِب أن تَرْحَل ؟

لم نُقَيِّد قَدَمَيك بأَذْرُعِنَا الضارعة

وَكُلُّ أبْوَابِك مَفْتُوحَة

وفَرسُك مُسْرَج عِنْد البّوابَة

فإذا حَاوَلنا قَطْع طَرِيقِك

فلمَ يَكُن ذَلك إلا بأَغَانِينَا

وإذا حَاوَلنا إبقَاءَكَ

فلم يكن ذَلِك إلا بأَبْصَارِنْا

أيُّها العَابِر

لا يُمْكِننُا أن نَتَشَّبث بك

فَلَيس لَنا سِوى دُمُوعِنا

أَيُّ نَارِ مُوَقَدة

تَلْمَعُ في عَيْنَيْك

وأيُّ حُمَّى قَلِقَة

تَجْرِي في دَمِك

وأيُّ نِدَاءِ يُطارِدُك من الظَّلام

وأيُّ سِحْر مُرْعِب

قَرأتَهُ بين نُجوم السماء التي جَعَلت بِرِسالتِها الخَفِيَّة

ذَلك اللَّيل الغَرِيبَ الصَّامِتَ

يَدْخُل قَلْبَكَ؟

أَيُّها القلب المُتْعَب

إذا كُنَت لاَ تَأبَهُ بالنَّدوات البَهِيجَةِ

وتَبْحَثُ عن الهُدُوء والسَّلم

فإنَّنا نُطْفِيء مَصَابِيحَنَا

ونُسْكِتُ قِيثَارَتَنا

ونَجْلِس صَامِتِين في الظَّلام

بَيْن حَفيفِ الأوراق

والقَمر المُضْنَى

يَسْكُبُ أَشِعَّةً شَاحِبة

فَوقَ نَافِذَتِكَ.

أيُّها العَابِر

أيُّ رُوح مُؤَرَّقة

قَد مَسَّتْك في قَلْبِ اللَّيْلِ ؟

64

أَمْضَيْتُ اليومَ كُلَّه

في غبارِ الطريقِ المُلْتهب

والآن ، وفي طَرَاوةِ المَساء

أَدُقُّ بَابَ المَأْوى

إِنَّه مَهْجُورٌ ومُهَدَّم

وشَجَرَةُ الشَّطْب المُتَجَهِّمَة

تَمُدّ جُذُوعَهَا الجَائِعَة

لِتَتَسَلَّلَ كالحيَّات بَيْن شُقُوق الجِدَار

لَقد مَضَت تِلك الأيام التي كان العَابِرونُ

يأتُون إلى هذا المَكان

لِيَغْسِلُوا أَقْدَامَهم المُتْعَبَة

وَيبْسِطُوا حُصَرَهم في رِحابِهِ

تَحت الضَّوءِ الشَّاحب للقَمر الطَّالع

وهناك يجلسون

يَتَحَدَّثُون عن بُلدانٍ غَرِيبة

وفي الصباحِ ، وبعد أن يكوُنوا قد استراحوا

يستيقِظُون على صَوتِ العَصافِير البَهِيج

والزهُورُ على قَارِعَة الطَّريق
تُحيِّيهم بِمَودَّة
ولكِن حِين وَصَلْتُ
لم يَكُن هُناك حَتَّى مِصْبَاحٌ مُنِير
في انتظاري.
بُقَعٌ سوداءُ من الدّخان
تَرَكَتْهَا عِدَّةُ مَصابِيح مَنْسِيَّة
مِثل عُيون عَمْياء تُحَدِّق في الجِدار
والجداجد تطير بين الأدغال
قرب المُسْتَنْقع الجَافّ
وأغصان البامبو
تُلْقى ظِلالاً
على الطريق التي غَزَتْها الأعشاب

وأنا هنا في نِهاية يومي
ضيف لا أَحد

واللّيل الطويل

ينتظرني

وإنّي لمتعب

65

أما يَزالُ نِدَاؤُكِ يُلاَحِقُنِي؟

لقد خَيَّمَ المَسَاء

والإعياءُ يُحِيطُ بي

كأذرعِ حَبيب ضَارِع

أتنادِينني؟

لقد أعطيتُكِ يومي كُلَّه

أيّتها السيّدة القَاسِية

وتُريدين أن تَنْتَزِعي مِنّي اللَّيلَ أيضاً؟

لكُلِّ شيء نِهَايَة

وَوحْدَةُ الظلامِ تُخِيفُني

فَهَل لاَ بُدَّ لصوتِكِ أن يَقْطَعَها

ويجرحُني؟

ألا يحملُ المَساءُ إلى بَابِكِ

مُوسِيقى النُّعاس؟

والنُّجُوم ذَات الأجْنحِة الصَّامِتَة

ألاَ تَطِيرُ فَوْقَ بُرْجْكِ القَاسِي

أَلا تَسْقُطُ الزُّهور بِمَوْتِها العَذب

في تُرابِ حَدِيقتِكِ؟

هَل لاَ بُدَّ أن تنادِيني

أيّتها الرُّوح القَلِقَة

عَبَثاً إذَن نَسْهر وتَبْكِي عيُونُ الحُبِّ الحَزِينَةِ

ويُوقَدُ المِصْبَاح في البيت المُنْعَزِلِ

وتحمِلُ عابِرَةُ النَّهر العُمَّالَ المُتْعَبِين

سأتركُ أحلامِي ورَاءَ ظَهْرِي

وأُهرَعُ إلى نِدائِكِ

مجنونٌ مُتَشَرِّدٌ

كان يبحثُ عن حَجَرِ الفَلاَسِفَةِ

بِشَعْرِهِ الأَشْعَثِ الأَغْبَرِ

والجَسَدِ الذي صَارَ ظِلاًّ

والشِّفَاهِ المَضْمُومَةِ

مِثل أَبوابِ قَلْبِه المَسْدُودَة .

والعيَنَانِ مُتوقِّدَتان

مثل الحُباحِب التي تَبحَث عن رَفِيقِها

وَأمَامَه

كان يَصْطَخِبُ المُحِيطُ اللاَّنِهَائِي

والأمواجُ الثَّرْثَارَةُ تَتَحَدَّثُ بلا انقِطَاعٍ

عن كُنُوزٍ خَفِيَّةٍ

تَسْخَرُ من الجَهْلِ الذي لاَ يَعْرِفُ أَسْرَارَها

رُبَّمَا لَم يَعُدِ الآن أيُّ أَمَلٍ
ولكنَّه لَمْ يَتَوَقَّفُ عن البَحْثِ
تَمَاماً مِثل المُحِيط
يَرْفَعُ ذِرَاعَيْهِ نَحْو السَّمَاءِ
لِيَبْلُغَ المُسْتَحِيلَ
تَمَاماً مثل النُّجُوم التي تَدُورُ في دَائِرَةٍ مُغْلَقَةٍ
تَبْحَثُ عن هَدَفٍ لا يُمْكِنُ بُلُوغُه أَبَداً
هَكذا كان تَماماً، في ذَلِك الشَّاطِئِ المَهْجُورِ
ذَلِك المَجْنُونُ بِشَعْرِهِ الأَشْعَثِ الأَغْبَرِ
يَجُوبُ الآفاق بَحْثا عَن حَجَر الفَلاَسِفَة
وفي أَحَدِ الأَيَّام
اقتَرَبَ مِنْه أَحَدُ صِبْيَانِ القَرْيَةِ
وسأله :
قُلْ لِي : هَلْ وَجَدْتَ تِلك السِّلْسِلَة الذَّهَبِيَّة
التي كانت تُطَوِّقُ خَصْرَكَ؟

فَارْتَعَد المَجْنُون قَائِلاً :

إِنَّ السِلْسِلَة التي كانت حَدِيدِيَّةً

صَارت ذَهَبِيةً!

لَمَ يَكُن حُلْماً

ولكنه لا يَدْرِي مَتَى حَصَل هَذا التَّحَوُّلُ؟

وضَرَبَ جَبْهَتَه بِقُوَّةٍ

أين؟ أين؟

هَل بَلغ قَصْدَه دُون أَنْ يَدْرِي؟

لقد اعتَادَ جَمْعَ الصُّخُورِ

ولَمْسَ السيلسِلة بِها

ثُمَّ يُلْقِي بِها بَعِيداً

دُون أن يَرَى ما إذَا كان التَّحَوُّلُ قَد وَقَعَ؟

هَكَذا وَجَد المَجْنُون حَجْرَة الفَلاسِفَةِ

ثُمَّ أَضَاعَها

كانت الشمسُ تَغْرُبُ

والسماءُ تَكْتَسِي لَوْناً ذهبياً
وعاد المجنونُ أَدْرَاجَه
لِيَبْحَث من جَدِيدِ
عن الكَنْز الضَّائِع
ولكنـه الآن
خَائِرُ القِوى ، مُنْحَنِي الجِسْمِ
مُغْبَرُّ القَلْب
مِثل الشَّجَرَةِ المُجْتَثَّةِ

67

رَغْم أن المَسَاءَ يُقْبِلُ بِخُطُوَاتٍ بَطِيئةٍ
وقد أَعْطى الإِشَارَة
بإِيقَافِ جَمِيع الأغاني.
وَرْغَم أَن رِفَاقَك
قد ذَهبُوا للرَّاحَةِ

وأنتْ أيضاً مُتْعَبٌ
ورغْمَ أن الخَوْفَ يجثُم في الظّلام
ووجْهَ السَّمَاءِ مُحَجَّبٌ
مع ذلك ، فَلْتُصْغِ إليَّ، يا عُصْفُورِي
فَلَيْسَت ظِلالُ أَوْراقِ الغَابِ
بَل هُو البَحْرُ الذِي يَنْتَفِخُ
مِثل صِلٍّ أَسْودَ غَامِضٍ
ولَيْسَت رَقْصَةُ اليَاسَمين بَيْن الزُّهُورِ
ولكنها الرَّغْوةُ البَيْضَاءُ
آه . . أين الضِفَّةُ الخَضْرَاءُ المُشْمِسَة
أينَ عُشُّكِ؟
عصفُورٌ، يا عُصفُوري
اصْغَ إليَّ، ولا تَضُمَّ جَناحَيْك
إن اللَّيْلَ المُنْفَرِدَ
يَمْتَدُّ على طُولِ طَرِيقِكِ

والفَجْر يَنَامُ خَلْفَ الضَّبَابِ

والنُّجُوم تُمْسِكُ أَنْفَاسَها

وتَعُدُّ السَّاعَاتِ

والقَمَر المُثِير للحُزْنِ

يَسْبَحُ في اللَّيلِ العَمِيقِ

عُصْفُورٌ، يا عُصْفُوري، اصغَ إليَّ

ولا تضم جناحَيْك

لا أمَل عِنْدَك، ولا خَوف لَدَيْك

ولاَ كَلِمَة، ولا تَنْهِيدَة

ولا صَرْخَة

ولاَ بَيْت يُؤْوِيكَ

أو سَرِير تَسْتَرِيحُ عَلَيْه

هُنَاكَ جَنَاحَاك

والسَّماءُ الخَالِيةُ من الدُّرُوبِ

يا عصفور، يا عصفوري

اصْغَ إليَّ

ولا تَضُمَّ جَنَاحَيْك

68

يَا أَخي

لاَ أَحَدَ يَعِيشُ دَوْماً

ولا شَيْءَ يَبْقَى إِلى الأَبَدِ

فاحْفَظ ذَلِك في ذَاكِرَتِكَ

فَحَياتُنَا

لَيْستَ الحِمْلَ الثقِيلَ العَرِيق فَحَسْب.

وطَرِيقُنَا لَيسَت هي وَحْدَها الرِّحْلَةَ الطَوِيلَةَ.

والشَّاعِرُ الفريد

لا يَمْلِكُ إلا أَنْ يُغنِّي أُغنِيَةً واحِدَةً

قَدِيمَةً

إن الزَّهْرَ يَذْبُلُ ويَمُوتُ

ولكنّ حَامِلَ الزُّهُورِ

يَنْبَغِي عَلَيْه ألا يَبْكِيها إلى الأَبَدِ

فاحفَظ ذَلِك يا أَخي ، وتَمَتَّعْ

لِكي تَبْلُغَ المُوسِيقَى كَمَالَها

لاَ بُدَّ لَهَا مِن بَعْضِ الوَقْفَاتِ .

إن الحَيَاة تَسِير نَحو الغُرُوبِ

حتَّى تَظْهَر في الظِلاَلِ الذَّهَبِيَّة

والحُبُّ يَنْبَغِي أَن يُصْرَفَ عن لُعْبَتِهِ

حتى يَشْرَبَ الأَلَمَ ويَعْرِفَ فِرْدَوسَ الدُّمُوعِ

فَاحْفَظْ ذَلِك يا أَخِي وتمتّعْ .

نَحن نُعَجِّلُ بِقَطفِ الزُّهُورِ

خَوْفاً من أَن تَقْتَلِعهَا الرِّيحُ العَابِرَةِ

ويَتَضَرَّمُ دَمُنَا

وتَتَأَلَّقُ عُيُونُنَا

لِكي نَنْتَزِعَ القُبُلاَتِ

التي يُفْقِدُنَا إِيَّاهَا الانتِظَارُ إلى الأبدَ
إن حَيَاتَنَا لاَ تَعْرِف الصَّبْرَ.
وعَمِيقَةٌ هِي أَشْوَاقُنَا
ولأنَّ الزَّمَنَ يَدُقُّ نَاقُوسَ الرَّحِيلِ
يا أَخِي لِتَحْفَظَ ذَلِكَ وَلْتَتَمَتَّعْ
لاَ وَقْتَ لَنا
لِلإِمْسَاكِ بِأَيِّ شَيءٍ وتَفْكِيكِه وإلَقائِه في التُّراب
والسَّاعَاتُ تَمْضِي مُسْرِعَةً
وتُخْفِي الأَحْلاَم في حُجُبِهَا
وحَيَاتُنَا قصِيرةٌ
ولا تُعْطِينَا سِوَى أَيَّامٍ قلِيلَةٍ للحُبِّ.
ولَو كَانت هَذهِ الحَيَاةُ عَمَلاً قَاسِياً فقَط
لَكَانَت طَويلَةً لاَ حَدَّ لَها
فاحْفَظْ ذَلِك يَا أَخِي وتَمَتَّعْ.
فَالجَمَالُ حُلْوٌ عَذْبٌ

لأنَّه يُرَاقِصُ حَيَاتَنَا

على اللَّحْنِ الخَاطِفِ نَفْسِه .

والمَعْرِفَةُ ثَمِينَةٌ

لأننا لاَ نَجِدُ الوَقْتَ أَبَداً لِتَأَمُّلِها

فَكُلُّ شَيْءٍ قَد تَمَّ وانتَهَى في السَّماء الأَبَدِيَّةِ

ولكن أَزْهَارَ الأَرْض الوَهْمِيَّةَ

تَحْفَظُ طَرَاوَتها الخَالِدَة

في وَجْهِ المَوْتِ

يا أخي ، احْفَظْ ذَلِك وَتَمَتَّعْ

(69)

إنِّي ذَاهِبٌ لِصَيْدِ الوَعْلِ الذَّهَبِيّ

يُمْكِنُكُم أَن تَضْحَكُوا أَيُّها الأَصْدِقَاء

ولكِني سَأَتْبَعُ هَذِه الرُؤْيَا التي تُراوِدُني

سأَجْرِي بَيْنَ الوِدْيَان والهِضَاب

وأَجُوبُ بُلْدَاناً بِلاَ أَسْمَاء

لأِني ذَاهِبٌ لِصَيْدِ الوَعْلِ الذَّهَبِي

أنتُم تَذْهَبُون إلى السُّوقِ

وتَعُودون إلى البيت مُحَمَّلِين بالبَضَائِعِ

ولكنَّ سِحرَ الرياحِ التي لا مستقَرَّ لَهَا

قد أَصَابني

ولا أدرِي كَيْفَ؟ ولاَ أَيْنَ؟

لن أُلْقِي بَالاً إلى قَلْبِي

وكلُّ ما أَملكه تَرَكْتُهُ وَرَائي

بَعِيداً عَنيّ

سَأَجْرِي بَيْن الجِبَالِ والوِدْيَانِ

وأَطوفُ بلداناً بلا أسَماءِ

لأِني ألاحِقُ الوَعْلَ الذَّهْبِي

(70)

أَتَذَكَّرُ يَوْماً مِن أَيَّام طُفُولَتِي

حِين عَوَّمْتُ فِي الخَنْدَقِ

زَوْرقاً من الوَرَقِ

كَانَ يَوْماً رَطْباً مِن أَيَّام يُولِيُو

وكُنْتُ وَحِيداً سَعِيداً بِلُعْبَتِي

أَعَوِّمُ في الخَنْدَقِ

زَوْرَقاً من الوَرَقِ

وفَجْأَةً تَكَاثَفَت السُّحُبُ

وَهَبَّتِ الرِّيحُ بِشَكْلٍ زَوابعَ عَنِيفَةٍ

فَتَدَفَّقَت سُيُولٌ من المِيَاهِ العَكِرَةِ

ومَلأَتَ الجَدْوَلَ

فَأغْرَقَت زَوْرَقِي

وفَكَّرْتُ في أَعْمَاقِي بِمَرَارَةٍ

أن العَاصِفة إنَّما هَبَّت قَصْداً

لِكَي تَحْرِمَني مِن هَذِه السَّعادَةِ

ويَبْدُو لِي الآن

أن ذَلِك اليَوْمَ الكَثِيَف السُّحُبِ من شَهْرُ يولُيو

لاَ حَدَّ لَهُ

وقد تَأَمَّلْتُ جَمِيع لُعَبِ الحَيَاةِ التي هُزِمْتُ فِيهَا

وكُنْتُ أَلْعَنُ قَدَرِي بِسَبَبِ اللُّعَبِ

الكَثيرَة التي مَارَسَها ضِدِّي

حِينَ تَذَكَّرْتُ فَجْأَةً

زَوْرَقَ الوَرَق ِ الذي غَرِق في الخَنْدَق ِ.

(71)

النَّهارُ لمَ يَنْتَهِ بعد

والمعرِضُ المقامُ على ضِفَّةِ النهرِ لم يَتِمَّ

كُنْتُ أَخشَى أَنَّني بَدَّدْتُ وَقْتِي

وخَسِرتُ آخر نُقُودي

ولكن، كَلاَّ، يا أخي!، لَقد بَقي لِي شَيءٌ

ولم يُجَرِّدْني القَدَرُ من كُل شيء

لقد انتهى البيعُ والشّراءُ
وصُفِّيَت كُلُّ الصَّفَقاتِ
وقد حَانَ الوَقتُ للعَوْدَة إلى البَيْتِ
يا حَارِسَ البَوَّابَةِ، هَل تَطْلُبُ أَجْرَكَ؟
لا تَخَفْ، لقد بَقي لِي شَيءٌ
والقَدَرُ لَمْ يُجَرِّدْني مِن كُلِّ شيءٍ
إن هُدُوءَ الرياحِ يُنْذِرُ بِمَجِيء العَاصِفَةِ
والسُّحُبُ المُنْخَفِضَة في جِهَة الغَرْبِ
لاَ تَعِدُ بِشيءٍ طَيِّبٍ
والمِيَاهُ الهَادِئَةُ تَنْتَظِرُ هُبُوبَ الرِّيحِ
فَلأُعَجِّل بِعُبُورِ النَّهْرِ
قَبْلَ أَن يُدْرِكَني اللَّيْلُ
يا صَاحِبَ الزَّوْرَقِ، هل تُرِيد أجْراً؟
أَجل، يا أخي، لَقد بَقي مَعي شَيءٌ
والقَدَرُ لم يُجَرِّدْني مِن كُلِّ شَيءٍ

تَحْتَ الشَّجَرَةِ وعَلى قَارِعَة الطَّرِيقِ
يَجْلِسُ المُتَسَوِّلُ
أواه . . إنَّه يُحَدِّقُ فِيَّ بِأَمَلٍ خَجُولٍ
يظنُّ أَنَّني غَنِيٌّ بِمَكاسِبِ اليَوْمِ
نَعم ، يا أخي ، لَقد بَقِي مَعِي شَيءٌ
والقَدَرُ لَمْ يَحْرِمْني مِن كُلِّ شَيءٍ
اللَّيْلُ يَزْدَادُ ظَلاَماً
والطَّرِيقُ وَحْشَةً وَوَحدَةً
والحُبَاحِبُ تَلْمَعُ بَيْنَ الأَوْرَاقِ
فَمَن أَنت الذِي تَتْبَعُني
بِخُطُوات خَفِيَّةٍ صَامِتَةٍ؟
أَجل ، إِني أَعرِفُ
تُرِيدُ أَن تَسْرِقَ كُلَّ مَكَاسِبِي
لَنْ أخيِّبَ أَمَلَك

إذ بَقِي مَعِي شَي ءٌ

والقَدَرُ لَمَ يَحْرِمْني مِن كُلّ شَيء

وفِي مُنتَصَفِ اللَّيْلِ

بَلَغْتُ بَيْتي

ويَدَاي فَارِغَتِانِ

وأَنْتِ تَنْظُرين بِعَيْنَيْنِ يَطْفَحُ مِنْهُما القَلَقُ.

عِنْدَ البَابِ

مُؤَرَّقَةً سَاكِنَةً

ومِثْل العُصفورِ الخَائِفِ

طِرْتِ نَحْو صَدْرِي

عَامِرَةً فَيَّاضَةً بالحُبّ

نَعَم يا إلَهي، نَعَم

لَقد بَقي لِي الكَثِيرُ

وَالقَدَرُ لمْ يُجَرِّدْني مِن كُلٍّ شَيء

بِأَيَّامٍ طَوِيلَةٍ من العَمَلِ الشَّاقِّ
شَيَّدْتُ مَعْبَداً
بِلا أَبْوابٍ ، ولاَ نَوافِذ
وبَنَيْتُ جُدْرَانه السَّمِيكَةَ
من الحَجَرِ المَتِينِ
ونَسِيتُ كُلَّ شيءٍ
وتَجَنَّبْتُ العَالَمَ كُلَّهُ .
وكنتُ أَتأمَّلُ في انبِهَارٍ شَدِيدٍ
الصُّورَةَ التي وَضَعْتُها عند الهَيْكَلِ
في الدَّاخِلِ ، كان لَيْلاً دَائِماً .
والمصابيحُ وحدها تَتَوقَّدُ بِزَيتِها المُعَطَّرِ .
ورائحةُ البَخُورِ التي لا تَنْقَطِعُ
كانت تَلُفُّ قَلْبي في دَوَّامَاتِها العَسِيرَةِ

وفي ليالِي الأرق ِ ، نَحَتُّ فَوْقَ الجُدْرَانِ الخَيَالِيَةِ
صوَراً دَاخِلَ مَتاهَاتٍ من الخُيُوطِ المُرْبِكَةِ .
خُيُولٌ مُجَنَّحَة ، زُهُورٌ بِوُجُوهٍ بَشَرِيّةٍ
نِساءٌ في أَجْسَام حَيَّاتٍ .
ولم أتْرَكْ فَتْحَةً واحِدَةً
يَنْفُذُ مِنها غِنَاءُ العَصَافِيرِ
أَو حَفِيفُ الوَرَق ِ
أَو ضَجَّة القَرْيَةِ الكَامِلَة .
والصَّوْتُ الوَحيد الذي كانَ يَتَرَدَّدُ
تَحْتَ القُبَّةِ المُظْلِمة
هُو صَوْت اندِهَاشِي
لقد صار ذِهْني مُرَكَّزاً وحَادّاً
كأنَّه اللَّهب الحَادّ ،
وقَد تَاهَت حَواسِّي كُلُّها في نَشْوَةِ الذُّهُولِ
ونَسِيتُ مُرُورَ الزَّمَنِ

حتّى أَصابَت صاعِقةٌ مَعْبَدِي .

وأَلمٌ حَادٌّ طَعَن صَدْرِي

وحَدَّقتُ في صُوَرِ الهَيْكَلِ

فَرَأيتُها ضَاحِكَة حَيَّةً

بِلَمْسَةَ الإِلَه الحَيَّة

ففي اللَّيلَةِ التي سَجَنْتُها فيها

كَانَت قَد بَسَطَت أَجْنِحَتَها

وتَلاَشَتْ . .

(73)

يَا أُمَّنَا الأَرْض

أيتُها الصَّابِرةُ الغَامِضَة

إن ثَروتَكِ لمَحْدُودَةٌ

ولكنَّك تُجْهِدِين النَّفْس لِكَي تَقُوتي ابنَاءَكِ

والقُوت دَائِماً نَادِرٌ قَلِيلٌ

والبَهْجَةُ التي تَمْنَحِينَها لَيْسَت أَبَداً كَامِلَةً

والألعَابُ التي تُبْدِعِينَها لأِطْفَالَك

كانت دَائِماً هَشَّةً

لا يُمْكِنُ أن تُشبع آمالَنَا

فَهل نَتَخَلَّى عَنْكِ بِسَبَب ذلك؟

إن ابتسَامَتَك التي يُعَتِّمُهَا الأَلَمُ

عَذْبَةٌ في عَيْنَيَّ

وحُبُّك الذي لا يعرفُ الانتهاء

حَبِيبٌ إلى قَلْبِي.

من نَهْدك

أَعَطَيتنا غذاء الحَيَاةِ

لا غِذَاءَ الخُلُودِ

ولهذا كانت عيناكِ دَائِماً سَاهِرَتَيْن.

مُنْذُ أَحْقَابٍ

وأنت تَعْمَلِين بالألوان والأغاني

ومع ذلك فإن سَماءَك لم تَبْن سِوى وهمِكِ الحَزِين ِ
وفوقَ ابدَاعَاتِكِ من الجَمَالِ
ضَبَابٌ من الدُّمُوع ِ
سَأَسْكُبُ أَغَانِيَّ
في قَلْبِك الصَّامِتِ
وحُبِّي في حُبِّكِ
وسأَعْبُدُكِ بالعَمَل ِ
وأُحِبُّ تُرَابَكِ المُؤلم
يا أمِّي الأَرْض

74

في قَاعَةِ الاسْتِقْبالاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ
كانَتَ وَرَقَةُ العُشْبِ البَسِيطَةُ
تَجْلِسُ هِي وشُعَاعُ الشَّمْس ِ، ونُجُوم منتَصَفِ اللَّيْل ِ
على بِسَاطٍ واحِدٍ

وكذلك أَغَانِيٌّ جَاءَت لِتُشَارِكَها هَذَا المَكَانَ
مِن قَلْبِ العَالمِ
مع مُوسِيقَى السُّحُبِ والغَابَاتِ
ولكن أَنْتَ، أَيُّها الرَّجُلُ الغَنِيُّ القَادِرُ
ليس لِثَرْوتِكَ دَوْرٌ
في هذه العَظَمَةِ البَسِيطَة لِذَهَب الشَّمْسِ البَهِيجِ
وانعكاسِ القَمَر اللَّطِيفِ
إن بَرَكَةَ السَّمَاءِ
التي تُعَانِقُ كلَّ شَيءٍ
لم تُسْكَبْ فَوْقَ هَذه الثَّروَةِ.
وحِينَ يَظْهَرُ المَوتُ
فَإِنَّها سَتُصَاب بالشُّحُوب والذُّبُولِ
وتَتَفَتَّتُ إلى غُبَارٍ

(75)

في مُنْتَصَفِ الليلِ

أعلنَ الراغبُ في التَّنسُّكِ:
هَذا هَو الوَقت الذي يَنْبَغِي فِيه
أَن أُغَادِر بيتي بَحْثاً عَن اللّه.
آه، من الذي شَدَّني طَوِيلاً
إلى هَذَا الوهم؟
فَهَمَس اللّه: (أنا)
ولكنَّ أُذَنَي الرَّجُلِ كانَتا مَسَدُودَتَيْن
وكانت زَوْجَتُه تَنَامُ في هُدُوءٍ على جَانِبِ السّريرِ
وكان ابنُها الصَّغِير نَائِماً في حِضْنِهَا
وهَمَس الصَّوْتُ:
إِنَّهمُا اللّه
ولكنّه لَمْ يَفْهَمْ
وَبكَى الطِّفْلُ في نَوْمِهِ
وتَشَبَّثَ بِحِضْنِ أُمِّهِ
فَأمر اللّهُ:

تَوَقَّفْ أيُّها الغَبِيّ

لاَ تَتخَلَّ عَن بَيْتِك

فَلَمْ يَسْمَعْ

فَقَال اللَّهُ في حُزْنٍ

لِماذَا يتخَلَّى عَنِّي عَبْدِي

لِكَي يَبْحَثَ عَنيّ؟

76

كان هناك معرِضٌ أَمَامَ المَعْبَدِ

وكانت السماءُ قد أَمْطَرَت عِند الفَجْرِ

والنَّهار يُوشِكُ على الانتِهَاءِ

وكان أَجْمَلَ من بَهْجَةِ الجُمُوعِ المُحْتَشِدَةِ

تِلك الابتِسَامَةُ الهَادِئَةُ

التي ارتَسَمَت على شَفَتَيْ صَبِيَّةٍ

اشْتَرَت بِفِلْسٍ واحدٍ

صَفَّارة من سَعَفِ النَّخْلِ

وتِلكَ البَهْجَةُ الحَادَّةُ التي تَنْشُرُهَا الصَّفَّارَةُ

كانت تُغَطِّي على الضَّجِيجِ والضَحَكَاتِ.

الشَّارِعُ كَان مُوحِلاً

والنَّهر كَان فَائِضاً

والحقُول مَغْمُورةً بِمِياهِ المَطَرِ التي لا تَنْقَطِعُ

وأَقْوَى من آلامِ الجُمُوع المُحْتَشِدَةِ

كَان أَلمُ صَبِّي لَمَ يَكُنْ يَمْلِكُ فِلْساً

لِكَي يَشْتَرِي عَصَاةً ملَوَّنَةً

وعَيْنَاه المَغْمُومَتَانِ تُحَدِّقَانِ في عَرَبَةِ البَائِعِ

وتجعلان مِن حُشُود البَشَرِ

شَيْئاً تَافِهاً

(77)

العَامِلُ وَزوْجَتُه

جَاءَا مِن بِلاَد الغَرْبِ
كَانَا يَحْفُرانِ لِصُنْعِ الآجرِّ
اللاَّزم للتَّنُّورِ
وطِفْلتُهَما الصَّغِيرةُ تَذْهَبُ إلى ضِفَّةِ النَّهْرِ
ولاَ تَنْتَهِي أبداً من غَسْلِ وتَلْمِيعِ القُدورِ والأَوْعِيَةِ
وأَخُوهَا
بِرَأسْهِ الأَسْمَرِ الحَلِيق
كان يَتْبَعُها عَارِياً، مُغَطَّى بِالوَحَلِ
ويَنْتَظِرُها بِصَبْرٍ على الضِفَّة الثَّانِيَةِ مِن النَّهْرِ
وتَعودُ إلى البَيْت بِجَرَّتِها المَلآى فَوْق رَأْسِهَا
والوِعَاءُ النُّحَاسِي يَلْمَعُ بِيَدِها اليُسْرَى
أَمَّا يَدُهَا اليُمْنَى فَتُمْسِكُ بالطِّفْلِ
إِنَّها الخَادِمَة الصَّغِيرة لأِمِّهَا التي تَنُوءُ
بِثقْلِ الأعْمَالِ المَنْزِلِيَّة
في أَحَدِ الأَيَّامِ

رَأَيتُ هَذا الطِّفْلَ العَارِي جَالِساً

ورِجْلَيه مَمْدُودَتَيْن

وأختَه تَجْلِس قُرْبَ الماءِ

تُلَمِّعُ وَعاء للشُّرْبِ بِحَفْنَةٍ من التُّرابِ

تُدِيرُه ثُمَّ تُديرُه

وبالقربِ منها خَرُوفٌ نَاعِمُ الصُّوفِ

يَرْعى عَلَى طُولِ الضِفَّةِ

ثمَّ اقتَرب من الطِّفْل الجَالِسِ

وفَجْأَة ثغا ثُغَاءً قَوِيّاً

فَهَبَّ الطِّفْلُ صَارِخاً فَزِعاً

وتَوَقَّفت الأُخْتُ عن تَنْظِيف الوعِاءِ

وهُرَعَت إِلَيْه

وأَخَذَت أَخاهَا بِذِرَاعٍ

والخَروفَ الصَّغِيرَبِذَراعٍ أَخرى

وَقَسَّمَت مُلاَطَفَتَها بَيْنَهُمَا

فَرَبَطت بِرِبَاط عَاطِفِيٍّ
بَيْنَ ذُرِّيَةِ البَهَائِمِ والبَشَرِ

(78)

كَانَ ذَلِك في شَهْر مايُو
والظَّهِيرةُ الخَانِقَة تَبْدُو طَوِيلَةً
لا نِهَايَةَ لَها
والأَرَضُ القَاحِلَةُ
ظَامِئةٌ تَتَشَقَّقُ من الحَرِّ الشَّدِيدِ
ومن ضِفَّة النَّهْرِ
سَمِعْتُ صَوْتاً يَدْعُوني
(تَعَالَ يَا كَنْزِي)
فَطَوَيْتُ كِتَابي
وَفَتَحْتُ النَّافِذَةَ كَي أَرَى
فَرَايتُ جَامُوساً ضَخْماً، مُغَطًى بِالوَحْلِ

يَقفِ قُرْبَ النَّهْرِ
بِعَيْنَيْن هَادِئَتَيْنِ مُسْتَسْلِمَتيْنِ
وطِفْلاً غَاطِساً في المَاءِ حَتَّى رُكْبَتَيْهِ
يَدعو الجَامُوس للاستِحْمَامِ
فابتَسَمْتُ طَرِباً
وشَعَرْتُ بِمَعْنَى من العُذُوبَةِ
دَاخِلَ قَلْبِي

(79)

غَالِباً مَا أسْأَلُ
أيْن تَخْتَفِي حُدُودُ المَعْرِفَةِ بَين الإنْسَانِ والحَيَوانِ
الذي لاَ يَمْلِكُ قَلْبُه مَوْهِبَةَ الكَلِمَةِ؟
في أي فِرْدَوس ٍ غَابِرٍ
وفي أيّ صَبَاحٍ سَالِف من أيَّام الخَلْق ِ
يَجْرِي الدَّرْبُ البَسِيطُ الذي يوَحِّدُ قَلْبَيْهِمَا؟

إِنَ آثارَ أَقَدامِهِما لَم تُمْحَ بَعْدُ

رَغْم أن القَرابَة بَيْنَهَما قَد نُسِيَتْ مُنْذُ عَهْدِ سَحِيقٍ

وفَجْأَةً تَسْتَيْقِظُ الذَّاكِرَةُ الغَامِضَةُ.

على مُوسيقى بِلاَ كَلِمَاتٍ

ويَنْظُرُ الحَيَوانُ فِي وَجْهِ الإِنْسَانِ

بِثِقَةٍ رقيقة

ويَنْظُرُ الإِنسانُ في عَيْنَي الحَيَوانِ

بعاطفَةٍ طَرُوب

حتى لَيَبْدُو تقريباً أن الصَّدِيقَيْن يَتلاَقَيانِ مُقَنَّعَيْنِ

وعَبْر هَذا التَنكُّرِ

يَتَعَارَفان

ولكن بِغُمُوضٍ.

(80)

أَيَتُها المَرْأةُ الرَّشِيقَةُ

بِنَظْرَةٍ وَاحِدَةٍ من عَيْنَيكِ
يُمْكِنُكِ أن تَسْلُبِي كُلَّ ثَرْوةِ الأَغْنِيَاتِ
التي تَعْزِفُها قِيثَارةُ الشُّعَراءِ
ولَكِنَّك لاَ تُصْغِينَ إلى مَدَائِحِهِم
ولِهذَا أَعْبُدُكِ.
إن كَمَالَ ذِرَاعَيْكِ
يُضِيفُ مَجْداً إلى أُبَّهَةِ أيِّ مَلَكٍ
بِمُداعَبَتِهمَا
ولكنَّكَ تَسْتَعْمِلين هَاتين الذِّراعيْن
لِكَنْسِ الغُبَارِ وَتنْظِيفِ بَيْتِك المُتَواضِع
ومن أَجْلِ ذَلِك
أَرانِي أَمتلِىء بالدَّهْشَةِ

(81)

لِماذَا تَهْمِسُ بِخُفُوتٍ في أُذُني

أيُّها الموتُ

يا مَوْتي

عندما تَذْبُلُ الزُّهُوُر في المَساءِ

وتُعْودُ البَهَائِمُ إلى حَظَائِرِها

فإنَّك تَأْتي بِخَفَاءٍ

إلى جَانِبي

وتَهْمِس بِكَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ

أَبِهذهِ الطَّرِيقَةِ تَنْوي القَبْضَ عَلَيّ،

بِالهَمْسِ المُخَدِّرِ النَّاعِس والقُبُلات البَارِدَةِ؟

أَيّها الموتُ.. يا مَوْتي

ألا تكون هُناك احتِفَالاتٌ فخمة مُهِيبَةٌ

تَحْتَفِي بِزفَافِنَا؟

أَلاَ تَضُمُّ شَعْرَكَ الأَسْمَر المَضْفُورَ

بِقِلادَة من الزُّهُورِ؟

أَلا يُوجَدُ أَحَدٌ يَحْمِلُ شِعَارَك

ويَتَقَدَّم بِهِ أَمَامَ مَوْكِبِكَ؟
واللَّيْلُ أَلاَ يَلْتَهِبُ بِنُورِ المَشَاعِلِ الأَحْمَرِ؟
أَيّها الموتِ . . يَا مَوْتِي
تَعَالَ عَلَى رَنِينِ مَحَارِكَ
تَعَالَ في لَيْلِ الأَرَقِ
ولتَكْسُنِي بِطَيْلَسَانِكَ القُرْمُزِي
ولتُمْسِكْ بِيَدِي، ولتَأْخُذْنِي
إن عَرَبَتَكَ جَاهِزَةٌ أَمَامَ بَابِي
بالخُيُولِ التي تَصْهَلُ بِصَبْرٍ نَافِدٍ
وَانظُرْ إلى وَجْهِي فِي كِبرِيَاء
أَيُّها المَوْت . . يَا مَوْتِي

(82)

أَنَا وعَرُوسي
سَنَلْعَبُ هَذهِ اللَّيلَة

لُعْبَةَ المَوْتِ.

اللَّيلةُ حَالِكَة السَّوَادِ.

وسُحُب السَّماءِ تَبْدُو رَعْنَاءَ

وأَمْواجُ البَحْرِ هَائِجَةٌ.

لقد تَرَكْنا سَرِيرَ أَحْلاَمِنَا

وفَتَحْنَا الأَبوابَ على مِصْرَاعَيْها

وخَرَجْنَا

أنا وعَرُوسي

وجَلَسْنَا فوق الأُرْجُوحَةِ

تَدْفَعُنَا الرِّيحُ العَاصِفَة.

وكانتَ عَرُوسِي

تَتَحَرَّكُ في مَرحٍ يُمَازِجُهُ الخَوْفُ

وتَلْتَصِقُ بِصَدْرِي.

ولَقد عَمِلْتُ مِن أَجْلِها طَوِيلاً

وبِلُطْفٍ ورِقَّةٍ.

فَمِن أَجْلِها صَنَعْتُ سَرِيراً من الزُّهُورِ

ومن أَجْلِها أَغْلَقْتُ الأبوابَ حَتّى أُبْعِدَ عن عَيْنَيْها

الضَّوءَ القَاسِي.

وقَبَّلْتُ شَفَتَيْها بِرِقَّةٍ ونُعُومَةٍ

وهَمَسْتُ بِعُذُوبَةٍ في أُذُنَيْها

حَتى أَوْشَكَ أَنْ يُغْمَى عَلَيها من الوَهَنِ والاستِرْخَاءِ

لَقد تَلاشَتَ في أثيرٍ من العُذُوبَةِ الغَامِضَةِ

لاَ حَدَّ لَه

ولم تَعُدْ تَسْتَجِيبُ إلى مُلاَطَفَتِي

كَما أن أَغَانِيَّ لم تَعُد قَادِرةً على إيقَاظِهَا

وهَذهِ اللَّيلة

جَاء مِن الغَابِ، نِدَاء العَاصِفَةِ

فاستَيْقَظت عَرُوسِي مُرْتَجِفَةً

واخَذَت بِيَدِي وخَرَجَتْ

شَعْرُهَا يَتطَايَرُ مَع الرِّيحِ

وخِمَارُهَا يُرَفرِفُ
وقِلادتُهَا تُخَشْخِشُ فَوْقَ صَدْرِهَا
إن دُفْعَةَ المَوتِ أَلْقَت بِها فِي خِضَمِّ الحَيَاةِ
وهَا نَحْن الآن
وَجْهاً لِوَجْهِ
وَقَلْبَاً لِقَلْبِ
أَنَا وَعَرُوسي

83

كَانَت تَسْكُنُ إلى جَانِبِ الهَضَبَةِ
عِندَ طَرَف حَقْلِ القُمْحِ
قُرْبَ النَّبعِ الذي يَجرِي في جَدَاوِلَ ضَاحِكَةٍ
تَحت الظِّلالِ المهيبَةِ للأشجارِ العَتِيقَةِ.
النِّسَاءُ يَذْهَبن لِمَلءِ الجِرَارِ
والمَارَّةُ يَجْلِسُون للرَّاحَةِ والحَدِيثِ

كَانَت تعْمَلُ

وتَحْلُمُ كُلَّ يَوْمَ على صَدَى الجَدْوَلِ الرَّقْرَاقِ

وفي إِحدى الأُمْسِيَاتِ

هَبَطَ غَرِيبٌ من القمَّة المَحْجُوبَةِ بالضَّبَابِ .

كان شَعْرُه مَنْفُوشاً مِثل الحَيَّاتِ النَّاعِسَةِ

وسألْنَاهُ مُنْدَهِشِين :

مَن أَنْتَ؟

ولكِنَّه لَم يُجِبْ

وجَلَس مُنْتَحِياً جانِباً من الجَدْوَلِ الصَّاخِبِ .

ويَنْظُرُ في صَمْتٍ إلى الكُوخِ الذي كَانَت تَسْكُنُهُ .

وارتَجَفَت القُلُوبُ من الخَوْفِ

وحِينَ هَبطَ اللَّيْلُ ، عُدْنَا إلى دِيَارِنَا

ونَحنُ نُفَكِّرُ في الغَدِ .

حِين جَاءَت النِّسوةُ تردُ مَاءَ النَّبْعِ

تَحتْ ظِلاَلِ أَشْجار الدُودَار ،

كَانَت أَبْوابُ الكُوخِ مَفْتُوحَةً

ولكن صَوتْها لاَ يَتردَّدُ في جَوانِبِهِ

فَأَين غَابَ مُحَيَّاهَا البَاسِمُ؟

الجَرَّة الفَارِغَةُ مُنْطَرِحَةٌ على الأَرْضِ

ولاَ أَحَدَ يَعْرِفُ أَين هَرَبتَ قَبل ظُهُورِ الصَّبَاحِ .

ورَحَل أَيْضاً ذَلك الغَرِيبُ

وفي شَهْر مَايو أَخَذَت الشَّمسَ تَتَوَهَّجُ

وذابَ الثَّلْجُ على الهِضَابِ

وجَلَسْنَا قُرْب النَّبْعِ

نَسْأَلُه بَاكِينَ

أيكُونُ هُناكَ جَدْوَلٌ في البَلَدِ الذي رَحَلَت إلَيْه؟

أَيُمْكِنُها أَنْ تَمْلأَ جَرَّتَها وتُطْفِيء ظَمَأَهَا في هِذه الأيامِ

الحَارَّةِ؟

وَتَبَادَلْنَا في دَهْشَةٍ هَذا السُّؤَال :

هل يُوجدُ بَلَدٌ آخَرَ وَراءَ هذِه الهِضَابِ التي نَعِيشُ فِيها؟

كانَت أُمْسِيةً صَيْفِيَّةً

والنَّسيم يَهُبُّ من الجَنُوبِ

وأنا جَالِسٌ في غُرْفَتِها المَهْجُورَةِ

حَيثَ ما يزَالُ المِصْبَاح مُنْطَفِئاً

حِين اخْتَفَت فَجْأَةً أَمَام عَيْنِي

جَمِيعُ الهِضَابِ كَما لَو كانت خِيَاماً قد اقْتُلِعَتْ

أهذه أَنْت تأْتِين؟

كَيف حَالُكِ أيتُّها الصَبِيَّةُ؟

هل أنتِ سَعِيدَةٌ؟

أَين يُمْكِنُك أَن تَجِدِي مَلاذاً تحت هذه السَّمَاءِ المكشوفَةِ؟

أَوَّاه ، لَم يَعُد يُوجَدَ جَدْوَلُنَا

ذاك الذي كَان من المُمْكِنَ أن يُطْفىء ظَمَأَكِ

وأَجَابَت :

هُنا السَّماء نفسُها ، غَيْر أنها مُتَحَرِّرةٌ من الهِضَابِ

التي تَصْنَعُ السُّهولَ في بِلاَدِكُم .

وهَذَا هُو السَّيْلُ الدَّافِقُ نفسهُ،
ولكنه صَارَ نَهْراً عَظِيماً
وهذه الأَرضِ نفسُها
ولكنها صَارَت سَهْلاً رَحِيباً
وقالت في تَنَهُّدٍ:
هُنَا يُوجَدُ كُلُّ شَيْءٍ سِوى أَنَّنا لاَ نُوجَدُ
ثُمّ قالت وهي تَضْحَكُ ضِحْكَةً حَزِينَةً:
إِنَّكم جَمِيعاً في قَلْبي
وحين استَيْقَظْتُ سَمِعْتُ خَرِيرَ السَّيْلِ الدَّافِقِ
وحَفِيفَ أَشْجَار الدُودار يَسْريان في اللَّيلِ

(84)

فَوْقَ حُقُول الأَرزِ الخَضْراءِ والصُّفْراءِ
تَمُرُّ ظِلاَلُ سُحَبِ الخَرِيف
تَتْبَعُها الشمسُ التي تَكْسِرُ طَوْقَ السُّحُبِ ومُضَايَقَاتها

والنَّحْلُ الذِي نَسِيَ مَصَّ العَسَلِ
كان مُنْتَشِياً بالنُّورِ
ويُدَنْدِنُ مِثْلَ المَجَانِين
والبَطّ فَوْقَ جُزُرِ النَّهْرِ
يَمْرَحُ بِلاَ مُبَرّرٍ
لاَ أَحَدَ يَعُودُ إلى بيتِه هَذا الصَّبَاحِ
أيُّها الإِخوةُ
ولا أَحَدَ يَذْهَبُ إلى العَمَلِ
فَلنَقْبِضْ قَافِزِينَ عَلى زُرْقَةِ السَّمَاءِ
وَلِيَتَهَادَ الضَّحِكُ في الجَوِّ
مِثْلَ رَغْوَةِ أَمْوَاجِ البَحْرِ.
أَيُّها الإِخْوَةُ
فَلنُبَدِّدْ صَبَاحَنا
في أَغْنِيَاتٍ تَافِهةٍ

(85)

مَنْ أَنْتَ أَيُّها القَارِیء
الذي سَتَقْرَأُ شِعْرِي بَعْدَ مِئَاتِ الأَعْوَامِ
لا أَسْتَطِيعُ أَن أَبْعَثَ إِلَيكَ
زَهْرَةً وَاحِدَةً من ثَرْوةِ هَذا الرَّبِيعِ الزَّاهِر
ولا خَيْطاً ذَهَبِياً
مُنْسَاباً من السُّحُبِ البَعِيدَةِ.
افْتحَ الأَبوابَ
وانْظُرْ حَوْلَك
ومِن بُسْتَانِك الزَّاهِرِ
اقْطُفِ الذِّكْرَياتِ العَطِرَةَ
للزُّهور التي ذَبُلَت مُنْذُ مئة عَامٍ
وفي فَرْحَةِ قَلْبِكَ
يُمْكِنُكَ أَنْ تُصْغِي إلى البَهْجَةِ الحَيَّةِ

التي غَنَّيْتُها أَنَا في صَباحٍ رَبيعيّ
مُرْسِلاً صَوْتَكَ الفَرِحَ البَهيجَ
عَبْرَ مِئَاتِ الأَعْوَامِ

حيثُ الفِكْرُ الذي لا يعرفُ الخَوْفَ

وحَيْثُ الرّأس يرتفعُ شامخاً عالياً

وحَيْثُ المَعْرِفَةُ حُرّةٌ

والعالَم غيرُ مُمَزّق

داخِلَ الجُدْرَانِ المألوفةِ الضيّقة

وحيْثُ تنبثِقُ الكَلِماتُ من أعماق الحَقِيقَةِ

وحيثُ الجَهْدُ المُتَواصِل يمُدُّ ذِرَاعَيْه نحو الكَمَالِ

وَحَيْثُ نهر البَلَدِ الصّافي

لا يَضِلّ طَرِيقَه في رِمَالِ صَحْراء

العادات البالية

وحيثُ تَقُود العَقْلَ إلى الأمام

نحو أفكارٍ وأعمال تَزْدَادُ رَحَابَةً على الدّوام،

في ذلِكَ الجَوّ من الحُرّيَة

اجعَلْ بَلَدِي ينْهَض

يا رَبّ . . .

الدار العربية للكتاب

المقر الرئيسي : شارع عربة المصروعي ـ ص. ب : 3185 طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ـ الهاتف : 30384 ـ 47287 ـ تلكس : 20003 الكتاب

الفرع الرئيسي : 4 ، نهج 7101 ـ المنار 2 ص. ب : 1104 القباضة الأصلية 1000 تونس ـ الجمهورية التونسية

ـ الهاتف : 236600 ـ 236025 ـ تلكس : 14966 كتاب